المكتبة الأهلية ـ بمصر

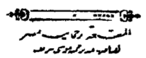
مدنية العرب

في الجاهلية والإسلام

« بينما أهل أوربا تائهون فى بيداء الجهالة . إذ سطع نور قوى من جانب الامة الاسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد .. وكانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وتونس وغرناطه وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ، ومنهـا انتشر فى الامم واغتنم منها أهل أوربا فى القرون الوسطى مكتسفات وصناعات وفنون علمية . وأقاموا أساس ممالكهم على شرائع الاسلام » (دروى وزير معارف فرنسا)

تأليف

محمد رشدى ــ الخبير أمام محكمة قنا





في الجاهلية والاسلام

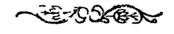
هو

كتاب تاريخي أدبي أخلاقي سياسي يدل على ما للعرب من الفضل
على الأمم في العلوم والفنون والصنائع والسياسة المدنية

تأليف

محمد مبروك نافع

الخبير امام محكمة مصر



« مطبعة السعاده بجوار محافظه مصر سنة ١٣٢٩ ه‍ – ١٩١١ م »



نحمدك يامن حليت الانسان بحلية الأدب واصطفيت من خلاصته سيد العجم والعرب سيدنا محمد الذى تمت به مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وجعلته أفضل الأنبياء وأمته خير الأمم وشريعته ناسخة للشرائع عذبه وملته حنفية سمحة خيرملة فصل اللهم عليه وعلى آله مصابيح الهدى وأصحابه أنجم الاهتدا ماتندى فرى على الغصون وغردت بلابل الأفراح فتسلى بها كل محزون

* وبعد * فيقول الفقير الى الله تعالى محمد رشدى الجركسى جنسا الحتكوى أصلا المصرى موطنا انه لما كانت العرب [illegible] قديمة في الرياسة في الأمم طائرة الصيت فى الآفاق ونالت من العز والرفعة مجدا أثيلا حتى دانت من العظمة وسمو المنزلة فى المشرق مالم تبلغه دولة الروم ان فى المغرب فكانت [illegible] العلم والمعارف زاهية زاهرة فى أول سطوتها معمورة بالمدائن الكبيرة [illegible] المشهورة والأبراج المنيعة والقصور الرفيعة والصروح الشامخة [illegible] التى لم يبق لها من هذا السؤدد والمجد والأبهة والجلال إلا [illegible]

[illegible] الكتاب وأتيت فيه على نبذ من تاريخ [illegible] على [illegible] على العرب [illegible] سنة ١٨١٢ ميلاديه وشهد بأنه يوجد فى [illegible] مانصعه أوروبا من الآلات والاختراعات [illegible] توحش العرب ونشأة الجهل بحقيقتهم وحقيقة بلادهم

وكنت [illegible] المعارف ومفيض العوارف المتعلق فى [illegible] خديوى مصر الحاج عباس الثانى [illegible] وأحكامه فى ظل ملك الاسلام والمسلمين وأمير المؤمنين [illegible] محمد رشاد أدام الله دولته [illegible] النفع العميم [illegible]

[illegible] محمد رشدى

المقدمة

(وفيها فصلان)

الفصل الاول

لبث العرب أربعة قرون متواليه مستودع المعرفة وملجأ الحكمة فكانت دولتهم عروة وصل بين علم المتقدمين وعلم المتأخرين ولولاهم لاندثر ذلك العقد وعفا كثير من معالم العلم والعرفان

فان معظم ماتناولته الافرنج من علم الاقدمين قبل فتح القسطنطينية انما كان عن العرب وقد نبغ فيهم علماء في كل فن استحلوا الحقائق العلمية وأبقوا للخلف من مبتكراتهم وتوسعاتهم مباحث واكتشافات لو اطلع عليها عالم من علماء العصر الحاضر في الشرق لقال انها علوم خرافات وقد عنيت بالشرق خصوصا لان علماء أوروبا لم يزالوا يبحثون في كل علم وضعته العرب ويستنبطون منه مايوافق حال الزمن وينطبق على عقول الامم حتى اذا وصلوا الى نتيجة حسيه ونظريه مستحسنه أظهروا ما اكتشفوه وسموه باسم غير الاسم الذى وضع له بمعرفة السلف فخذ لك مثلا علم التنويم المغناطيسى ومناجاة الارواح اللذين شاع ذكرهما بيننا وبرعت فيهما علماء أوروبا ولم نظهر لنا من علماء الشرق من يكشف لنا سر هذين العلمين فان مجد العرب قد سبقتهم فيهما [illegible] برهنوا على معتقداتهم وقوتهم الفكرية وكانوا يسمون ذلك علم العزائم [illegible] ولعيه [illegible] كثيرة كما توافق غيره من العلوم التى سيأتى ذكرها [illegible] كما يفعل غيرنا من الامم الاوروبية [illegible] حتى أصبح [illegible] ينطبق علينا قول أفلاطون ما من علم مستحيل الا والجهل [illegible]

فمدنية أوروبا الحالية انما [illegible] ودرسوها عليهم عند ما كانوا مقيمين ببلادهم [illegible] الكتب العربيه الموجودة بدور الكتب [illegible] وسعوا فى ترجمة الكتب ونقلها الى لغاتهم واجتهدوا [illegible] التى نحن عنه غافلون حتى وصلنا الى درجة متناهية فى [illegible]

وقد طلب أحد رجال الجمعية الاخيرة من مصر كتابا اسمه جوامع علم النجوم والحركات السماوية لابن كثير الفرغاني أحد منجمي المأمون فاطلعت عليه فوجدت فيه مع صغر حجمه براهين عن تكوّر الارض ودورانها حول محورها وتقسيمها الى مناطق وبروج مما أدهشني وقد تكلم فيه مؤلفه على سبب الخسوف والكسوف وغياب الشمس عن القطب مدة من الزمان وعلى الجو وطبيعة الكواكب وابعادها وسيرها الشيء الذي اتخذه علماء أوروبا ودوّنوه في مؤلفاتهم وساروا على نمطه في علمهم وعملهم

فاذا قارن أحد العلماء الشرقيين ما في هذا الكتاب على ما العلماء أوروبا من المؤلفات فانه لا يجد بين المؤلف العربي القديم والمؤلف الغربي الحديث اختلافا بل يجد ان قوّة العربي في البرهنة على معتقده ومتانة التأليف تفوق برهنة العلماء الغربيين بكثير واستعمل العرب أيضا الساعة الشمسية في حسابهم واعتبروا ابدأ اليوم من نصف نهاره وهو الحساب الافرنجي الآن وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الالمانية وطبع الاصل مع الترجمة العربية ومن كتبهم أيضا التي أصبحت لا أصل لها في بلادنا كتاب الصور السمائية لعبد الرحمن بن عمر ابن محمد بن سهل الصوفي ويسمى بأبي الحسن ويعرف بكتاب صور الكواكب الثابتة وقد ترجم أيضا الى اللغة الفرنساوية ونقل الى لغات أخرى

فمن هنا يظهر للمطلع اهتمام أوروبا بكتب العرب وعلومهم ويتضح لك من الفصل الآتي أنواع العلوم التي اشتغل بها أولئك القوم مع بيانها

الفصل الثاني

(في عدد العلوم وبيان أصولها وأسمائها)

اختلف المؤرخون في عدد العلوم المدوّنة في الكتب فقد روى عن الشافعي رحمه الله تعالى انه عد في مجلس هارون الرشيد ثلاثة وستين نوعا من علوم القرآن وقال بعضهم العلوم المستخرجة من القرآن ثمانون علما ودوّن فيها كتب كثيرة والبعض الآخر قال ان العلوم المدوّنة ثلاثمائة وستون علما وقد زاد بعضهم كثيرا حتى انهم عدوها بالالوف وقد اطلعت على ثلاثة كتب مدوّن بها موضوعات العلوم وتعاريفها أحدها مفتاح السعادة

مائة وستة وخمسين علما من علومهم واليك بيانها مقسمة على حسب ما فى الكتاب الى ثلاثة أقسام علمية وعملية وشرعية

القسم الاول

﴿ العلوم العلمية ﴾

(فى بيان فضيلة العلم والتعليم)

فى شرائط المتعلم ـ فى وظائف المعلم وآدابه ـ بيان النسبة بين طريق النظر وطريق التصفية ـ الارشاد الى كيفية النظر وفيه دوحات

الدوحة الأولى فى العلوم ـ الخطية وفيها مقدمة وشعبتان

الشعبة الأولى فى كيفية العلوم المتعلقة بالصناعة الخطية ـ علم أدوات الخط ـ علم قوانين الكتابة ـ علم تحسين الحروف ـ علم كيفية تولد الخطوط عن أصولها ـ علم ترتيب حروف التهجى ـ علم الاملاء ـ علم تركيب اشكال بسائط الحروف ـ علم املاء الخط العربى ـ علم خط المصحف ـ علم خط العروض

الدوحة الثانية فى علوم تتعلق بالألفاظ وفيها مقدمة وشعب ـ المقدمة

الشعبة الأولى فيما يتعلق بالمفردات ـ علم مخارج الحروف ـ علم اللغة ـ علم الوضع علم الاشتقاق ـ علم الصرف

الشعبة الثانية فيما يتعلق بالمركبات ـ علم النحو ـ علم المعانى والبيان والبديع علم العروض ـ علم القوافى ـ علم قرض الشعر ـ علم مبادئ الشعر ـ علم الانشاء علم مبادئ الانشاء ـ علم المحاضرات ـ علم الدواوين ـ علم التواريخ

الشعبة الثالثة فى فروع العلوم العربية ـ علم الامثال ـ علم وقائع الأمم ورسومهم علم استعمال الالفاظ فى المعانى التشبيهية والكنائية ـ علم الترسل ـ علم الشروط والسجلات ـ علم الاحاجى والاغلاط ـ علم الالغاز ـ علم المعمى ـ علم التصحيف ـ علم المقلوب ـ علم الجناس ـ علم سامرة الملوك ـ علم حكايات الصالحين ـ علم المغازى والسير

فمن الجمعيات المستشرقة جمعية بالمانيا وجمعية بانكلترا وجمعية بايطاليا وجمعية بفرنسا وقد طلب أحد رجال الجمعية الاخيرة من مصر كتابا اسمه جوامع علم النجوم والحركات السماوية لابن كثير الفرغاني أحد منجمي المأمون فاطلعت عليه فوجدت فيه مع صغر حجمه براهين عن تكوّر الارض ودورانها حول محورها وتقسيمها الى مناطق وبروج مما أدهشني وقد تكلم فيه مؤلفه على سبب الخسوف والكسوف وغياب الشمس عن القطب مدة من الزمان وعلى الجو وطبيعة الكواكب وابعادها وسيرها الشئ الذي اتخذه علماء أوروبا ودوّنوه في مؤلفاتهم وساروا على نمطه في علمهم وعملهم

فاذا قارن أحد العلماء الشرقيين ما في هذا الكتاب على ما للعلماء أوروبا من المؤلفات فانه لا يجد بين المؤلف العربي القديم والمؤلف الغربي الحديث اختلافا بل يجد ان قوّة العربي في البرهنة على معتقده ومتانة التأليف تفوق برهنة العلماء الغربيين بكثير واستعمل العرب أيضا الساعة الشمسية في حسابهم واعتبر وابدأ اليوم من نصف نهاره وهو الحساب الافرنجي الآن وقد ترجم هذا الكتاب الى اللغة الالمانية وطبع الاصل مع الترجمة العربية ومن كتبهم أيضا التي أصبحت لا أصل لها في بلادنا كتاب الصور السمائية لعبد الرحمن بن عمر ابن محمد بن سهل الصوفي ويسمى بأبي الحسن ويعرف بكتاب صور الكواكب الثابتة وقد ترجم أيضا الى اللغة الفرنساوية ونقل الى لغات أخرى

فمن هنا يظهر للمطلع اهتمام أوروبا بكتب العرب وعلومهم ويتضح لك من الفصل الآتي أنواع العلوم التي اشتغل بها أولئك القوم مع بيانها

الفصل الثاني

(في عدد العلوم وبيان أصولها وأسمائها)

اختلف المؤرخون في عدد العلوم المدوّنة في الكتب فقد روى عن الشافعي رحمه الله تعالى انه عد في مجلس هارون الرشيد ثلاثة وستين نوعا من علوم القرآن وقال بعضهم العلوم المستخرجة من القرآن ثمانون علما ودوّن فيها كتب كثيرة والبعض الآخر قال ان العلوم المدوّنة ثلاثمائة وستون علما وقد زاد بعضهم كثيرا حتى انهم عدوها بالالوف وقد اطلعت على ثلاثة كتب مدوّن بها موضوعات العلوم وتعاريفها أحدها مفتاح السعادة

لطاش كوبرزاده الغيرمطبوع ويعرف بموضوعات العلوم فانه احتوى على أصول مائة وستة وخمسين علما من علومهم واليك بيانها مقسمة على حسب مافى الكتاب الى ثلاثة أقسام علمية وعملية وشرعية

القسم الاول

﴿ العلوم العلمية ﴾

(فى بيان فضيلة العلم والتعليم)

فى شرائط المتعلم ـ فى وظائف المعلم وآدابه ـ بيان النسبة بين طريق النظر وطريق التصفية ـ الارشاد الى كيفية النظر وفيه دوحات

الدوحة الأولى فى العلوم ـ الخطبة وفيها مقدمة وشعبتان

الشعبة الأولى فى كيفية العلوم المتعلقة بالصناعة الخطية ـ علم أدوات الخط ـ علم قوانين الكتابة ـ علم تحسين الحروف ـ علم كيفية تولد الخطوط عن أصولها ـ علم ترتيب حروف التهجي ـ علم الاملاء ـ علم تركيب اشكال بسائط الحروف ـ علم املاء الخط العربى ـ علم خط المصحف ـ علم خط العروض

الدوحة الثانية فى علوم تتعلق بالألفاظ وفيها مقدمة وشعب ـ المقدمة

الشعبة الأولى فيما يتعلق بالمفردات ـ علم مخارج الحروف ـ علم اللغة ـ علم الوضع علم الاشتقاق ـ علم الصرف

الشعبة الثانية فيما يتعلق بالمركبات ـ علم النحو ـ علم المعانى والبيان والبديع علم العروض ـ علم القوافى ـ علم قرض الشعر ـ علم مبادئ الشعر ـ علم الانشاء علم مبادئ الانشاء ـ علم المحاضرات ـ علم الدواوين ـ علم التواريخ

الشعبة الثالثة فى فروع العلوم العربية ـ علم الامثال ـ علم وقائع الأمم ورسومهم علم استعمال الالفاظ فى المعانى التشبيهية والكنائية ـ علم الترسل ـ علم الشروط والسجلات ـ علم الاحاجى والاغلاط ـ علم الالغاز ـ علم المعمى ـ علم التصحيف ـ علم المقلوب ـ علم الجناس ـ علم مسامرة الملوك ـ علم حكايات الصالحين ـ علم المغازى والسير

علم تاريخ الخلفاء - علم طبقات القراء - علم طبقات المفسرين - علم طبقات المحدثين علم سير الصحابة والتابعين - علم طبقات الشافعية والحنفية والمالكية والحنابلة - علم طبقات النحاة - علم طبقات الحكماء

الدوحة الثالثة في علوم باحثة عما في الاذهان وفيها مقدمة وشعبتان - المقدمة وفيها مبحث يتعلق بالنرد والشطرنج

الشعبة الاولى في العلوم الآلية العاصمة عن الخطأ في الفكر والنظر - علم المنطق والميزان

الشعبة الثانية في العلوم العاصمة عن الخطأ في المناظرة والدرس - علم أدب الدرس علم النظر - علم الجدل - علم الخلاف

الدوحة الرابعة في العلم المتعلق بالاعيان وفيه مقدمة وعدة شعب

المقدمة في التوطئة

الشعبة الاولى في العلم الالهى

الشعبة الثانية في فروع العلم الالهى - علم معرفة النفوس الانسانية - علم معرفة الملائكة - علم معرفة الميعاد - علم امارة النبوات - علم مقالات الفرق - علم تقاسيم العلوم

الشعبة الثالثة في العلم الطبيعي - علم الطب - علم البيطرة - علم البيزرة - علم الزدره - علم النبات - علم الحيوان - علم الفلاحة - علم المعادن وهى ٧٩٠ معدنا علم الجواهر - علم الكون والفساد - علم قوس قزح - علم الفراسة - علم تعبير الرؤيا علم أحكام النجوم - علم السحر - علم الطلسمات - علم السيميا - علم الكيميا - علم طبقات الارض

الشعبة الرابعة في فروع العلم الطبيعي - علم التشريح - علم الكحالة - علم الاطعمة علم الصيدلة - علم طبخ الاشربة - علم قلع الآثار - علم تركيب أنواع المداد - علم الجراحة علم الفصد - علم الحجامة - علم المقادير والاوزان الطبية - علم الشامات والخيلان - علم الاسارير - علم الاكتاف - علم قيافة الاثر - علم قيافة البشر - علم الاهتداء في البرارى والقفار - علم الرياقة - علم استنباط المعادن - علم نزول الغيث - علم العرافة - علم الاختلاج - علم الاختبارات - علم الرمل - علم الفأل - علم القرعة - علم الطيرة والزجر علم الكهانة - علم النيرنجات - علم الخواص - علم الرقى - علم العزائم - علم الاستحضار

علم دعوة الكواكب ـ علم الفلقطيرات ـ علم الاخفاء ـ علم الحيل الساسانية ـ علم كشف الدك ـ علم الشعبذة ـ علم تعلق القلب ـ علم الاستعانة بخواص الادوية

الشعبة الخامسة فى العلوم الرياضية ـ علم الهندسة ـ علم الهيئة ـ علم العود علم الارثماطيقى ـ علم الموسيقى

الشعبة السادسة فى فروع علم الهندسة ـ علم عقود الابنية ـ علم المناظر ـ علم المرآة المحرقة ـ علم مراكز الاثقال ـ علم جر الاثقال ورفعها ـ علم التعديل ـ علم البنكامات (أى علم الآلات المقدرة للزمان) ـ علم الملاحة ـ علم السباحة ـ فن العمارة علم المساحة ـ علم استنباط المياه ومعرفة موقعها فى باطن الارض وصلاحيتها للاستعمال علم الآلات الحربية ـ علم الرمى ـ علم الميكانيكا ـ علم الآلات المبنية

الشعبة السابعة فى فروع علم الهيئة ـ علم الزيجات والتقاويم ـ علم كتابة التقاويم علم حساب النجوم ـ علم كيفية الارصاد ـ علم الآلات الرصدية ـ علم المواقيت ـ علم الآلات الظلية ـ علم الاكر المتحرك ـ علم تسطيح الكرة ـ علم صور الكواكب ـ علم مقادير العلويات ـ علم منازل القمر ـ علم الجغرافيا ـ علم مسالك البلدان ـ علم معرفة البرور ومسافاتها ـ علم ضواحى الاقاليم ـ علم خواص الاقاليم ـ علم الادوار والاكوار علم القرانات ـ علم الملاحم ـ علم واسم السنة ـ علم مواقيت الصلاة ـ علم وضع الاسطرلاب ـ علم عمل الاسطرلاب ـ علم ربع الدائرة وصنعه وعمله عملان ـ علم آلات الساعه

الشعبة الثامنة فى فروع علم الحساب ـ حساب التخت والميل ـ علم الجبر والمقابله علم حساب الخطائين ـ علم الدور فى الوصية ـ علم حساب الدرهم والدينار ـ علم حساب الفرائض ـ علم حساب الهواء ـ علم حساب العقود ـ علم أداء الوفق ـ علم خواص الاعداد ـ علم التعابى والعدد فى الحروب

الشعبة التاسعة فى فروع علم الموسيقى ـ علم الآلات العجيبة ـ علم الرقص

العلوم العملية

(وتسمى بالحكمة العملية وفيها عدة شعب)

الشعبة الاولى ـ علم الاخلاق ـ الشعبة الثانية ـ علم تدبير المنزل ـ الشعبة الثالثة علم السياسة وتدبير الممالك ـ الشعبة الرابعه ـ علم آداب الملوك ـ الشعبة الخامسة ـ علم آداب الوزارة ـ الشعبة السادسة ـ علم الاحتساب ـ الشعبة السابعة ـ علم قوّاد العساكر والجيوش

﴿ العلوم الشرعية ﴾

(فيها مقدمة ومطالب)

المقدمة فى التوطئة ـ المطلب الاول فى العلوم الشرعية ـ علوم القرآن ـ علم رواية الحديث ـ علم تفسير القرآن ـ علم دراية الحديث ـ علم أصول الدين يعنى الكلام ـ علم أصول الفقه ـ علم الفقه وفيه فوائد فى مناقب الأئمه

فروع علم الفقه ـ فروع علم القرآن ـ علم معرفه الشواذ ـ علم مخارج الحروف علم مخارج الالفاظ ـ علم الوقوف ـ علم القراآت ـ علم رسم كتابة القرآن فى المصاحف علم آداب كتابة المصحف ـ علم كيفية الكتابة

المطلب الثانى فى علم الحديث وفروعه ـ المطلب الثالث فى علم التفسير وفروعه المطلب الرابع فى بيان معنى التفسير والتأويل ـ المطلب الخامس فى فروع علم الحديث المطلب السادس فى فروع علم أصول الدين وأصول الفقه ـ المطلب السابع فى فروع علم الفقه ـ علم الفرائض ـ علم شروط السجلات ـ علم القضايا ـ علم معرفة حكم الشرائع علم الفتاوى

﴿ العلوم المتعلقة بالتصفية ﴾

(وهى ثمرة العلم بالعمل وفيها أربعة شعب)

الشعبه الاولى ـ وهى العادات والعبادات والمهلكات والمنجيات وفيها فصول وأبواب وكلها فى الآداب والمعاملة الدينية والدنيوية

الشعبه الثانيه ـ الاصل الاول من العادات وهى عشرة أصول ـ أدب الأكل

وفيه أربعة مطالب ـ الاول فى أحوال المنفرد ـ الثانى فى آداب الجماعة والأكل ـ الثالث فى تقديم آداب الطعام ـ الرابع فى آداب الضيافة

الاصل الثانى فى آداب النكاح وفيه مطالب ستة ـ الاول فى الترغيب فيه ـ الثانى فى فوائد النكاح ـ الثالث فى أوقات النكاح ـ الرابع فى شروط العقد ـ الخامس فى أحكام المنكوحة ـ السادس فى آداب المعاشرة

الاصل الثالث فى آداب الكسب والمعاش وفيه مطالب خمسة ـ الاول فضل الكسب ـ الثانى فى بيان أحوال العقود الاربعة ـ الثالث فى العدد والمعاملة ـ الرابع فى الاحسان فى المعاملة ـ الخامس فى شفقة التاجر على دينه

الاصل الرابع فى الحلال والحرام وفيه مطالب ثمانية ـ الاول فى فضيلة الحلال الثانى فى درجات الحلال ـ الثالث فى مراتب الشبهات ـ الرابع فى البحث والسؤال الخامس فى كيفية خروج التائب عن المظالم المالية ـ السادس فى وارد ات السلاطين السابع فى حكم مخالطة السلاطين ـ الثامن فى تفريق المال على الفقراء

الاصل الخامس فى آداب الصحبة والمعاشرة وفيه إحدى عشر مطلبا

الاصل السادس فى آداب العزلة وفيه ثلاث مطالب

[illegible]

الاصل الثامن فى آداب السماع والوجد وفيه ثلاثة مطالب

الاصل التاسع فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وفيه أربع مطالب

الاصل العاشر فى آداب المعيشة

الشعبة الثالثة فى المهلكات

الاصل الاول فى شرح عجائب القلب وفيه عشرة مطالب

الاصل الثانى فى رياضة النفس وتهذيب الأخلاق وفيه ستة مطالب

الاصل الثالث فى كسر الشهوتين وفيه ثلاث مطالب

الاصل الرابع فى آفات اللسان وفيه مطلبان

الاصل الخامس فى ذم الغضب والحقد والحسد وفيه ستة مطالب

الاصل السادس فى ذم الدنيا وفيه مطلبان

الاصل السابع فى ذم المال والبخل وفيه ستة مطالب

الاصل الثامن فى ذم الجاه والرياء وفيه مطالب عشرة

هذه هى أصول العلوم عند العرب فى الاسلام ولكل واحد منها فروع تتفرع منه ومن أراد التوسع فعليه بمطالعة مؤلفاتهم للوقوف على آرائهم وأفكارهم فيها أما ثانى هذه الكتب فهو كتاب مدينة العلوم وثالثها كتاب جوامع العلوم لابن فرعين تلميذ أبى زيد بن سهل البلخى وهو أحسن الكل وأفيدها أتى به الاستاذ أحمد زكى بك من الاستانة العلية فيسهل للمطلع عليه أن يقف على العلوم وفروعها والمباحثة فى كل علم يريد المناظرة فيه شعر

احرص على كل علم تبلغ الأملا ... ولا تموتن بعلم واحد كسلا
النحل لما رعت من كل فاكهة ... أبدت لنا جوهرين الشمع والعسلا
فالشمع فى الليل ضوء يستضاء به ... والشهد يبرى لنا الاسقام والعللا

المقالة الاولى

﴿ وفيها ثلاثة فصول ﴾

الفصل الاول

في

(جغرافية بلاد العرب وتقسيمها)

هذه البلاد واقعة في الجنوب الغربي من أسيا وتتصل بها من الشمال و يحدها شمالا بلاد فلسطين و بادية الشام و وادي الفرات وجنوبا المحيط الهندي و بوغاز باب المندب ومن الشرق خليج فارس والغرب البحر الأحمر وقنال السويس وهي محصورة بين الدرجة ١٢ والدقيقة ٤٥ والدرجة ٣٠ والدقيقة ٢٥ من العرض الشمالي و بين الدرجة ٣٢ والدقيقة ٢٠ والدرجة ٦٠ من الطول الشرقي لجزيرة جرانويتش ببلاد الانكليز ومساحة هذه الجزيرة مضموما اليها شبه جزيرة طورسينا ١٥٨ و ١٥٦ و ٣ كيلومترا مربعا وذلك خمسة أضعاف مملكة فرنسا

وتنقسم بلاد العرب الى ثلاثة أقسام عربية بطرا نسبة الى مدينة بطرا الكائنة في وادي موسى وهي التي كانت عاصمة مملكة ادوم وعربية البادية في الشمال والعربية السعيدة أي المخصبة في الجنوب وهي بلاد اليمن

أما من حيث العوائد والأخلاق والتهذيب واللغة والمعارف فتنقسم الى ثلاثة أقسام وهم البدو والبدو المتحضرون والحضر

أما البدو فهم أقوام رحالة يسكنون في بيوت من الشعر و يهيمون في كل واد و يعولون في معيشتهم على ماشيتهم التي يغذونها مما تنبته الارض من كلأ الطبيعة و يتغذون بلحومها وألبانها و يتخذون ما زاد منها ومن صوفها وشعرها و وبرها لسد ما بقي من احتياجاتهم من مطعم وملبس ومسكن وا كتساب درهم وأ كثر ما يسكنون السهول والجبال

يراقبون فيها سير الفصول والبدو أحرص الناس على ماورثوه من العرف والعادة إذ مافتئوا على فطرتهم متصفين بما اتصفوا به قبل الاسلام من الحسنات والسيئات وقد تمتاز البدو بحب الضيافة والشهامة والنجدة وحفظ العهود والمحافظة على الأعراض والمدافعة عن الجار ولو جار والضيافة للقريب والغريب وعزة النفس وإباء الضيم والصبر والرضاء والصدق والحماسة والذكاء والأخذ بالثار والفصاحة وغير ذلك من مستحسن العادة

حب البدو للحرية يحملهم على احتقار أهل الحضر لانه بمعاملتهم يتعلم منهم الخداع والمكر وفساد الأخلاق والنساء في البادية أكثر عددا من الرجال ويمتزن عن غيرهن من أبناء جنسهن بلين الجانب ورقة الطبع وحسن المعاشرة وشدة العفاف واحتمال الشدائد ومقاسمة الأزواج اللذيذ العيش ومره ذوات خلق حسن تزينهن عزة نفوسهن

وللبدو أحكام تمثل الحكم الفطرى لان أحكامهم موكولة الى المشايخ والامراء فهم أصحاب الحل والعقد لا يعرفون لسيطرة الحكومات معنى

القسم الثانى البدو المتحضرون — يزيدون عن البدو انهم يسكنون بمنازلهم الشعرية حول الأنهر الكبيرة وأكواخهم المصنوعة من القصب وجريد النخل والبردى ويزرعون ماجاورهم من الارض ولقدم العهد عليهم فانهم يتحضرون ويدخلون فى الحضر

القسم الثالث الحضر — الحضر هم الذين يسكنون الامصار والمدن وتغالوا فى الرفاهية حتى فسدت أخلاقهم وانغمست نفوسهم فى الشهوات ويصح ماقاله فيهم ابن خلدون من انهم قد تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بعدما حصل لهم من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة فى أحوالهم فتجد الكثيرون منهم يقذعون بأقوال الفحش فى مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم ولا يصدهم عنه وازع الحشمة والادب [illegible] احسن قولا وعملا وبالجملة هم أهل غدر ومكر وخديعة

أما تقسيم العرب الى عاربة ومستعربة ومتعربة [illegible] على [illegible] فى الجنس والنسب بل هو دال على اختلاف المعيشة من حيث الحضارة والبداوة [illegible] بينهما ومن أراد زيادة الايضاح ومعرفة مواطن قبائل العرب ومهاجرتهم فعليه بمراجعة معجم ما استعجم للبكرى

من صحيفة واحد الى صحيفة ٥٨ وهذا الكتاب طبع سنة ١٨٦٩ فى مدينة غوتنجن من أعمال المانيا ولم يوجد من يطبعه من أبناء العرب مع أن مؤلفه عربى وكذلك كتاب سبائك الذهب فى أنساب قبائل العرب

الفصل الثانى

﴿ فى فضل العرب على الغرب ﴾

(فى المدنية والحضارة والعلوم والمعارف)

رب ميت قد صار بالعلم حيا　　ومبقى قد مات جهلا وغيا

فاقتنوا العلم كى تنالوا خلودا　　لاتعدوا البقاء فى الجهل شيا

ابن رضوان

قال ارسطاطاليس ليس طلبى للعلم لالبلوغ ماصيته ولا استيلاء على غايته ولكن التماسا لاينبغى جهله ولا يحسن بالعاقل خلافه فادالم يكن للاحاطة به سبيل ولا لغايته وصول فيجب على الطالب أن يختار من العلم أرفعه ويستعمل من العلم أنفعه — وقال حكيم آخر فى تعليم العلم ارغاما للعدى وخروج من ظلمة الجهل الى نور الهدى

ان للعرب فضلا على الغرب فى المدنية والحضارة فهم الذين وضعوا الاساس ووطدوا الاركان فبنى رجال الغرب المدنية المشاهدة الآن عليه وتمتعوا بآثارهم الباقية فى العلوم والمعارف وأنواع المخترعات [illegible] لأحد من رجال العرب وعلمائهم فيها

ولو اقفنا على حقائق التاريخ يعرفون حق [illegible] الامة العربية لم تسبقها أمة أخرى اعتنت مثلها بالعلوم [illegible] ومن شك فى ذلك فليرجع الى الاساس الموضوع له فى كتب العرب فقد قال محمود [illegible] فى خطبة ألقاها بالجمعية الجغرافية المصرية — ان جميع معضلات المسائل التى لا تزال فيها أفكار الباحثين وعقول ألبابهم ناقشها علماء الاسلام من قبل واضرب لكم مثلا مذهب دروين فقد وقف عليه مفسروا القرآن وأفاضوا القول فيه ودروين وأباء دروين ضمير فى الغيب مستتر ولمن

شاء التحقيق أن يراجع تفسير الفخر الرازي ولمن شاء أن يعرف مكانتهم في العمرانيات أن يراجع مقدمة ابن خلدون وهو أول لمونتسكيو الشهير وهو آخر

وشهد دروي وزير المعارف العمومية بفرنسا سابقا بفضل الأمة الاسلامية فكتب في تاريخه - بينما أهل أوروبا تائهون في بيداء الجهالة لا يرون الضوء إلا من سم الخياط إذ سطع نور قوي من جانب الأمة الاسلامية من علوم وأدب وفلسفة وصناعات وأعمال يد وغير ذلك حيث كانت مدينة بغداد والبصرة وسمرقند ودمشق والقيروان ومصر وتونس وغرناطة وقرطبة مراكز عظيمة لدائرة المعارف ومنها انتشر في الأمم واغتنم منها أهل أوروبا في القرون الوسطى مكتشفات وصناعات وفنون علمية وأقاموا أساس تمالكهم على شرائع الاسلام اهـ

وقد أشار أيضا الى علوم الاسلام القس لوارون في خطبته التي ألقاها في القاهرة سنة ١٨٩٦ وأثبت فيها فضل الأمة الاسلامية فقال - ليس في الاكتشافات العلمية الحديثة ولا في المسائل التي انتهى حلها والتي تحت الحل ما ينافي هذه الحقائق الاسلامية الوضاءة والسهلة المأخذ ولهذا فان التوفيق الذي نبذل كل جهد في سبيله معاشر المسيحيين لايجاده بين العقل والاعتقاد في ديننا المسيحي هو سابق وجوده في الديانة الاسلامية الى أن قال ثم على مر الجدال وهاهي الحوادث والاحوال قد برهنت على ما للقرآن امام أعين الذين يفقهون من صفات القابلية للعلم والترقي والحضارة حيث قامت في العالم الاسلامي حضارات زاهية زاهرة فاقت كثيرا ما كان يعاصرها من تمدن الغرب ان صح أن لا نسمي ما كانت عليه حالة الغرب وقتئذ بالهمجية اهـ

فهمجية الغرب التي اعترف بها علماؤهم قد انقشعت وزالت غياهبها بواسطة العلوم التي تلقوها عن العرب في الجاهلية والاسلام فقد ذكر بعض المؤرخين ان فيثاغورس الفيلسوف اليوناني المشهور استمد علومه [illegible] من علوم عرب الجاهلية السابقين له في الحياة كما استمدت أوروبا معارفها وعلومها من الامة الاسلامية العربية

فمما لا يختلف فيه اثنان أن العلوم كانت موجودة [illegible] الأمم البائدة من قديم الزمان راسخة في صدورهم متوارثة [illegible] من العلوم قريحة تنشأ في أصل الخلقة تقريرا وطبيعة [illegible] تدبيرا

فعلوم العرب التي كانت في الجاهلية كثيرة منها [illegible] وأحكام النجوم والأنساب والتواريخ والانواء والشعر وأحكام [illegible] والتأليف [illegible] والامثال والحكم وعلم الكهانة

والعرافة والقيافة والعيافة والزجر والتفاؤل والتطير وعلم الفراسة التي ليس لغير العرب فيها علم وهي أيضا للخاص منهم الفطن والمتدرب فما هو موجود من هذه العلوم عند الاوروباويين فانه موروث عن العرب مأخوذ عنهم في سالف الدهر لما كانوا متفرقين في بلادهم ومجاورين لهم في بلاد الاندلس

الفصل الثالث

﴿ في علم الكهانة والنفس ﴾

الكهانة هي علم معرفة الغائب قبل حدوثها والاخبار بها قبل وقوعها قال المسعودي ان الكهانة علم قديم معروف عند الروم وكانت حكماء اليونان يدعون العلوم من العرب وقد ادعى ورد [illegible] مطلعة على أسرار الطبيعة وعلى ما يريد أن يكون [illegible] وقسم من النصارى قال ان المسيح انما كان يعلم [illegible] الاشياء قبل كونها لانه كانت فيه نفس عالمة بالغيب ولو كانت تلك [illegible] الناطقين لكان يعلم الغيب ولا أمة خلت إلا كان فيها الكهانة وذهب كثير حتى تقدم ان علة ذلك علل نفسية وان النفس اذا قويت وزادت قهرت الطبيعة وباحت للانسان كل سر الطبيعة وخبرته بكل معنى شريف وغاصت بلطافتها في كثائف المعاني البعيدة فأنتجتها وأبرزتها على الكمال وكشفت هذه الطائفة وجه اعتلالها فيما ذكرنا

فالانسان ينقسم الى قسمين هما النفس والجسد فالجسد موات لا حركة له ولا حس إلا بالنفس وكان الموت لا يعلم شيأ ولا يوريه فوجب أن يكون العلم للنفس والنفوس طبقات منها الصافي وهي النفس الناطقة ومنها الكدر وهي النفس الجسدية والنفس النزاعية والنفس المتخيلة ومنها ما قوته أزيد في الانسان من قوة الجسم ومنها ما قوة الجسم أزيد منه فلما كانت النسبة النورية في الانسان في النفس كانت تهدي الانسان الى استخراج الغائب وعلم الآتي وكانت فطنته وطبعه أثقب وأعلم فاذا كانت النفس في غاية البروز

ونهاية الخلوص كانت تامة النور كاملة الشعاع كان توجهها الى دراية الغائبات بحسب ماعليه نفوس الكهنة ولهذا وجد الكهان على هذا السبيل من نقصان الاجسام وتشويه الخلق كما الحال فى شق وسطيح الذين أخبرا بالرسالة و بعثة النبى صلى الله عليه وسلم قبل مجيئه بزمن

﴿ رؤيا ربيعة وتأويل شق وسطيح لها ﴾

يحكى أن ربيعة بن نصر اللخمى رأى رؤيا هائلة فبعث الى أهل مملكته يسأل عن تفسيرها فقالوا ليبعث الملك لسطيح وشق فلا يجد أعلم منهما فبعث اليهما فقدما فقال الملك لسطيح رأيت رؤيا هالتنى فأخبرنى بها فان أصبتها أصبت تأويلها — فقال سطيح رأيت حممة خرجت من ظلمة فوقعت بأرض تهمة فأكلت منها كل ذات جمجمة فقال الملك ما أخطأت منها شيأ فما تأويلها فقال ليهبطن بأرضكم الحبش وليملكن ما بين أبين ونجران فقال الملك ياسطيح ان هذا لغائظ أخبرنى متى هو كائن أفى زمنى أم بعده فقال بل بعده بحين أكثر من ستين أو سبعين تمضى من السنين ثم يقتلون بها أجمعين أو يخرجون منها كارهين

قال الملك ومن الذى يلى قتلهم قال يليه ارم ذى يزن يخرج عليهم من عدن فلا يترك أحدا باليمن قال الملك أيدوم ملكه ذلك أم ينقطع قال بل ينقطع قال ومن يقطعه قال نبى زكى كريم عظيم يأتيه الوحى من قبل العلى قال الملك وممن هذا النبى قال رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر يكون الملك فى قومه الى آخر الدهر قال وهل للدهر من آخر قال نعم يوم يجمع فيه الأولون والآخرون يسعد فيه المحسنون ويشقى فيه المسيئون قال أحق ماتخبر نى قال نعم والشفق والغسق والقمر اذا اتسق ان ماأنبأتك به لحق فلما فرغ من حديثه دعا بشق وخاطبه بمثل ماخاطب به سطيحا وكتم جواب سطيح لينظر أيتفقان أم يختلفان فاتفقا فى المقال

ومن الكهان سلمة وزوبعة وسديف وعمران وحارثة وجهينة وكاهنة باهلة وأشباههم وطريفة فانها كانت أشهر كهان عصرها وهى التى أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه وأخبرته بخراب سد مأرب وتيان سيل العرم وافساده الجنتين وزبرا الكاهنة وفاطمة بنت مر الخثعمية صاحبة المثل المشهور (قد كان ذلك مرة فاليوم لا) فانه كان لكلامها وقع فى نفوسهم وكانت كاهنة بمكة ويحكى عنها أمور عجيبة فى باب الكهانة قال الميدانى أول من قال ذلك المثل فاطمة وكانت قد قرأت الكتب فأقبل عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن

كلاب فمر على فاطمة وهي بمكة فرأت نور النبوة في وجه عبد الله فقالت له من أنت يا فتى قال أنا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم فقالت هل لك أن تقع علي وأعطيك مائة من الابل فقال

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذي تنوينه

ومضى مع أبيه فزوجه آمنة وظل عندها يومه وليلته فحملت بالنبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرفت وقد دعته نفسه الى الابل فأتاها فلم ير منها حرصا فقال لها هل لك فيما قلت لي فقالت قد كان ذلك مرة فاليوم لا فأرسلها مثلا يضرب في الندم والانابة بعد الاحترام ثم قالت له أي شيء صنعت بعدي قال زوجني أبي آمنة بنت وهب فكنت عندها فقالت رأيت في وجهك نور النبوة فأردت أن يكون ذلك في فأبى الله سبحانه وتعالى إلا أن يضعه حيث أحبه وقد أورد الامام الماوردي هذه القصة في كتاب اعلام النبوية مع بعض الزيادة

﴿ أصل الكهانة ﴾

فالكهانة أصلها نفس لانها لطيفة باقية وهي في العرب على الأكثر وفي غيرهم على الأندر وهي شيء يتولد على حسب صفاء المزاج الطبيعي وقوة مادة نور النفس واذا اعتبر الانسان أقطابها وجدها متعلقة بعفة لنفس وقمع شرها وكثرة الوحدة وإدمان التفرد وشدة الوحشة من الناس وقلة الأنس بهم وذلك لان النفس اذا تفردت تفكرت واذا تفكرت تعدت واذا تعدت هطلت عليها سحب العلم النفسي ولحظت بالنظر الثاقب ومضت على الشريعة المستوية فأخبرت عن الأشياء على ماهي عليه وربما قويت النفس في الانسان فأشرقت على دراية الغائبات قبل ورودها

فالنفس اذا زادت كانت أكبر جزء في الانسان واهتدت الى استخراج البدائع والأخبار والمستترات واستدلوا على ذلك بالانسان ربما قوى فكره وزادت مواد نفسه وخاطره ففكر في الطارئ قبل وروده وكذلك اذا النفس تهذبت كانت الرؤيا في في النوم صادقة والزمان موجودة وقد قال فريق ان النوم هو اشتغال النفس عن الأمور الظاهرة بملاقات حوادث باطنه

ومنهم من رأى أن النفس تدرك صور الاشياء على ضربين أحدهما حس والآخر فكر فالصورة المحسوسة لاتدركها الا في هيئتها فاذا خلص علمها عندها كان إدراكها

منفردا من طينها فيكون فكر الانسان مالم يتم تابعا للحس حتى إذا نام عدت النفس الحواس كلها وبقيت تلك الصورة التي أخذتها من أعيان الاشياء قائمة كأنها محسوسة لأن الحس لها في أعيانها كان قبل استيلائها بالفكر ضعيفا فلما ارتفع الحس قوى الفكر فصار تصور الأشياء في النفس كأنها محسوسة يخطر على بال النائم منها كما يخطر على باله إذا كان يقظانا الشيء الذي قد كان وليس لذلك نظام

أما ما يراه النائم من الاشياء التي تدل على ما يريده فان ذلك لان النفس عالمة بالصورة فاذا خلصت في المنام من شوائب الاجسام أشرفت على ما تريد

وقال فريق آخر إذا بطل استعمال قواها فتعتقل في الاماكن وتشاهد الاشخاص بالقوة الروحانية التي ليست بجسم ولا بقوة الجسمانية الغليظة وذلك ان القوة الجسمانية لاتدرك الاشياء إلا علامستها امااتصال وامااانفصال والروح تدرك المتصل والمنفصل جميعها لايشاركها الجسد

ومنهم من رأى ان النوم هو اجتماع الدم وحدارته الى الكبد ومنهم من رأى ان ذلك هو سكون النفس وهو الروح ومنهم من زعم ان ما يجده الانسان في نومه من الخواطر انما هو من عمل الأطعمة والأغذية والطبائع ومنهم من قال ان الرؤيا من الملك وبعضهم من الشيطان

﴿ الانسان الحساس ﴾

ومنهم من ذهب الى أن الانسان(١) الحساس هو غير هذا الجسم المرئي وانه يخرج من البدن في حال النوم فيشاهد العالم ويرى الملكوت على حسب صفاته وذهب المتطببين الى أن الأحلام من الأخلاط ويرى بقدر مزاج كل واحد منها وقوته وقد قال أفلاطون ان النفس جوهر محرك للبدن وحده وماحده صاحب المنطق ان النفس كمال الجسم الطبيعي وحدها من وجه آخر انه حي بالقوة فلا فرق بين النفس والروح لان الفرق بينهما ان الروح جسم والنفس لاجسم وان الروح يحويه البدن وان النفس لايحويها البدن وان

---

(١) راجع كتاب سر الحياة للمسعودي في النفس والانسان وكتاب النهى والكمال وكتاب طب النفوس وكتاب النفس الناطقة وتقسيمها الى نفوس فاضلة ونفوس أصحاب القراسة والقيافة والأثر وغير ذلك والكلام على تشريحها وثمرته ورسالة ابن العبري في النفس البشرية

الروح اذا فارق البدن بطل والنفس تبطل أفعالها من البدن ولا تبطل هى فى ذاتها والنفس تحرك البدن وتنيله الحس وقد ذكر أفلاطون فى السياسة المدنية ما يلحق الانسان من صفات النفس الداخلة على النفس الناطقة وقد تنازع أهل الاسلام فى ماهية الانسان الحساس الدارك المأمور المنهى

﴿ علم العرافة ﴾

هو من العلوم التى اشتغل بها العرب قديما ونبغ فيه رجال اشتهروا فى الأقطار وحاز واثقة أهل زمانهم كرياح بن عجلة عرّاف اليمامة الذى يقول فيه الشاعر

فقلت لعرّاف اليمامة داونى فانك ان أبريتنى لطبيب

وأما العرّاف فهو دون الكاهن وقد كانت العرب تستدل به على المخبآت وتستنتج منه الحوادث التالية بتطبيقها على الحوادث الماضية وتعريفه - هو الاستدلال ببعض الحوادث الحالية على بعض الحوادث التالية بمناسبة حقيقة بينهما أما لكونهما معلول أمر واحد أو لكون ما فى الحال علة ما فى الاستقبال أو لارتباط خفى لا يطلع عليه أحد إلا بعض الافراد إما بكثرة التجارب أو بحالة مودوعة فى نفوسهم عنده الفطرة

حكى ان الاسكندر تملك بعض البلاد فدخل هيكلا فوجد فيه امرأة تنسج ثوبا فقالت أيها الملك أعطيت ملكا داطول وعرض ثم دخل عليها والى بلدها فقالت له ان الاسكندر سيعزلك فغضب فقالت لا تغضب ان النفوس تعلم أمورا بعلامات وان الاسكندر لما دخل كنت أدبر طول الثوب وعرضه وأنت لما دخلت فرغت منه وأردت قطعه فكان الأمر كما قالت

وقد انتشر هذا العلم بين العرب فى زمن الاسلام فممن اشتهر به فى زمن هارون الرشيد رجل فاقد البصر كان يستدل على المسؤل عنه بكلام صدر عن الحاضرين عقب السؤال فسرق يوما من خزانة هارون الرشيد بعض من الأشياء فطلب الرجل وأمر أن لا يتكلم أحد بعد السؤال أصلا ففعلوا كما أمر والأعمى ألقى سمعه ولم يسمع شيأ فمر بيده على البساط فوجد نواة تمر فقال ان المسؤل عنه در وزبرجد وياقوت وسقط فقال الرشيد أين هو فقال فى بئر فوجدوه كما قال الأعمى فتحير الرشيد فيه فسأله عن سبب معرفته فقال وجدت نوى تمر وقد طلع النخل أبيض وهو كالدرة ثم يكون بسرا وهو أخضر وهو لون الزمرد ثم يكون رطبا وهو أحمر وهو لون الياقوت ثم لما سألتم عن مكان المسروق سمعت صوت دلو

فعرفت انه في بئر فاستحسن الرشيد فراسته واعطاه مالا جزيلا ومثل هذه النوادر كثيرة في كتب العرب نضرب عنها صفحا

﴿ علم العزائم ﴾

ان هذا العلم وعلم الاستحضار هما أصلا علم التنويم المغناطيسي وعلم مناجاة الأرواح اللذان شاع انتشارهما في أوروبا أخيرا وافتخرت بهما وحسبتهما من ضمن مدنيتها ورقيها في العلوم وهما معروفان عند العرب قديما كغيرهما وقد ذكروهما في كتبهم ووضعوا لهما هذان التعريفان

علم العزائم — هو علم يعرف منه كيفية تسخير الأرواح واستخدامها في مقاصد الانسان

علم الاستحضار — هو استنزال الأرواح في قوالب الاشباح وتسخيرها واستخدامها في المقاصد ومن هذا القبيل توجيه الوهم نحو شئ بعد تجريد النفس من الشواعل البدنية ليترتب على ذلك التوجيه آثار تبليغ صاحبها الى مقاصده ولا غرابة في ذلك لان النفوس القوية الخير أو الشريرة لها تأثير في النفوس الضعيفة (انظر كتاب السر المكتوم)

انتشرت هذه العلوم في القرون الأولى قبل الاسلام انتشارا كبيرا في الجاهلية حتى صار لها شأن عظيم ولما جاء الاسلام نظر في هذه العلوم وفي غيرها مما شاكلها كالسحر والفأل والتطير فظهر لعلمائه انها علوم لا يصح الاشتغال بها فنهى عنها صونا للأمة وحفظا لها من وقوعها في الملاهي

ظهرت آثار العلوم في الاسلام بدرجة لا مثيل لها فترجموا (١) كتبا كثيرة من كتب اليونان وغيرهم من الأمم البائدة كامة الكلدان والأمة النبطية واكتشفوا علوما جديدة واخترعوا اختراعات لم تكن موجودة من قبل ولأجل أن نثبت قوة رجال الأمة العربية في العلوم والتأليف نذكر في المقالة الآتية مقتطفات من علم الطب والجغرافيا والموسيقى للاستدلال بها على قوتهم في العلوم الاخرى

---

(١) راجع فهرس كتب العلوم القديمة لأبي الفرج محمد بن اسحاق الوراق المعروف بابن أبي يعقوب النديم البغدادي الغير مطبوع وموجود بالمدينة المنورة

المقالة الثانية

في

﴿ العلوم والفنون والصنائع ﴾

(وفيها أربعة فصول)

الفصل الاول

﴿ في علم الطب ﴾

﴿ تمهيد ﴾

اشتغلت العرب بعلم الطب [illegible]

ونبغ منهم أطباء اشتهروا بمعلوماتهم [illegible]

أيضاً أطباء من النساء كزينب طبيبة [illegible] أطباء [illegible]

الرجال واختصت بطب العيون [illegible]

أخترى طبيب الموت [illegible]

وقد كان رجال الامة العربية [illegible]

عدم توفر المادة في زمانهم [illegible]

وسهولة المواصلات وغير ذلك من [illegible]

وحال الامة العربية في القرون الماضية [illegible]

الحقيق ساقطة في المدنية ووجدت [illegible]

فلا الطبيب يكون طبيبا بشهادة [illegible]

واتبع قانون حرفته وظهر بظهر العالم [illegible]

العلوم المدرسية ماهي الاسلم يتدرج عليه حتى يصل درجة [illegible]

سببا يعجم الامة عن الاشتغال غير حب التوانى والكسل والملاهى والملذات والانغماس فى الشهوات والاشتغال بسفاسف الامور

فالطبيب والعالم فى الزمن الاول كانا أطباء وعلماء بمعنى الكلمة يشهد لهم التاريخ ويفتخر بهم وبأسمائهم المدونة فى بطون مجلداته

فقد دون العرب كتبا كثيرة وترجموا أيضا كتب الامم الماضية ونقلوها الى لغاتهم كما تشهد بفضلهم كتبهم الموجودة بدور الكتب بأوربا التى نظرتها ورأيت علماء تلك البلاد منكبين على درسها وترجمتها الى لغاتهم لاجل الاستفادة منها ونحن عنها ساهون لاهون

فمن الذين ألفوا فى الطب وبرعوا فيه أبو زكريا الرازى طبيب المسلمين فانه اشتهر فى الطب والمنطق والهندسة وغيرها من العلوم الفلسفية وكان يضرب بالعود ودبر مارستان الرى ومارستان بغداد وتوفى سنة ٣٢٠ وقد أحسن صناعة الكيمياء وبلغ عدد مؤلفاته فى الطب وغيره ١١٦٥ مؤلفا

ومن المؤلفين أيضا ابن النفيس وهو على بن أبى حزم علاء الدين الطبيب المصرى صاحب التصانيف الفائقة فى الطب - منها الموجز وشرح كليات القانون وكتاب الشامل الذى لوتم لكان ٣٠٠ جزء اتم منه ثمانون مجلدا وقيل انه كان فى العلاج أعظم من ابن سينا

﴿ أول من تكلم بالطب ﴾

كان أول من تكلم بالطب اسقليبيوس وكان يونانيا ثم أتى بعده ابقراط وهو أول من دون الطب فى بطون الدفاتر وكان فيلسوفا وأستاذ الطبيبين يعالج المرضى احتسابا طوافا فى البلاد ولما خاف أن يفنى الطب بعده علم الغرباء وجعلهم بمنزلة أولاده وهو القائل - ان الجود بالخير يجب أن يكون على كل أحد يستحقه قريبا كان أو بعيدا - وقال أبو الحسن على ابن رضوان الطبيب كانت صناعة الطب قبل بقراط كنزا وذخيرة يكتنزها الآباء للابناء وظهر أيضا فى اليونان أطباء أتوا بعد بقراط نضرب عن ذكرهم صفحا لان بحثنا مختص بالعرب

﴿ أساس العلوم عند العرب ﴾

قد جعلت العرب علم الطبيعة أساس علومها لا سيما علم الطب وقد عرفته بهذا التعريف هو علم يبحث فيه عن أحوال الاجسام الطبيعية بأنواعها وموضوعه الجسم من حيث كونه

متغيرا ومنفعته معرفة أحوال الاجسام البسيطة من الافلاك والعناصر والمركبة كالمواليد الثلاثة وكائنات الجو وغير ذلك من الحوادث العجيبة وغرائب الامزجة والاحجار والنبات والحيوان وقد قسم العرب هذا العلم الى سبعة فروع وبعضهم الى عشرة وهى - علم الطب - البيطرة - الصيدلة - النبات وخواصه - الكيمياء - الفلاحة - الفلك - الفراسه - خواص الاحجار والمعادن وقد زاد بعضهم عليه علم الموسيقى

﴿ اكتشافاتهم ﴾

ان العرب هم أول من بحث فى الحيات النقطية كالجدرى والحصبة والحى القرمزية وحسبنا من ذلك رسالة الرازى وهم الذين لطفوا المسهلات وحسنوا صناعة التقطير والتخمير وتشكيل الاوانى الكيماوية باشكال يسهل بها التناول واستخرجوا الكثير من الاملاح المعدنية وكانت لهم اليد الاولى فى فن تركيب العقاقير فوضعوا أسسه ووطدوا أركانه وهم أول من اخترع السواغات لاذابة الاصول الفعالة للادوية النباتية والمعدنية والحيوانية واخترعوا الانبيق ووضعوا الاسماء التى لاتزال مستعملة عند الافرنج كالكحول والشراب واستعملوا التراكيب الحديدية والكبريتية والنحاس والزرنيخ وحمضه والزئبق وجنوا من اشتغالهم بالكيميا الفوائد الجمه واستعملوا طب الخيل وهى البيطرة والزردقة وهى طب الطيور

﴿ أطباؤهم ﴾

ان أطباء العرب كانت على جانب عظيم من العلم والعمل الحق بينما يكون الطبيب طبيبا فانك تراه فى آن واحد أديبا فاضلا أخلاقيا كريما فيلسوفا حاذقا وتنقسم الاطباء ثلاثة أقسام أطباء وجدوا فى العصرين عصر النصرانية وعصر الاسلام وأطباء مسلمون وأطباء موسويون

فمن الاطباء الذين اشتهروا فى العصرين الحرث بن كلدة كان من الطائف وسافر البلاد وتعلم الطب ببلاد فارس وتمرن هناك وعرف الداء والدواء وكان يضرب على العود وتعلمه بفارس واليمن وبقى أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر وعثمان وعلىّ بن أبى طالب ومعاوية رضى الله عنهم وكان طبيب العرب وله معرفة تامة بما كانت تعتاده العرب وتحتاج اليه من المداواة وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره

من ذلك انه لما دخل على كسرى أنوشروان أذن له بالدخول عليه فلما وقف بين يديه
منتصبا قال له من أنت قال أنا الحرث بن كلدة الثقفي قال فما صناعتك قال الطب قال أعرابي
أنت قال نعم من صميمها وبحبوحة دارها قال فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها وضعف
عقولها وسوء أغذيتها قال أيها الملك اذا كانت هذه صفتها كانت أحوج الى من يصلح جهلها
[illegible] عوجها ويسوس أبدانها [illegible] العاقل يعرف ذلك من نفسه ويميز
موضع دائه [illegible] عن الادواء [illegible] لنفسه قال كسرى فكيف تعرف
[illegible] ولو عرفت [illegible] الطفل يناغي فيداوي والحية ترقى
[illegible] بين عباده كقسمة الرزق فيهم فكل
من قسمته أصاب [illegible] وجاهل وعالم وعاجز وحازم وذلك
[illegible] قال فما الذي تحمد من أخلاقهم ويعجبك من
[illegible] سخية وقلوب جريئة ولغة فصيحة وألسن بليغة
[illegible] الكلام مروق السهم عن نبعة المرام
[illegible] الطعام في الجدب وضاربوا
[illegible] حريمهم ولا يذل أكرمهم ولا يقرون
[illegible] سوقة ولا ملك قيل فاستوى
[illegible] كلامه وقال لجلسائه اني وجدته
[illegible] وكذا العاقل من أحكمته
[illegible] قال ناهيك قال فما أصل الطب
[illegible] قال أصبت قال فما الداء الدوي قال
[illegible] السباع في جوف البرية قال أصبت
[illegible] الجوف قتلت وان تحللت أسقمت
[illegible] خو لا غيم فيه والنفس طيبة
[illegible] في دخول الحمام قال لا تدخله
[illegible] على الطعام غضبانا وارفق
[illegible] قال فما تقول في الدواء قال
[illegible] استحكام أمره فان البدن بمنزلة
[illegible] تقول في الشراب قال أطيبه أهنؤه

وأرقه امرؤه وأعذبه أشهاه ولا تشرب بصرفا فيورثك صداعا ويثير عليك من الادواء أنواعا قال فأي اللحمان أفضل قال الضان الفتي والقديد المالح مهلك للآكل واجتنب لحم البقر قال فما تقول في الفواكه قال كلها في اقبالها وحين أوانها واتركها اذا أدبرت وولت وانقضى زمانها قال اخبرني عن أصل الانسان ماهو قال أصله من حيث شرب الماء يعني رأسه قال فما هو هذا النور الذي في العينين قال مركب من ثلاثة أشياء فالبياض شحم والسواد ماء والناظر ريح قال فعلى كم جبل وطبع هذا البدن قال على أربع طبائع المرة السوداء وهي باردة يابسة والمرة الصفراء وهي حارة يابسة والدم وهو حار رطب والبلغم وهو بارد رطب قال فلم لم يكن من طبع واحد قال لو خلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك قال فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما قال لم يجز لانهما ضدان يقتتلان قال فمن ثلاثة قال لم يصلح موافقان ومخالف فالاربع هو الاعتدال والقيام فأعجب كسرى بكلامه وأمر بتدوينه وأعطاه صلة وله نصائح كثيرة نقتصر على ذكرها وله من الكتب كتاب المحاورة في الطب بينه وبين كسرى أنوشروان

ومن الاطباء المشهورين أيضا أمين الدولة ابن التلميذ فانه كان أوحد زمانه في صناعة الطب ومباشرة أعمالها وله تصانيف مشهورة وكان يعرف السريانية والفارسية متبحرا في اللغة العربية وله شعر مستظرف حسن المعاني

فمن نوادره في الطب انه أحضرت اليه امرأة محمولة لايعرف أهلها في الحياة هي أم في المهات وكان الزمان شتاء فأمر بتجريدها وصب الماء عليها صبا متتابعا كثيرا ثم أمر بنقلها الى مجلس دفيء قد بخر بالعود والند ودثر بأصناف الفراء ساعة فعطست وتحركت وقعدت وخرجت ماشية مع أهلها الى منزلها — ودخل عليه أيضا رجل منزف يعرق دما في زمن الصيف فسأل تلاميذه وكانوا خمسين نفسا فلم يعرفوا المرض فأمر أن يأكل خبز شعير مع باذنجان مشوي ففعل ذلك ثلاثة أيام فبرأ فسأله أصحابه عن العلة فقال ان دمه قد رق ومسامه قد انفتحت وهذا الغذاء من شأنه تغليظ الدم وتكثيف المسام وقد توفي في بغداد سنة ٥٦٠ وخلف كتبا كثيرة لانظير لها فورث جميع ذلك ولده وبقي مدة ثم خنق ولده في دهليز داره ونقلت كتبه على اثني عشر جملا الى دار المجد ابن الصاحب وكان أمين الدولة أسلم قبل موته وقد امتدحه السيد النقيب الفاضل ابن الشريف بقصيدة طويلة منها

أرى الاشواق تحولك في فؤادي ... كمثل النار في حجر الزناد
متى ولعت به ذكراك كادت ... لحر الجو تلفظني بلادي

﴿ ومنها ﴾

اذاواليت فانظر من توالى　　وان عاديت فانظر من تعادى
فان أحببت تعرف ما التناهى　　من الاشياء فانظر فى المبادى

﴿ وقد أنشد أمين الدولة نفسه ﴾

لولا حجاب امام الناس يمنعها　　عن الحقيقة فيما كان فى الازل
لأدركت كل شئ عز مطلبه　　حتى الحقيقة فى المعلول والعلل

﴿ وله فى الغزل ﴾

لاتحسبن سواد الخال عن خلل　　من الطبيعة أو احـداثه غلطا
وانما قلم التصوير حين جرى　　بنون حاجبـه فى خـده نقطا

وله من كتبه المشهورة كتاب الاقرباذين فى الأدوية المفـردة والمركبـة وكتاب فى الأمراض الباطنية وقد بلغ عدد مؤلفاته نحو المائة مجلد غير الذى اقتناه من كتب الغير

رشيد الدين أبو خليفة ـ كان أوحد زمانه فى صـناعة الطب والعلوم الحكمية متفننا فى العلوم والآداب حسن المعالجة لطيف المداواة رؤوفا بالمرضى مواظبا للأمور الشرعية وكان مولده سنة ٥٩١ وأقام بالديار المصرية ومن نوادره انه جاءت اليـه امرأة من الريف ومعها ولدها وهو شاب قد غلب عليه النحول والمرض فشكت اليه حال ولدها وانها قد أعيت فيه من المداواة وهو لا يزداد إلا نحولا وأسقاما وكانت قد جاءت اليه بالغداة قبل ركوبه وكان الوقت باردا فنظر اليـه واستقرأ حاله وجس نبضه فبينما هو يجس نبضه قال لغلامه ادخـل ناولنى الفرجية حتى أجعلها علىّ فتغير نبض ذلك الشاب عند قوله تغيرا كثيرا وتغـير لونه أيضا فحدس أن يكون عاشقا ثم جس نبضه بعد ذلك فتسا كن وعند ما أخرج الغلام وقال له هـذه الفرجية جس نبضه فوجده أيضا قد تغـير فقال لوالدته ابنك هـذا عاشق فقالت أى يامولاى والله يحب واحدة اسمها فرجية

وله نوادر كثيرة فى أعمال صناعة الطب وحكايات كثيرة يتميز بها على غـيره من جماعة الأطباء وكان شاعرا أديبا ومن شعره

خليـلى انى قـد بقيت مسهدا　　الحب من مأسور الفؤاد مقيدا
بحب فتاة يخجل البدر وجهها　　ولاسـيما فى ليل شـعر اذا بدا
ضللت بها وهى الهـلال ملاحة　　فواعجبا منـه أضل وما هدى

لها مبسم كالدر أضحى منظما ونطق كمثل الدر أمسى مبددا

ومن مصنفاته مقالة فى الصحة ـ كتاب الأدوية المفردة سماه المختار فى الألف عقار كتاب فى الأمراض وأسبابها وعلاماتها ومداواتها بالأدوية المفردة والمركبة ومقالة فى ضرورة الموت وذكر من التعليل فى هذه المقالة أن الانسان لم يزل يتحلل من بدنه بالحرارة التى فى داخله وبحرارة الهواء الذى من الخارج كانت نهايته الى الفناء بهذين السببين ومقالة فى أن الملاذ الروحانية ألذ من الملاذ الجسمانية إذ الروحانية كمالات وادراك الكمالات والجسمانية انما هى دفع آلام خاصة وان زادت أوقعت فى آلام أخر

الطبيب على بن رضوان بن على بن جعفر أبو الحسن المصرى ـ هو من كبار الفلاسفة فى الاسلام والاطباء وكان أبوه فرانا اشتغل هذا الطبيب بالعلوم عندما بلغ من العمر ستة سنوات وابتدأ فى تعلم الطب وهو فى سن الخمسة والعشرين وظل منكب على التعلم الى ان بلغ الثانية والثلاثين من عمره وكان يسكن داره التى أقامها بمصر القديمة فى خط قصر الشمعة واشتهرت باسمه مدة من الزمان وهى مهدمة الاركان الآن (هذه الجهة موجودة بمصر القديمة ومعروفة بهذا الاسم لغاية اليوم) وكان فيه سعة خلق عند بحثه كثير الرد على أرباب حرفته (انظر كتاب النجوم الزاهرة فى ملوك القاهرة)

بحث هذا الطبيب فى حالة مصر الصحية كما بحث فى الشرب من ماء النيل والأبار وماء الصهاريج التى كانت مستعملة فى مصر قديما وفى الامراض الوافدة عليها والعلل الدائمة بها

﴿ ماء النيل والآبار ﴾

قد وضع هذا الطبيب كتابا سماه دفع مضار الابدان بأرض مصر ووصف فيه أرضها وصفة اختلاف هوائها وما يتولد فيها والاسباب السيئة المحيطة بالصحة والمرض بأرض مصر وفصول السنة وفى الوقوف على أسباب الوباء وسائر الامراض الوافدة وحفظ الصحة والامراض وفيما ينبغى الطبيب أن يفعله وفى صفة تدبير الابدان وفيما يصلح الهواء والماء والغذاء بها وفيما يدفع به ضرر الامراض الوافدة عليها وقسمه الى خمسة عشر فصلا كتب فى الفصل العاشر عن ماء النيل والآبار ما يأتى

(بما ان النيل يمر بأمم كثيرة من السودان ثم يصير الى مصر وقد غسل ما فى بلاد السودان من العفونات والاوساخ ويشق مارا بأرض مصر فى وسطها من الجنوب الى الشمال الى أن يصب فى بحر الروم ومبدأ زيادة هذا النهر فى فصل الصيف ومنتهى زيادته فى فصل

الخريف ويرتقى منسه فى الجو فى أوقات زيادته رطوبات كثيرة بالتحلل الخفى فيرطب لذلك يبس الصيف والخريف واذا ازداد هذا النهر فاض على أرض مصر فغسل مافيها من الاوساخ نحو الجيف الحيوانية وأزبالها وفضول الآجام والنبات ومياه النقايع (يشير الطبيب بذلك الى البرك والمستنقعات) أخذ جميع ذلك معه وقد خالطه من تراب هذه الارض وطينها مقدار كثير من أجل سخافتها (أى رقتها) و باض فيه السمك الذى تربى فى المستنقعات ومن قبل ذلك نراه فى أول زيادته يخضر كثيرا لكثرة مايخالطه من مياه البرك والنقايع التى قد اجتمع اليها العرمض والطحلب واخضر لونها من تعفنها ثم يتعكر حتى يصير آخر أمره بمنزلة الحمأة واذا صفى اجتمع فى الاناء طين كثير ورطوبة لزجة لها سهوكة و رائحة منكرة وهذا من أوكد الاشياء فى رداءة هذا الماء وعفنه و بين أبقراط وجالينوس انه أسرع المياه الى التعفن ماء لطفته الشمس كمياه الامطار ومن شأن هذا الماء أن يصل الى أرض مصر وهو فى غاية من اللطافة من شدة حرارة بلاد السودان فاذا اختلط بعفونات أرض مصر زاد ذلك فى استحالته ولذلك يتولد فيه من أنواع السمك شئ كثير جدا فان فضول الحيوان والنبات وعفونة هذا الماء و بيض السمك تصير جميعها مواد فى تكون هذه الاسماك كما قال ذلك ارسطوطاليس فى كتاب الحيوان وذلك أيضا شئ ظاهر للحس فان كل شئ يتعفن يتولد من عفونته الحيوان ولهذا صار مايتولد من الفار والدود والثعابين والعقارب وغيرها من الهوام كثيرا بأرض مصر ــ وقد استبان ان المزاج الغالب على أرض مصر الحرارة والرطوبة وانه ذو أجزاء كثيرة وان هواءها وماءها رديئان وأردأ ما يكون النيل بمصر عند فيضانه وعند وقوف حركته وعلى ذلك فينبغى أن يغلى الماء و يبالغ فى تصفيته بقلوب نوى المشمش وسائر مايصلح لزوجته وأجود ما يكون من مائه فى طوبة عند تكامل البرد ولهذا عرف المصريون بالتجربة أن ماء طوبة أجود المياه حتى صار كثير منهم يخزنه فى الصهاريج ولكن على أى حالة كان شأن الماء المخزون لابد أن يتغير

فرداءة ماء النيل ناتجة من وقوف حركته فى زمن الصيف ومن حركة زيادته لانه يجلب معه الاقذار والعفونات ولذلك ينبغى أن يستقى ماء النيل من المواضع التى فيها جريانه أشد والعفونة فيها أقل مثاله بالفسطاط محاذاة الموضع المعروف بالكوم الاحمر مما يلى الجيزة و يصفى

أما الابار فان ماءها لايصلح للشرب منه لقرب مياه القاهرة وضواحيها من وجه الارض مع سخافتها يوجب ضرورة أن يصل اليها بالرشح من عفونة المراحيض شئ ما ولأن بطائح

الأرض تمتلىء متى صار النيل فى أيام فيضانه

وقد فضل أيضا السكنى بأرض مصر وان كانت تفعل فى الابدان رداءة فى الفصل الخامس عشر بقوله - أما أرض مصر فينبغى أن تؤثر السكنى فيها لامرين على هذا النحو (أى ماسبق ذكره فى الكتاب) وقد قلنا ان الامراض التى تعرض للابدان بمصر منها ما يمكن زوالها وظاهر أيضا ان أخلاق النفس يمكن مداواتها كما قيل فى كتب الاخلاق وعلى ان شرور أنفس المصريين سريعة القبول للعلاج لان شرورهم ضعيفة غير مستصعبة فما يكره اذن من أجله السكنى بمصر سهل الزوال وأيضا فلان مصر كثيرة العمارة والناس والمواضع التى هى حالها وهى أكثر تمدنا والانسان مدنى بالطبع فسكناه اذا فى المواضع الذى تلائمه أوفق والافضل لكثرة ما يجد فيها من الاشياء التى يضطر اليها فى قوام حياته وأيضا فأرض قليلة الفتن والحرب لسكون أنفس أهلها الى من تسوسهم وضعفهم عن الجهاد فالسكنى بمصر ينبغى أن تؤثر وان كانت أسعارها مرتفعة فالمكاسب كثيرة

ومن كلامه فى الحكم اذا دعى الطبيب الى مريض يجب عليه انه يعطيه مالا يضره الى ان يعرف علته فيعالجها عند ذلك ومعنى معرفة المرض هو ان يعرف من أى خلط حدث أولا ثم يعرف بعد ذلك فى أى عضو هو ثم يعالجه

ومن تأليفه - كتاب الاصول فى الطب و رسالة فى علاج الجذام - كتاب النافع فى كيفية صناعة الطب - رسالة فى علاج داء الفيل - رسالة فى الحميات و رسالة فى ضيق النفس ومقالة فى ان الوجود نقط وخطوط طبيعية ومقالة فى أن كل واحد من الاعضاء يتغذى من الخلط المشاكل له وهو القائل ان تحصيل العلوم من الكتب أوفق من المعلم

العنترى - هو أبو المؤيد محمد بن المجلى بن الصائغ كان طبيبا مشهورا حسن المعالجة جيد التدبير وافر الفضل فليسوفا أديبا وله شعر كثير فى الحكمة وغيرها ومن كلامه فى الحكمة قال بنى ان الحكمة العقلية تريك العالم يقادون بأزمة الجهل الى الخطأ والصواب وقال الجاهل سكران لا يفيق الا بالمعرفة - الحكمة غذاء النفس وجمالها والمال غذاء الجسد وجماله فتى اجتمعا للمرء زال نقصه وتم كماله ونعم باله وقد قال حين ترك الخمر وتاب عنه

نار الحيا ونار الفكر مذ نهكا جسمى تركت الحيا خشية العار
والكاس بالطبع تصدى عقل شاربها والسكر يسلب منه حكمة البارى

وله من الكتب اقرباذين فى الطب و رسالة فى حركة العالم و رسالة فى الفرق ما بين الدهر والزمان والكفر والايمان ومن شعره فى الغزل

وسرب غيد بشاطى دجلة خرجوا　　عن الثياب والقوا سائر الكلف
كأنهم وسط لج الماء أجمعهم　　در تجرد فى بحر عن الصدف

(جبرائيل ابن بختيشوع بن جورجيس) كان مشهورا بالفضل جيد التصرف فى المداواة سعيد الجد حظيا عند الخلفاء قال فثيون الترجمان انه لما مرض جعفر بن يحيي بن خالد بن برمك تقدم الرشيد الى بختيشوع أن يتولى خدمته ومعالجته ولما كان فى بعض الايام قال له جعفر أريد أن تختار لى طبيبا ماهرا أكرمه وأحسن اليه قال له ان ابنى جبرائيل أمهر منى وليس فى الاطباء من يشاكله فقال أحضره ولما حضر عالجه فى ثلاثة أيام وبرىء فأحبه جعفر وكان لا يصبر عنه ساعة ومعه يأكل ويشرب وفى تلك الايام تمطت حظية الرشيد ورفعت يدها فبقيت منبسطة لا يمكنها ردها والاطباء يعالجونها بالتمريخ والادهان ولا ينفع ذلك فقال الرشيد لجعفر قد بقيت هذه الصبية بعلتها قال جعفر لى طبيب ماهر وهو ابن بختيشوع ندعوه ونخاطبه فى هذا المرض فلعل عنده حيلة فى علاجها فأمر باحضاره ولما حضر قال الرشيد ما اسمك قال جبرائيل قال أى شئ تعرف من الطب فقال أبرد الحار وأسخن البارد وأرطب اليابس وأيبس الرطب الخارج عن الطبع فضحك الخليفة وقال هذا غاية ما يحتاج اليه فى صناعة الطب ثم شرح اليه حال الصبية فقال جبرائيل ان لم يسخط على مولاى فلها عندى حيلة فقال له وما هى قال تخرج الجارية الى هنا بحضرة الجميع حتى أعمل ما أريده وتمهل على ولا تعجل بالسخط فأمر الرشيد باحضار الجارية فخرجت وحين رآها عدا اليها ونكس رأسه وأمسك ذيلها كأنه يريد أن يكشفها فانزعجت الجارية ومن شدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها وبسطت يدها الى أسفل وأمسكت ذيلها فقال جبرائيل قد برئت يا أمير المؤمنين فقال الرشيد للجارية أبسطى يدك يمنة ويسرة ففعلت ذلك فعجب الرشيد وكل من كان بين يديه وأمر له بصلة وأحبه مثل نفسه وجعله رئيسا على جميع الاطباء ولما سئل عن السبب قال هذه الجارية أنصب الى اعضائها وقت المجامعة خلط رقيق الحركة وانتشار الحرارة ولاجل ان سكون حركة الجماع تكون بغتة جمدت الفضلة فى بطون جميع الاعصاب وما كان يحلها الا حركة مثلها فاحتلت حتى انبسطت حرارتها وتحللت الفضلة وله نوادر كثيرة أحبه بسببها الرشيد وقد قال على ابن اسحق الرهاوى فى كتاب أدب الطبيب عن عيسى بن ماسه ان يوحنا ابن ماسويه أخبره ان الرشيد قال لجبرائيل وهو حاج بمكة يا جبرائيل علمت مرتبتك عندى قال يا سيدى وكيف لا أعلم قال له دعوت الله فى الموقف دعاء كثيرا ثم التفت الى بنى هاشم فقال عسى أنكرتم قولى فقالوا انه ذمى فقال نعم ولكن صلاح بدنى

. وقوامه به صلاح المسلمين بى فصلاحهم بصلاحه و بقائه فقالوا صدقت يا أمير المؤمنين

سلامه ابن رحمون هو من أطباء مصر وفضلائها وكان يهوديا وله أعمال حسنة فى صناعة الطب وله من الكتب كتاب نظام الموجودات - مقالة فى السبب الموجب لقلة الامطار فى مصر - مقالة فى العلم الالهى - مقالة فى خصب أبدان النساء بمصر

﴿ المداواة بالوهم ﴾

قد استعمل أطباء العرب المداواة بالوهم كما استعملوا المداواة بفن الموسيقى وآلات الطرب فمن نوادرهم فى ذلك ان مريضا ببغداد كان عرض له علة الماليخوليا وكان يعتقد أن على رأسه دنا وانه لا يفارقه أبدا فكان كلما مشى يتحايد المواضع التى سقوفها قصيرة ويمشى برفق ولا يترك أحدا يدنو منه حتى لا يميل الدن أو يقع من على رأسه وبقى هذا المرض مدة وهو فى شدة منه وعالجه جماعة من الاطباء ولم يحصل بمعالجتهم تأثير وانتهى أمره الى أوحد الزمان أبى البركات هبة الله بن ملكا البغدادى وكان يهوديا وأسلم بعد ذلك وكان بارعا فى فن الطب وله تصانيف فى غاية الجودة وكان اهتمامه بالغ فى العلوم فأمر باحضاره لديه وفكر انه مابقى شئ يمكن أن يبرأ به الا بالامور الوهمية فقال لاهله اذا كنت فى الدار فأتونى به ثم أمر أحد غلمانه بأن ذلك المريض اذا دخل اليه وشرع فى الكلام معه وأشار لى الغلام بعلامة بينهما أن يسارع بخشبة كبيرة فيضرب بها فوق رأس المريض على بعد منه كأنه يريد كسر الدن الذى يزعم انه على رأسه وأوصى غلاما آخر وكان قد أعد معه دنا فى أعلى السطح انه متى رأى ذلك الغلام قد ضرب فوق رأس صاحب الماليخوليا انه يرمى الدن الذى عنده بسرعة الى الارض وشرع فى الكلام معه وأنكر عليه حمل الدن وأشار للغلام الذى عنده العصا من غير علم المريض فأقبل اليه وقال له والله لا بد لى أن أكسر هذا الدن وأريحك منه ثم أدار الخشبة وضرب بها فوق رأسه بنحو ذراع وعند ذلك رمى الغلام بالدن من على السطح فكانت له رجة عظيمة فتكسر فلما عاين المريض ما فعل ورأى الدن المنكسر تأوه لكسرهم اياه ولم يشك انه هو الذى كان على رأسه وأثر فيه الوهم تأثيرا برىء به من علته وهذا باب عظيم فى الدواء وقد جرى أمثال ذلك لجماعة من الاطباء مثل جالينوس فى مداواتهم بالامور الوهمية وله من الكتب كتاب ظهور الكواكب ليلا واختفائها نهارا واختصار التشريح ورسالة فى العقل وماهيته

﴿ ما يحتاج اليه الطبيب من العلوم ﴾

ذكر الشيرازى فى كتاب الحاجة الى الطب وآداب الاطباء ووصاياهم الغير مطبوع ماملخصه — ان الطبيب يجب أن يكون عارفا بجملة علوم أحدها وهو المهم الذى لابد منه أن يكون عنده من المنطق معرفة الكليات الخمس لاحتياجه اليها من الوجهين الاولى أنه يحتاج الى معرفة حدود الامراض وحدود أنواعها ورسومها من الجنس والفصل والوسم من الجنس والخاصة — والثانى أنه لابد فى تشخيص المرض أن يعرف المرض ماهو ثم يقسمه الى قسمين بسيط ومركب — أما البسيط فهو ينقسم الى ثلاثة أقسام سوء مزاج وسوء تركيب وتصرف اتصال أما سوء المزاج فينقسم الى قسمين مادى وساذج أما المادى فينقسم الى صفراوى وغير صفراوى وأما الصفراوى فقد يكون حمى وقد يكون غيرها العلم الثانى من العلوم التى يحتاج اليها الطبيب علم الطبيعة فان الطب فرع من فروعه — العلم الثالث الهندسة وحاجة الطبيب اليها قليلة جدا وقد قيل ان الطبيب يحتاج الى علم الهندسة ليعرف منه أشكال الجراحات لان الجراحة المدورة عسرة البرء والجراحة المثلثة والمربعة وغيرها سهلة البرء واذا كانت لها زوايا فانه ينبت منها بابات اللحم — العلم الرابع الهيئة وحالة الطبيب اليه من كل وجهين أحدهما أن يعرف وقت شدة الحر وشدة البرد فيعرف أن الوقت الصالح لسقى دواء المسهل أى الاوقات وثانيهما أن يعرف أحوال البلدان وعروضها ومسافات الكواكب فيعرف طبائع الاهوية والاغذية والمياه بحسب كل بلد — العلم الخامس علم النجوم وأحكامها وحاجة الطبيب اليه من وجوه — الاول أن يستعمل الدواء المختار فى الوقت المناسب الذى يكون فيه القمر ممازجا للسعود من شكل موافق — الثانى أن يعرف ان لنقصان القمر وزيادته تأثيرا فى زيادة الرطوبة ونقصانها ومن العلوم أيضا علم الموسيقى والالحان وعلم النبات وخواصه والاحجار وخواصها والمعادن وخواصها والحيوانات وخواصها وعلم الفراسة والاشربة وأمزجتها

﴿ وصايا الاطباء ﴾

ان مايحتاج اليه الطبيب من الوصايا عشرة — أولا يجب أن يكون الطبيب عارفا بالله خائفا منه معتقدا لأمر الميعاد والثواب والعقاب فعالا للخير ناهيا عن مواقع الضر فان الطبيب متصرف فى الارواح فان لم يكن كذلك لم يجز الاعتماد عليه ثانيا يجب أن يحمدوا

معلميهم ويشكروهم على ما أفادوهم من العلوم ويكثروا برهم كما يكثرون برآبائهم فكما ان الابوين كانا سبب كونه فكذلك معلموهم كانوا سبب شرفه ونباهته - ثالثا يجب أن لا يضلوا على من يريد أن يتعلم هذه الصناعة من المستحقين لها ولا يطلبون منهم أجرا على التعليم رابعا يجب أن يجتهد الطبيب فى مداواة المرضى وحسن تدبيرهم بالاغذية والاشربة ولا يكون غرضه من مداواتهم طلب المال وعزائمهم غدوة وعشية ان كان المرض حادا سريع التغير من حال الى حال - خامسا لا يعطى لاحد دواء قتالا ولا يصفه ولا يدل عليه ولا ينطق به ولا يدفع الى النساء دواء لاسقاط الحمل ولا تذكرة لاحد - سادسا لا ينبغى للطبيب ان يفشى سر المريض ولا يطلع عليه غيره لا قريبا ولا بعيدا - سابعا يجب على الطبيب ان يكون لطيف الكلام طلق الوجه حريصا على المداواة وان لا يتكبر على الفقير ولا يمتنع من استماع كلامه ولا يفرق فى المداواة بين الفقير والغنى والعدو والحبيب - ثامنا لا ينبغى للطبيب ان يكون مشتغلا بالتلذذ والتنعم وذكر النساء وأن لا يكثر من شرب النبيذ فان ذلك مما يضر بالدماغ ويملؤه فضولا ويفسد الذهن - تاسعا يجب أن يكون أكثر اشتغالا بقراءة الكتب ويلزمه حفظ ما يقرأه ويجب أن يكون ملازما لمواضع المرضى كثير المداولة لأمورهم وأحوالهم مع الاساتذة والحذاق من الاطباء كثير التفقد لاحوالهم متذكرا لما قرأه - عاشرا يجب ان لا يأنف من المشورة وأخذ رأى من هو أفضل منه واذا دخل على مريض عدة من الاطباء فان أشار غيره الى الحق أقر وان أشار الى ما ليس بحق لم يخجله بل يمهد له عذرا وذلك ان يقول الذى أذكره قول بعض الناس ولكنى أوثر ان العلاج يكون كذا وكذا وعرف موضع الخطاء برفق

وقد ذكر فى هذا الكتاب ما يجب على الاطباء أن يبحثوا فيه ويقفوا عليه وقد ضم اليه كتاب علل الاطفال ومداواتها وآداب المرضعه وتدبيرها

﴿ الطب الكهربائى ﴾

ان طريقة العلاج بالطب الكهربائى ليست حديثه النشأة بل هى قديمة العهد فقد اشتغلت بها العرب وغيرهم ممن سبقهم من الأمم وكانوا يستعملونه لمداواة المرضى بالكهرباء السمك الكهربائى المسمى عند العامة بالرعاش أو الرّعاد وذلك لعدم توفر الآلات المولدة للكهرباء فى العصور القديمة وتحسين آلاتها كما هى الآن فالفضل راجع الى من سبق من الأمم ويجب الشكر لمن أبرز هذه الطريقة من العدم الى الوجود وانتفاع بنى الانسان بها

استعمل ابن سينا السمك الكهربائي في مداواة الصرع والآلام العصبية بواسطة وضع السمك في الماء لبقائه حيا وتوصيل شريطين من الصلب له يتناولهما المريض فتحصل له رعشة عظيمة فكان لا يقوى على امساكهما زمنا حتى يلقيهما على الأرض وكان يستعمل ذلك المريض أياما متوالية فشفي بسبب ذلك من المرضى كثيرون وقد وصف بعض الأطباء أكل السمك الرعاد وقالوا بثبوت نفعه في شفاء الامراض

وقد روى أن نساء غربي أفريقية كن يلقين بمن اعتل من أولادهن في برك فيها من نوع هذا السمك

وذكر أن اسكربيونيوس وغوش أحد الاطباء المعروفين في زمن القيصر طيباريوس الروماني كانا يصفان هذه الاسماك لشفاء النقرس وذكر بلينيوس المؤرخ أمورا من هذا القبيل

واستعمل الأقدمون المغناطيس الطبيعي لمعالجة الأمراض العصبية وجربه بارسلينوس الالماني في أوائل القرن السادس عشر وقد جرب بعد ذلك المغناطيس الصناعي فنجح

وأطباء الهند يستعملون السمك الكهربائي في الامراض الشديدة الحرارة واذا ماتت السمكة بطلت خاصيتها

ومن اسم هذا السمك قد اشتق اسم المدمرات الحربية البحرية المسماة توربيد فاليونان يسمون أشعة السمك الرعاد الكهربائية ناركى واللاتين توربيدو والفرنساويون توربيل والانكليز توربيدو وكرامبفش

فالجهاز الكهربائي الذي سميت به الطائفة الرعادة من الاسماك هو كتلتان واحدة على كل من جانبي الجمجمة مكونتان من عدة عمد عمودية غروية أو منشور ذي ستة اطلاع وزوايا بينها فواصل غشائيه فيها سائل يتوارد اليها الدم كاف وخيوط عصبية كثيرة وهو نحو عشرين نوعا قسمت الى سبعة أجناس توجد في جميع بحار الدنيا وجهاز الكهرباء في هذه الاسماك يشابه جهاز كلفاني المصنوع الآن

وقد ذكر دولة لامير محمد على باشا في رحلته اليابانية المطبوعة حديثا انه شاهد في بحار تلك الجهات الاسماك الكهربائية التي تنير البحر في الظلام وذكر الدميري في كتابه حياة الحيوان شيأ عن هذه الاسماك وكذلك كتاب عجائب البر والبحر والحيوان للجاحظ وكتاب عجائب المخلوقات للقزويني

ويقابل هذا النوع من السمك حيوان فى البحر يقال له الشيخ اليهودى ذكره القزوينى فى كتابه المذكور انه حيوان وجهه كوجه الانسان وله لحية بيضاء وبدنه كبدن الضفدع وشعره كشعر البقر وهو فى حجم العجل يخرج من البحر ليلة السبت فيستمر حتى تغيب الشمس ليلة الاحد فيثب كما يثب الضفدع ويدخل فى الماء فلا تلحقه السفن ومن خواصه أن جلده اذا وضع منه على النقرس أزال وجعه فى الحال

﴿ علم الصيدلة ﴾

قد اشتغلت العرب بعلم الصيدلة كما اشتغلوا بغيره فمن الذين اشتهروا فيه عيسى المعروف بأبى قريش وكان صيدليا فى معسكر المهدى حينما توجه الى الرى لمحاربة سنقار وحمل المهدى الخيزران وهى حامل بموسى وخرج طيفور الطبيب معها ولم تكن الخيزران علمت بما رزقت من الحمل فلما تبينت ارتفاع العلة بعثت بمائها مع عجوز ممن معها وقالت لها اعرضى هذا الماء على جميع الاطباء الموجودين فى معسكر المهدى وجميع من ينظر فى ذلك ففعلت العجوز واجتازت فى منصرفها بخيمة عيسى فرأت جماعة من غلمان أهل المعسكر وقوفا يعرضون عليه قوارير الماء فكرهت أن تجوزه قبل أن ينظر الى الماء فقال لها عند نظره الى الماء هذا ماء امرأة حامل بغلام فنقلت العجوز الخبر للخيزران فسجدت شكرا لله تعالى وأعتقت عدة مماليك وسارت الى المهدى فأخبرته بما قالت العجوز فأظهر من السرور بذلك أكثر من سرورها وأمر باحضار عيسى وسأله عما قالت العجوز فأعلمه أن الأمر على ما ذكر فأعطاه مالا جزيلا وأمره بلوازم خدمته وترك خيمته وما فيها من متاع الصيدلة

وللعرب فضل كبير على فن الصيدلة فهم الذين هذبوه ووضعوا اسمه كما ذكرت فى الفصل السابق وقد عرفوه بهذا التعريف - علم باحث عن التمييز بين النباتات المتشابهة فى الشكل ومعرفة منابتها صينية أو هندية أو رومية ومعرفة زمانها بانها صيفية أو خريفية أو شتوية ومعرفة جيدها من رديئها ومعرفة خواصها الى غير ذلك وغرضه وفائدته ظاهران والفرق بين علم الصيدلة وعلم النبات الاول بالعمل أشبه والثانى بالعلم أشبه وكل منهما مشترك فى الآخر

﴿ علم تدبير الصحة ﴾

يظن الكثيرون ممن لا معرفة لهم بتاريخ العرب فى أيام حضارتهم انهم كانوا كعرب

البادية أو الرحل الذين لا يعرفون للصحة معنى ولا علم لهم بتدبير البدن والحال ان الأمر بالعكس فان القوم كانوا يعتنون بالأمور الصحية ويكفي دليلا على ذلك كتاب مصالح الأبدان والأنفس لأبي زيد البلخي الموجودة منه نسخة بدمشق الشام فان المطلع عليه يظن انه كتب في هذه الايام ولا يحسبه انه مكتوب منذ قرون مضت فقد رتبه مؤلفه على هذا النمط باب الحاجة الى تعهد الأجسام - باب تدبير الأهوية والبلدان - باب تدبير الاكنان والملابس - باب تدبير المطعم - باب صفة الطعام - أوقات الأكل - تقدير الطعام - ترتيب ألوان الطعام - صفات الأكل - ولنذكر لك من هذا الكتاب أقصر الابواب وهو باب ترتيب ألوان الطعام - قال المؤلف يجعل الأخف قبل الأثقل ولا يبتدئ بالدسومة فتفتر الشهوة وتلطخ المعدة بل يقدم الحامض بالخل فانه يحلل أجزاء الاقاد فيفتق الشهوة ويمكن لما سواه ولا يقدم الشيء الحلو فان الطبيعة لميلها اليه تستولى عليه فتنقطع به عما سواه ولا يبتدئ بالشواء فان القوة الهاضمة اذا تعلقت به قهرها فاقتصرت عليه فلم يمكن الاستكثار من شيء بعده من كانت معدته باردة - ويجب أن يستعمل الفاكهة بعد الطعام بساعة واحدة ليلحق خفته الثقيل المنهضم قبله

ومن كتبهم أيضا دفع المضار الكلية للأبدان الانسانية وكتاب الاغذية والاشربة للأصحاء لنجيب الدين السمرقندي المقتول بمدينة هراة لما دخلها التتر

فهل لاطباء الشرق أن يفيقوا من سباتهم العميق ويواصلوا البحث في طب العرب القديم حتى يشيدوا فوق ما تركه لهم أجدادهم من الاساس علوما جديدة تلائم الحالة الحاضرة كما يفعل أطباء أوروبا وعلماؤها فان وصولهم الى التطبيب بالكهرباء في الايام الاخيرة ومناجاة الارواح والتنويم المغناطيسي ما هو الا نتيجة بحثهم ومطالعتهم في كتب السلف من كل فن

قد بنى لكم أجدادكم من المجد والسؤدد صرحا شامخا وتركوا لكم في داخلها آثارا ثمينة وزينوا أركانها رياشا نفيسة فهدموها بمعول التوانى والكسل وبعثروا رياشها بدراهم الملاهي والفشل فاستولى عليها غيركم فكان لهم منها مجد ساطع وعز باذخ حتى حازو قصب السبق علينا وارتقوا فسقطنا حتى صرنا نقتبس منهم علوما بعد ان كانوا يقتبسونها منا فهل لكم يا أبناء الامة أن تجددوا بناء هذا الصرح وتعيدوا هذا المجد المسلوب حتى تخلدوا ذكركم كما تخلد ذكر غيركم فمن جد وجد ومن توانى هلك وما ذلك على المجد بعزيز

الفصل الثانى

فى

(علم الجغرافيا)

هذا العلم عرفه العرب كما عرفوا غيره من العلوم فكان أول عملهم فيه ان ترجموا كتاب بطليموس من اليونانية الى العربية وأول الاعمال العلمية التى تمت على يديهم واستدلوا بها على كروية الارض وعرفوا محيطها وهو ماقام به محمد بن موسى بن شاكر وأخويه بتحقيق طول خط نصف النهار لمعرفة محيط الكرة الارضية بالضبط فقاسوا أحد خطوط الطول فى سهل سنجار ثم أعادوا المقياس ثانيا فى وطاءة الكوفة فثبت لهم كروية الارض ومعرفة المحيط وهم الذين حققوا الدرجة الارضية وأثبتوا ان كل درجة من درجات الفلك يقابلها من سطح الارض ستة وستون ميلا وثلثان

وألف فيه كثيرون فوضع ابن حوقل كتابا سماه المسالك فى الممالك والمفاوز والمهالك فى أواخر القرن الرابع من الهجرة

وأول كرة أرضية عرفت هى التى صنعها الادريسى وكانت صناعتها من الفضة وزنها ١٤٤ اقة رسم فيها جميع انحاء الارض فى زمانه رسما دقيقا عمليا - وقد عمل فى زمن المأمون خريطة صور فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ومساكن الأمم والمدن وغير ذلك وهى أحسن مما تقدمها من جغرافية اليونان

ولقد كان علماء الحديث من أشد الناس عناية بالجغرافيا لتمييز النسب الى البلدان والفرق بين الرجال ومساقط رؤوسهم وهذا هو السبب الذى دعا أرباب التأليف أن يذكروا الامصار والقرى ومن راجع باب العشر والخراج فى مطولات الفقه علم مابين الفقه والجغرافيا من الاتصال

وفى البعثات التى سيرها الخلفاء الى القاصية كبعثة الواثق العباسى لاكتشاف سواحل بحر الخزر وبعثة المقتدر بالله عام سنة ٣٠٩ الى البلغار للدعوة الاسلامية والحملة التى وصلت الى بكين بعد فتح كاشغر سنة ٩٦ هجرية لدعوة الصين للاسلام فى كل ذلك أكبر دليل على تقدير العرب علم رسم الارض أو الجغرافيا

وأجمع تعريف للجغرافيا يستدل به منه على موقعها من نفوسهم واتصالها بعلوم الشريعة الغراء والحديث والطب الى غير ذلك من العلوم المتعلقة بالانسان ما قاله ياقوت فى معجم البلدان - ومن ذا الذى يستغنى من أولى البصائر عن معرفة أسماء الأماكن وتصحيحها وضبط أصقاعها وتنقيحها والناس فى الافتقار الى علمها سواسية وسر دورانها على الألسن فى المحافل علانية لان من هذه الأماكن ما هى مواقيت للحجاج والزائرين ومعالم الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين ومشاهد للأولياء والصالحين ومواطن غزوات سرايا سيد المرسلين وفتوح الأئمة من الخلفاء الراشدين وقد قصت هذه الأماكن صلحا وعنوة وأمانا وقوة ولكل من ذلك حكم فى الشريعة فى قسمة الفئ وأخذ الجزية وتناول الخراج واجتياز المقاطعات والمصالحات وانالة التسويغات والاقطاعات لا يسع الفقهاء جهلها ولا تعذر الأئمة والأمراء اذا فاتهم فى طريق العلم حزنها وسهلها لانها من لوازم فتيا الدين وضوابط قواعد الاسلام والمسلمين فأما أهل السير والاخبار والحديث والتواريخ والآثار فحاجتهم الى معرفتها أمس من حاجة الرياض الى القطار غب اخلاف الانواء والمشفى الى العاقبة بعد بأس من الشفاء لانه معتمد علمهم الذى قل أن تخلو منه صفحة بل وجهة بل سطرا من كتبهم وأما أهل الحكمة والتفهيم والتطبب والتنجيم فلا تقصر حاجتهم الى معرفته عمن قدمنا فالأطباء لمعرفة أمزجة البلدان وأهوائها والمنجم للاطلاع على مطالع النجوم وأنوائها إذ كانوا لا يحكمون على البلاد إلا بطوالعها ولا يقضون لها وعليها بدون معرفة أقاليمها ومواضعها ومن كمال المتطبب أن يتطلع الى معرفة مزاجها وهوائها وصحة أو سقم منبتها ومائها فصارت حاجتهم الى ضبطها ضرورية وكشفهم عن حقائقها فلسفية ولذلك صنف كثير من القدماء كتبا سموها جغرافيا ومعناها صورة الارض - وألف آخرون كتبا فى أمزجة البلدان وهوائها وغيرهما وأما أهل الأدب فناهيك بحاجتهم اليها لانها من ضوابط اللغوى ولوازمه وشواهد النحوى ودعائمه ومعتمد الشاعر فى تحلية جيد شعره بذكرها وتزيين عقود لآلئ نظمه بشذرها فان الشعر لا يروق ونفس السامع لا تشوق حتى يذكر حاجز وزرود والدهناء وهبود ويحن الى رمال رضوى فيلزمه تصحيح الاسم وأين صقعه وما اشتقاقه ونزهته وقفره وحزنه وسهولته فانه ان زعم انه واد وكان جبلا أو جبل وكان صحراء أو صحراء وكان نهرا أو نهر وكان قرية أو قرية وكان شعبا أو شعب وكان حزنا أو حزن وكان روضة أو روضة وكان صفصفا أو صفصف وكان مستنقعا أو مستنقع وكان جلدا أو جلد وكان سبخة أو سبخة وكان وحرة أو وحرة وكان سهلا أو

سهل وكان وعرا أو يجعله شرقيا وكان غربيا أوجنوبيا وكان شماليا سفل قدره ونزر كثره وآض ضحكة ويرى انه ضحكة وجعل هزأة ويرى انه هزأة واستخف وزنه واسترذل واستقل فضله واستجهل اه

انقطع هذا العلم وقل الاشتغال به من القرن العاشر للهجرة وزهد فيه المسلمون كزهدهم فى كل علم ولغلبة الجهل عليهم وفقدان ملكة التأليف منهم والاختراع قد صاروا نقلة عاديين لا يهمهم غير حب الترف والاسراف فى الشهوات والملذات التى هى آفة انحطاط الأمم واستعبادهم

الفصل الثالث

فى

(علم الموسيقى)

هذا العلم كان موجودا فى زمن الجاهلية قبل ظهور الاسلام وكان له شأن كبير فى زمن اليونان ثم لما ظهر الاسلام كان موجودا أيضا وكان الاشتغال به بالغا حد النهاية لكنه أخذ فى الاضمحلال قليلا لانصراف أفكار الامة الاسلامية الى الفتوحات ونشر تعاليم الدين وآداب الشريعة الغراء حتى تمكنت عراها فى جميع الاقطار

ثم عاد الى النمو والانتشار فى زمن هارون الرشيد وبلغ شأوا بعيدا أكثر مما كان عليه فى الزمن الاول فمن يتصفح مؤلفات الاوائل كابى نصر الفارابى وابن سينا وصفى الدين وعبد المؤمن وابن قره وأبى الحسن محمد بن الحسينى المعروف بابن الطحان الموسيقى وغيرهم من فطاحل المؤلفين الذين قد اندثرت مؤلفاتهم وغابت عن انظار رجال العصر الحاضر وقد شاهدت كتابا لعبد الرحمن الانطاكى مرسوما فيه النوتة الموسيقية بعلامات وحروف عربية وجعل لها مفتاحا حرف (م)

وكان أمراء العرب وملوك الاسلام يفضلون سماع آلات الطرب وهم جالسون على موائد الطعام ولا يأكلون الا على سماع لذوحدث مستحسن وهذا هو عين الطريقة المتبعة لدى ملوك أوروبا الآن

وقد ينتج استماع الموسيقى وآلات الطرب المسرة فى النفوس وابتهاج القلوب كانقباضها عند حالتى الحزن واليأس

﴿ الطرب والاسباب ﴾

(الباعثة اليه)

الطرب ما استفز الانسان من الفرح والحزن وليس يختص بالغنى وحده ولا بالملاهى بل يستفز الانسان للشعر والحديث ولذكرا لجود للمواضيع الحسنة ولكل منظر رائق وحديقة مؤنقة ومنه مايعرض عند الخوف وذكر الموت والفجيعة والنعى والفراق والصلة السنية ولقاء المحبوب

فأما الطرب للغناء فيطرب كل انسان على مايوافقه ومايأتى على مافى نفسه وكلما علت معرفة الانسان بالغناء قل طربه لقلة مايعجبه واطلاعه على الخلل والزلل والنقص والتبديل ولان العالم بالغناء لايعجبه الا حسن التأليف وجودة النظام وفصاحة الكلام وحلاوة موضع الحلق ونقاهة الصوت وأحكام الفواصل وحد المقاطع والتوفية لكل مايقال

فأما التقسيم فنه مايعم الجهال من الطرب لسماع الاوتار والحلوق كاصوات المزامير والطبول وسائر آلات الطرب فانه يطرب الحيوان الصامت أيضا قال الجاحظ كل حيوان ناطق أو صامت يطرب الا التيس و بتأليف حركات الموسيقى تتألف الحركات النفسانية فيهيج الطرب و يبعث المسرة لان أصوات الاوتار ارسام الطبيعة والنفس وقد يحدث أيضا الصوت الحسن ماتحدثه الآلات

زعم أهل الطب ان الصوت الحسن يسرى فى الجسم و يجرى فى العروق فيصفوله الدم و يرتاح له القلب وتخفوله النفس وتهتزله الجوارح وتخف الحركات ومن ذلك كرهوا للطفل أن ينوم على أثر البكاء حتى يرقص و يطرب وقالت ليلى الاخيلية للحجاج حين سألها عن ولدها وأعجبه مارأى من شبابه انى والله ماحلته سهوا (١) ولاوضعته يتنا (٢) ولا أرضعته غيلا (٣) ولا أنمته تيقا (٤)

و زعمت الفلاسفة ان النغم فضل بقى من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجه فاستخرجته الطبيعة بالالحان على الترجيع لاعلى التقطيع فلما اظهر عشقته النفس وحن اليه

---

(١) أى ماحلته فى بقايا الحيض و يقال حلت المرأة وضعا و بضعا اذا حلت فى استقبال الحيض (٢) يعنى منكسا (٣) يعنى لبنا فاسدا (٤) يعنى لم أنومه مستوحشا باكيا

الروح ولذلك قال أفلاطون لاينبغي أن تمنع النفس من معاشقة بعضها بعضا ألا ترى ان أهل الصناعات كلها اذا خافوا الملالة والفتور على أبدانهم ترنموا بالالحان فاستراحت لها أنفسهم وليس من أحد كائنا ما كان الاوهو يطرب من صوت نفسه ويعجبه طنين رأسه ولولم يكن من فضل الصوت الا انه ليس في الارض لذة تكتسب من مأكل اوملبس أو مشرب أونكاح أوصيد الا وفيه معاناة على البدن وتعب على الجوارح وقد يتوصل بالالحان الحسان الى خير الدنيا والآخرة فمن ذلك انها تبعث على مكارم الاخلاق من اصطناع المعروف وصلة الرحم والذب الاعراض والتجاوز عن السيئات وقد يبكى الرجل بها على خطيئته ويرفق قلبه من قسوته ويتذكر نعيم الملكوت ويمثله فى ضميره وكان أبو يوسف القاضى كلما حضر مجلس الرشيد وفيه الغنى فيجعل مكان السرور به بكاء كأنه يتذكر به نعيم الآخرة

وينقسم السماع الى ثلاثة أقسام — منه ماهو حرام محظور وهو الأكثر عند الناس من الشبان ومن غلبت عليهم شهواتهم ولذاتهم وتكدرت بواطنهم وأحبوا دنياهم وفسدت مقاصدهم فلا يتحرك منهم الا ماهو الغالب عليهم وعلى قلوبهم من الصفات المذمومة لاسيما فى زماننا هذا لسوء الاخلاق وفساد الاداب — القسم الثانى منه مباح وهو لمن لاحظ له الا التلذذ بالصوت الحسن لانتعاش الروح وراحة البدن أوليتذكر به غائبا أولتسلية نفسه من حزن فيستريح بما يسمعه — القسم الثالث منه مندوب اليه وهو لمن غلب عليه حب الله تعالى والشوق اليه فلا يحرك السماع منه الا الصفات المحمودة وقد حضر صلى الله عليه وسلم بعض مجالس الغنى وسماع الدفوف كما هو مثبوت عنه

وقد اشتهر بالغنى كثير فى الجاهلية والاسلام رجالا ونساء نأتى على بعض منهم اتماما للفائدة

﴿ أول من غنى فى الجاهلية من الرجال ﴾

اتفقت الروايات على ان أول من غنى فى الجاهلية علقمة الفحل وجزيمة بن سعد وهو المصطلق وربيعة بن حزام والفحل وزمام بن خطار والنصر بن الحرث من بنى كلدة وغنى بعدهم المخضرمون وهم الذين لحقوا الاسلام فنهم رباح وأبو لهب وابن أبى الدنا كل والجمحى وأبو بويه

﴿ أول من غنى من النساء فى الجاهلية ﴾

ان أول من غنى من النساء فى الجاهلية بماد وثماد وهما امرأتين كانتا فى الجاهلية فى زمان

ماد الكبرى وخبرهما معروف فن غنائهما

يا أم عثمان نولينا قد نفق النائل الطفيف

وبعدهما عنجهور وبعدهما قينتا حذيفة بن بدر وقينتا الحرث بن زهير وبعدهما وهرام قينة خالد بن قيس وهند ثم قينتا حجر بن الحرث وبعد ذلك قيان عبد المسيح بنجران وقيان يزيد بن عبد الملك وقينة عبد عم ابن بشر وكانت بالمدينة قينة يقال لها أم عمرو وفيها يقول الشاعر

صددت الكأس عنا أم عمرو وكان الكأس مجراها اليمينا

ومن القيان قينتا عبد الله بن جدعان وهما ظبية والرباب وقينتا الحضرمى سرين وصاحبتها وبهوة وأسماء قيان عبد الله بن قيس بن عدى وقيان جبلة بن الأيهم لحقن الاسلام ومن غنائهن شعر حسان بن ثابت

بيض الوجوه كريمة أحسابهم شم الأنوف من الطراز الأول

وقينة الأسود بن عبد المطلب وسارة قينة عمرو بن هشام وقينة الأنصار وقينتا عبد الله ابن السائب المخزومى وقينة الأوسيين وجوارى عبد الله بن سلام وأكثرهن لحقن الاسلام وصرن مخضرمات فهذا جملة ماوجدناه ويمكن أن يكون غيرهن كثيرات وقد ذكر ابن الزعفرانى أسماء قيان أخر لم يذكر أجاهليات أم إسلاميات ومنهن منأسة جارية علقمة وسعدة جارية حسان ومهدية قينة عمرو بن مسعدة وقينة مساهم ودعد أم قدامة بن صلح وظلامة قينة عمار بن مناهب

﴿ أول من غنى فى الاسلام من الرجال ﴾

ان أول من غنى فى الاسلام طويس وأول من ضرب على الغناء العربى بسط وقيل بل سائب خاثر وبعدهما ابن السمح وابن سريج والعريض ومعبد فقد غنى أول دولة بنى أمية وأدرك دولة بنى العباس وهو ممن تعلموا على النساء ومن غنائه هذين البيتين

منع الحياة عن الرجال ونفعها حدق تقلبها النساء مراض

وكأن أفئدة الرجال اذا رأوا حدق النساء لنبلها أغراض

ثم مالك بن أبى السمح وابن عائشة والهذلى الأكبر والهذلى الأصغر أخوه وأبو طنبورة ومديح ونافع وكرام بن معبد وابن أبى عتيق وهؤلاء أصول الغناء وقد أتى بعدهم كثير اشتهروا به ورقوا صناعته وأدخلوا عليه تحسينات جعلت لهم الفضل الأول فيه

فممن اشتهر بهذا الفن فى زمن هارون الرشيد أبو الحسن على بن نافع الملقب بزرياب فانه كان تلميذا لأبى اسحاق الموصلى تعلم عليه وفاقه وارتحل من بغداد الى الأندلس بعد ان زاد على العود وترا خامسا اختراعا منه وكان لم يزل العود ذا أربعة أوتار على الصفة القديمة التى قوبلت بها الطبائع الأربع حتى زاد عليها هذا الوتر الخامس ووضعه متوسطا بينها فاكتسب به عوده ألطف معنى

ومنهم ابراهيم الموصلى واسماعيل بن جامع وفليح بن العواد وهم الذين اختاروا المائة صوت المشهورة فى كتاب الأغانى لأمير المؤمنين هارون الرشيد

أما ابراهيم الموصلى فانه كان فى أوائل أيامه بليدا وكان يضرب ويعذب ولا يتعلم شيأ فهرب الى الموصل وهنالك تعلم الغناء وبرع فيه ثم سار الى الرى وتعلم بها أيضا ومهر ومن نوادره ان جعفر بن قدامة قال أخبرنى أبو العيناء قال خرج الفضل بن الربيع وقال ان أمير المؤمنين يأمر كل من حضر ممن يقول الشعر أن يجيز هذه الأبيات فلم يوجد من يجيزها فأمر ابراهيم فغنى فيها لحنا من خفيف ثقيل فقال

أهدى الحبيب مع الجنوب سلامة ... فاردد اليه مع الشمال سلاما

واعرف بقلبك ماتضمن قلبه ... وتداولا بهواكما الأياما

واذا بكيت له فأيقن أنه ... ستجود أدمعه عليك وهاما

فاحبس دموعك رحمة لدموعه ... ان كنت تحفظ أوتحوط ذماما

وقد اجتمع ابراهيم الموصلى يوما مع زلزل وبرصوما بين يدى الرشيد فضرب زلزل وزمر برصوما وغنى ابراهيم

صحا قلبى وراغ الىّ عقلى ... وأقصر باطلى ونسيت جهلى

رأيت الغانيات ركن خزرا ... الىّ صرمننى وقطعن حبلى

فطرب هارون الرشيد حتى وثب على رجليه وصاح يا آدم لو رأيت من يحضرنى من ولدك اليوم لسرك ثم جلس واستغفر الله فالشعر لأبى العتاهية والغناء لابراهيم وقد غنى ابراهيم بينما كان بالرّقة مع الرشيد لما ذهب الى خمار هناك يشرب عنده فأنزل له دنا فى باطية فرأى لون الخمر حسنا صافيا فاندفع يغنى

اسقنى صهباء صرفا ... لم تدنس بمزاج

اسقنى والليل داج ... قبل أصوات الدجاج

يا أبا وهب خليلى ... كل همّ لانفراج

حين نوهت بقلبي في أعاصير الفجاج

وقد غنى يوما في مجلس هارون الرشيد هذه الأبيات

يا واحد الحب مالى منك إذ كلفت نفسى بحبك إلا الهم والحزن
لم ينسينك سرور لا ولا حزن وكيف لا كيف ينسى وجهك الحسن
ولا خلا منك قلبي لا ولا جسدى كلى بكلك مشغول ومرتهن
نور تولد من شمس ومن قمر حتى تكامل منه الروح والبدن

﴿ أول من غنى من النساء فى الاسلام ﴾

عزّة الميلا وكان يألفها الاشراف وغيرهم من أهل المروآت وجميلة مولاة بنى سليم قد أخذ عنها معبد وابن عائشة وحبابة وسلامة وعقيلة العقيقية والشماسيتان خليدة وربيحة ومن خبرها ان معبد ومالك بن أبى السمح ذهبا اليها فأذنت لهما بالدخول فدخلا فأخرجت اليهما رقعة فيها أبيات فقالت لمعبد بعث بهذه الرقعة الى فلان لاغنى بها فقال معبد ابتدئى فأبتدأت جميلة فقالت

	انما الذلفاء همى	فليدعنى من يلوم
معبد	أحسن الناس جميعا	حين تمشى وتقوم
جميله	حبب الذلفاء عندى	منطق منها رخيم
معبد	أصل الحبل لترضى	وهى للحبل صروم
جميله	حبها فى القلب داء	مستكن لا يريم

ومن نوادرها انها جلست يوما ولبست برنسا طويلا وألبست من كان عندها برنسا دون ذلك وكان فى القوم ابن سريج وكان قبيح الصلع قد اتخذ وفرة شعره يضعها على رأسه وأحبت جميلة أن ترى صلعته فلما بلغ البرنس الى ابن سريج قال دبرت على ورب الكعبة وكشف صلعته ووضع القلنسية على رأسه وضحك القوم من قبح صلعته ثم قامت جميلة ورقصت وضربت بالعود وعلى رأسها البرنس الطويل وعلى عاتقها بردة يمانية وعلى القوم أمثالها وقام ابن سريج يرقص ومعبد وبن عائشة ومالك والقريض وفى يد كل واحد منهم عود يضرب به على ضرب جميلة ورقصها فغنت وغنى القوم معها

ذهب الشباب وليته لم يذهب وعلا المفارق وقع شيب مضرب
والغانيات يردن غيرك صاحبا ويعدنك الهجران بعد تقرب

انى أقول مقالة بتجارب حقا ولم يخبرك مثل مجرب
صافى الكريم وكن لعرضك صائنا وعن اللئيم ومثله فتنكب

عليدة ولهامن الغنى فى مجلس جميلة

ألا يامن يلوم على التصابى أفق شيأ لتسمع من جوابى
بكرت تلومنى فى الحب جهلا وما فى حب مثلى من معاب
أليس من السعادة غير شك هوى متواصلين على اقتراب
كريم نال ودا فى عفاف وستر من منعمة كعاب

ومن الذين اشتهروا بالغنى سلامة النفس وجارية عبد الله بن جعفر و ريا أخت سلامة وقينة الاخطل وشاجن جارية المعتضد بالله واضعة اللحن الذى يجمع النغم العشرة ولميس جارية عبد الله بن طاهر وسحيقة الذى قال فيها ابن رامين

سحيقة أنت واحدة القيان فمالك مشبه فيهن ثانى
فضلت على القيان بفضل حذق حذت على المدى قصب الرهان
سجدت لك القيان مكفرات كما سجد المجوس لمرزبان
ولا سيما اذا غنيت صوتا وحركت المثالث والمثانى
شربت الخمر حتى خلت أنى أبو قابوس أو عبد المدانى
فأعمال اليسار على الملاوى ومن يمناك ترجمة البيان

﴿ أول من دون الغنى ﴾

أول من دون الغنى يونس الكاتب وغنى أصوات المتقدمين وكانت ستة آلاف دور وثلاثمائة صوتا وقد حصرها يونس ورتبها على حروف المعجم وذكر ملحنها وأسماء طرائقها وأنواعها وذكر الشعراء فمن كتابه ألف ابراهيم كتاب الاغانى ومن اسحاق أخذ أبو الفرج الاصبهانى وعن حماد وابنه بسند جيه

الفصل الرابع

في

(اختراعات العرب واكتشافاتهم)

مازالت العلوم والحكمة تتداول من عصر الى عصر ومن قطر الى قطر ومن بلد لبلد الى أن ظهرت الامة العربية بمظهر لم يسبقها فيه أحد وقد بنوا معارفهم على التجارب والمشاهدات فقد قال عنهم ديلامبير فى تاريخ علم الهيئة اذا عددت فى اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك ان تعد من العرب عددا كثيرا غير محصور

اتسعت دائرة الفنون والصنائع فى عصر الدولة العباسية وانتشرت فى سائر الاقطار ولولا هذا الانتشار الذى ساعد أوروبا على خروجها من ظلمة الجهل الحالك الى نور العلم الساطع لاستمرت على بربريتها وتوحشها الى وقتنا هذا

قال العلامة سيديو فى تاريخه ان العرب استعملوا الاسطرلابات لقياس ابعاد الكواكب والفوافى زمن المأمون ارصادا وازياجا فلكية وحسبوا الكسوف والخسوف وذوات الاذناب وغيرها ولم يخطئهم فيها أحد ورصدوا نقطتى الاعتدال الربيعى والخريفى وقدروا ميل منطقة فلك البروج وقاسوا الدرجة الارضية وأنشأوا المراصد العديدة كمرصد بغداد الذى أنشأه نصر الدين الطوسى ومرصد جبل المقطم الذى أنشأه بمصر العلامة بن يونس الفلكى وهو أول من اخترع البندول أى رقاص الساعة وقد أنشأ المسلمون غير العرب مراصد كثيرة كمرصد سمرقند الذى أنشأه تيمورلنك ومرصد دمشق الذى أنشأه الوغ بك مرزا حفيد تيمورلنك واشتغل العرب بالعلوم الرياضية فطبقوا الجبر على الهندسة وبرعوا فى علم الضوء والميكانيكا وظهرت همتهم وقدرتهم فى المناظرات العلمية

ذكر درابر فى تاريخه انهم هم الذين عرفوا حدود قوانين سقوط الأجسام وماهية الجذب فيها وكانوا على علم تام بعلم حركات الأفلاك واكتشفوا قوانين الثقل النوعى للأجسام الصلبة والسائلة والغازية واخترعوا بيت الابرة وهم أول من استعمل الساعة الدقاقة لمعرفة الزمن كالساعة التى أهداها هارون الرشيد الى شارلمان أمبراطور فرنسا فى

وقته فقد كانت دقيقة الصنع فاذا حانت الساعة واحدة خرج منها فارس فدق ناقوسها مرة
واذا حانت الثانية خرج فارسان فدقاه دقتين وهكذا حتى اذا حانت الرابعة والعشرون
خرج أربعة وعشرون فارسا فدقوا الناقوس أربعة وعشرين مرة

وحققوا حركة أوج الشمس وان مدارها ليس دائرة منظمة وضبطوا مدة السنة
واخترعوا المزاول الفلكية وحرروا كتاب بطليموس الفلكى المعروف بالمجسطى وقياس
الدرجة من خط نصف النهار

ويعزى أيضا اليهم اتصال الخطوط المماسة فى حساب المثلثات واستعواض الجيوب
بالأوتار وحل المعادلات التكعيبية وزيادتهم فى علم النبات نحو الألفين على مافى كتاب
الأعشاب تأليف دسقورد واستكشاف التناكح بين النبات حتى يتولد نبات ثالث
مغاير لهما وأنشأوا البساتين المخصوصة لتنميته وتوليده ولهم الفضل فى استعمال تقاوى
المزروعات أثر بعضها كل زمن بحسبه واختراع السواقى ذوات الطوانس والقواديس
وطواحين الهواء وصناعة الزجاج وعمل الورق فقد وجد عندهم سنة ٢٧ من الهجرة وكان
أهل بخارى يعملونه من الحرير ثم عمله فى حدود المائتين يوسف بن عمر أمير مكة فى أيام بنى
العباس من القطن وكان أهل الأندلس يصنعونه من الكتان والتيل وطرق الحديد وسقيه
ومعرفة استقامة النظر وانعكاسه فى المرآة وانكسار الضوء والمحل الظاهر للصورة فى
المرآة المحنية وأثبتوا ان مانشاهده فى القمر من الصور والجبال ماهو إلا لشدة صقله
ومقابلته للأرض فانطبع فيه ماعلى وجهها فصار يرى انه أهول بالسكان فشأنه كشأن
المرآة التى يرى الانسان فيها نفسه (راجع رسالة التربيع والتدوير للجاحظ) وهم أول من
نظر فى علم الادروستاتيك وهو فرع من علوم الطبيعة فعملوا الجداول المبينة لأنواع
الأوزان النوعية وبحثوا فى نظر رؤيا الضوء والأبصار وخالفوا اليونانيين وقالوا ان
الأبصار يحدث بمرور الأشعة من المرئى الى العين وحققوا نظريات انعكاس الأشعة
وانكسارها وقد اكتشف الحسن بن هيثم الشكل المنحنى الذى يأخذه الشعاع فى سيره فى
الجو وأثبت بذلك اننا نرى الشمس والقمر قبل أن يظهرا حقيقة فى الأفق وكذلك فى
الغروب نراهما قليلا بعد أن يغيبا

ومما يدل على شهرتهم فى فن العمارة وتقدمهم فى الصناعة التى لم يسبق لها مثيل ماظهر فى
أيامهم بمدن بغداد واليمن والأندلس من العمارات التى لامثيل لها — ذكر أبو الفداء المؤرخ
الشهير فى تاريخه انه لما قدمت رسل ملك الروم سنة ٣٠٤ الى بغداد أقيمت الزينات فى قصر

الملك وعبى لهم العساكر وصفت الدار بالأسلحة وأنواع الزينة وكان من جملة الزينة شجرة من الذهب والفضة تشتمل على ثمانية عشر غصنا وعلى الأغصان والقضبان الطيور والعصافير من الذهب والفضة والأغصان تتمايل بحركات مصنوعة والطيور تصفر وترقص بحركات مرتبة وشاهد الرسول من العظمة ما يطول معه الشرح - ومن الأبنية قصر غمدان بظاهر صنعاء اليمن الذي بناه الملك شرحبيل بن عمرو بن غالب فانه محكم البناء بديع الصنع عظيم الارتفاع بلغت طبقاته سبع طبقات وفيه ما لا يوصف من الزخارف والصنائع البديعة وكان به غرفا شهيرة يسمونها المحاريب (١)

وأول من أقام التماثيل على الأعمدة في الطرقات مالك الملقب بناشر النعم أحد ملوك اليمن فانه نصب عمودا من النحاس وأقام عليه تمثالا من النحاس وكتب على صدره بالخط الحميرى هذه الكتابة - هذا التمثال لياسر أنعم الحميرى ليس وراء هذا مذهب فلا يتكلف أحد ذلك فيعطب - ولم يكن بنى أمية بالأندلس بأقل من العباسيين في بغداد وملوك اليمن في العمارة والانفاق فقد أنفق عبد الرحمن الداخل على اقامة جامع قرطبه وقصرها مائة الف وقبل مائة وثمانين ألف دينار والجامع المذكور قائما على ستمائة وخمسة وستين عمودا من المرمر والرخام الاسود وقد بنى قصر الزهراء وهو أفخر الابنية العربية وصرف على بنائه مبلغا طائلا وكان به أكثر من ألف ومائة عمودا من المرمر وكان الايوان ممنطقا بالذهب والاحجار الكريمة وكان الانسان يشاهد على البركة التى في وسطه صور طيور وحيوانات محكمة الصنع بما لا مزيد عليه وكانت البركة من المرمر الثمين مملوءة بالزيبق النقى الصافى عوضا عن الماء وكان فيه من الخدم ستة آلاف من الرجال والنساء

وقد صنع أبو القاسم عباس بن فرناس الحكيم الاندلسى في بيته السماء والنجوم ومثلها بضوئها و بروقها ورعودها تمثيلا يخيل للناظر انه حقيقة وصنع الآلة التى تعرف بها الاوقات على غير رسم ومثال واستبط صناعة الزجاج من الحجارة وهو الذى احتال في تطيير جثمانه فكسا نفسه الريش ومد له جناحين طار بهما في الجو مسافة بعيدة ولكنه لم يحسن الاحتيال في وقوعه فتأدى في ظهره لانه لم يعمل له ذنبا فيظهر من ذلك أن الرجل كان من أسبق الفائزين بالطيران من بنى الانسان

---

(١) راجع كتاب عجائب البر والبحر في ذلك وغيره فانه ذكر عجائب الابنية وموجود بروسيا مع انه للعرب

ومما يشهد لهم أيضا بالفخر وعلو الهمة على من عداهم فى هذا الفن مساجد الشام و بلاد الاندلس و بغداد فنها تعلمت أوروبا عمل القباب العالية والاعمدة المرتفعة وتناسب أجزاء ذلك وأحكامه مع الرونق واللطف والتفنن فى الاشكال والهيئة وامتزاج الخطوط المستقيمة بالخطوط المنحنية فى صور مختلفة خصوصا بما دخلها من الازهار فى تعشيق الخطوط وهم الذين أوجدوا الخط السنيني وتحلية الحيطان بالقيشانى والارض بالفسفسا وغير ذلك من أنواع الزينة والزخرفة

التصوير — وكانوا أحيانا يصورون الوقائع التاريخية كما تفعل الفرنجة اليوم فقد ذكر المقريزى فى الجزء الثانى من خططه فى الصحيفة ٣١٨ مانصه — وكان البازروى سيد الوزراء قد أحضر بمجلسه القصير وابن عزيز المصورين فقال ابن عزيز أنا أصور صورة اذا رآها الناظر ظن انها خارجة من الحائط فقال القصير لكن أنا أصورها فاذا نظرها الناظر ظن أنها داخلة فى الحائط فقالوا هذا أعجب وأمرهما أن يصنعا فصورا صورتى راقصتين فى صورة جنيتين مدهونتين متقابلتين هذه ترى كأنها داخلة فى الحائط وتلك ترى كأنها خارجة منه فصور القصير راقصه بثياب بيض فى صورة جنية دهنها اسود كأنها داخلة فى صورة الجنية وصور ابن عزيز راقصة بثياب حمر فى صورة جنية صفراء كأنها بارزة من الجنية — فاستحسن البازروى ذلك وخلع عليهما ووهبهما كثيرا من الذهب

وكان بدار النعمان بالقرافة من عمل الكتامى الرسام المشهور صورة يوسف عليه السلام فى الجب وهو عريان والجب كله اسود واذا نظره الانسان ظن أن جسمه باب من دهن لون الجب — هذه الصورة يشبهها مايصنعه (الافرنج الآن) ومن أراد التوسع فعليه مراجعة طبقات المصورين المعروف (بضوء النبراس وأنس الجلاس فى أخبار المزوقين من الناس)

خرط الملاحة — أوجدوا خرط الملاحة واستعملوها قبل غيرهم فقد وجدمنها خريطة فى سنة ١٤٧١ ميلادية عند المعلم فان وخريطة عند البورق البورتغالى من رسم شخص من أبناء العرب يقال له عمر كان يهتدى بها فى سفره ببحر عمان والخليج الفارسى وهم الذين وضعوا الفنارات لاهتداء السفن فى البحار واخترعوا البوصله

البارود والتحاويل المالية — أوجدوا البارود واخترعوا آلات الطلاقه والتحاويل المالية التى كانت تسمى عندهم بالسفتجة واختراع الورق والجلود بدل النقود للعاملة وقد قال أبو تمام فى ذلك

لم ينتدب عمر للابل يجعل من ... جلودها النقد حين عزه الذهب

واستعملوا الآلات المفرغة للهواء والرافعة للمياه وجعلوا عمدتهم التجربة

النعال الصرارة أول من لبس النعال الصرارة المروانى وكان قصيرا واتخذ النعال الصرارة لتزيد فى طوله وليسمعه جواريه وحرمه عند دخوله بيته فتصلح شأنهامن كانت على غير هيئة صالحة

قص أذناب الخيل — وكانوا يقصون أذناب الخيل وقال فى ذلك امرؤ القيس

على كل مقصوص الذنابا معاود بريد السرى بالليل من خيل بربرا

ولهم من العوائد الهدية بالزهور والرياحين وكانوا يتهاون بها فى أيام المواسم والاعياد وكانوا يرفعون ما على رؤوسهم للتعظيم وشاهده قول الشاعر

ولما أتانا بعيد الكرى خضعنا له ورفعنا العمارا (١)

تقديم ورقة الطعام — تقديم ورقة الطعام قبل الاكل كان معروفا عندهم ففى كتاب أحياء علوم الدين أن الامام أبى حنيفة أضافه رجلا فلما حضر الطعام قدم له خريطة الطعام فيها أسماء ما عنده من الطعام ومثله ماهو مذكور فى قصة عبد الاعلى بن عبد الله وذلك أن بلال بن أبى بردة سأل أحد جلساء عبد الاعلى فقال له مايفعل هذا الشيخ معكم اذا قدم الطعام فقال اذا أتينا وحضر وقت الطعام دعا القائم على الطعام فيسأله عما عنده فيسمى له أنواع الطعام واحدا فواحدا ليمسك كل رجل عما يشتهى و يأخذ مايشتهى

أما الصنائع الاخرى والمنسوجات حدث عنها ولا حرج ويشهد لهم بها ماهو موجود بمتاحف أوروبا الغاية يومنا هذا فكل مانشاهده الآن قد سبقنا فيه الاولون ولا نطيل الشرح فمن أراد التوسع فليراجع كتبهم وتأليفهم فى ذلك ويتوجه لمشاهدة تلك الآثار

(١) العمارة كل مايلبس على الرأس وفى رواية أخرى أن المقصود الريحان



المقالة الثالثة

﴿ في اهتمام العرب بنشر العلوم والتجارة والسياحة براً وبحرا ﴾

(وفيها سبعة فصول)

الفصل الاول

في

(الاهتمام بنشر العلوم)

كان اهتمام العرب بنشر العلوم وتعليم الأمة وتربيتها يفوق الوصف فكانوا يقومون الاحداث ويعودونهم على الأفعال المرضية والأخلاق الجيدة بطرق تميل اليها نفوسهم وتألفها طباعهم وكانوا لا يستعملون وسائل الشدة المؤدية الى التربية إلا اذا دعت الضرورة الى ذلك مثل الضرب والتوبيخ لان استعمالها من أول الأمر يولد في نفوسهم الجبن ويقلل من الرغبة في التعليم ويزيد في البلادة

كانوا يقابلون كل من يؤدبونه من الاحداث بما شاكله من التأديب ويميل اليه طبعه فقال ابن مسكويه ان أخلاق الأطفال تظهر فيهم منذ بدء نشأتهم ولا يسترونها بروية ولا فكر كما يفعله الرجل التام الذي انتهى في نشئه وكماله الى حيث يعرف من نفسه ما يستقبح منه فيجتنبه بضروب من الحيل والأفعال المضادة لما في طبعه وأنت تتأمل من أخلاق الصبيان واستعدادهم لقبول الأدب أو نفورهم عنه أو ما يظهر في بعضهم من القحة وفي بعضهم من الحياء وكذلك ما ترى فيهم من الجود والبخل والرحمة والقسوة والحسد وضده ومن الأحوال المتفاوتة ما تعرف به مراتب الانسان في قبول الأخلاق الفاضلة وتعلم معه انهم ليسوا على رتبة واحدة وان فيهم المتواني والممتنع والسهل والسلس والفظ العسر والخير والشرير والمتوسطون بين هذه الأطراف في مراتب لا تحصى كثرة واذا أهملت الطباع ولم ترض بالتأديب والتقويم نشأ كل انسان على سوم طباعه وبقي عمره كله على الحال التي كان عليها

في الطفولية وتبع ما وافقه في الطبع اهـ

كانت طرق التعليم إجبارية لا تفضيل عندهم في ذلك بل الغني والفقير متساويين فيه وقد أنشأوا لهذا الغرض المدارس العديدة في كافة أقطار المعمورة شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً حتى انتشر في مدتهم العلم بدرجة لا مثيل لها الآن في بلاد المشرق فقد ذكر جيون في كتابه عن حماية المسلمين للعلم في الشرق والغرب ان ولاة الأقاليم والوزراء كانوا يقلدون الخلفاء في انشاء المدارس واعلاء مقام العلم والعلماء وبسط اليد في الانفاق عن سعة على تشييد دور العلم ومساعدة الفقراء على طلبه فنتج من ذلك ان حب العلم ووجدان اللذة في تحصيله انغرسا في نفوس الأمم المحكومة بهم والمجاورة لهم

كان سخاؤهم وكرم نفوسهم الباعثان لهم على حب الانفاق فقد أنفق نظام الملك مائتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها خمسة عشر ألف دينار تنفق عليها في شؤونها كل سنة وقد كان في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة كبرى في مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر المتوفى سنة ٣٩٦ وفي القاهرة وحدها عشرون مدرسة كبرى أيضاً وقس على ذلك بقية الأقطار وقد أنشأوا دوراً للمطالعة وقت الفراغ وخزائن الكتب تابعة للأئمة بجوار المدارس للانتفاع بها وزيادة في نشر العلم

الفصل الثاني

في

(خزائن الكتب)

ان الكتب المصنفة في الملة الاسلامية أكثر من أن تحصى وأجل من أن تحصر فانه لم يصنف مثلها في ملة من الملل ولا قامت بنظيرها أمة من الأمم وقد تشتت أغلب كتبها فألقت التتار كتب العرب التي كانت موجودة في بغداد بنهر الفرات عندما افتتحوها وجعلوها جسراً يمرون عليه

أما في اسبانيا فان الكردينال كسيمنس أصدر أمره في سنة ١٥١١ ميلادية باحراق كتب العرب الموجودة ببلاد اسبانيا وأبادتها عن آخرها فأحرق في ساحة غرناطة كمية

من الكتب العربية فتم ذلك فى نصف قرن بغيرة عمياء ولولا بقاء تلك المترجمات الى العبرية واللاتينية لقضى على الحضارة العربية بجملتها التى امتدر ونفها على اسبانيا مدة ثمانية قرون

فمن خزائن الكتب المشهورة التى حوت كثيرا من كتب العلوم وكان ينفق عليها بسخاء وكرم حاتمى بخلاف خزائن الأهالى خزائن الأمراء

فأولها خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد وكان فيها من الكتب مالا يحصى الى ان دخلت التتار بغداد وشتتوها

الثانية — خزانة الخلفاء الفاطميين بمصر وكانت من أعظم الخزائن وأكبرها جمعت من الكتب النفيسة مالا يحصى عدده ولم تزل الى أن انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم واستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم فاشترى القاضى الفاضل عبد الرحمن بن علىّ البيسانى فى سنة ٥٠٨ أكثر هذه الكتب ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة وذكر المقريزى فى خططه انه بلغ عدد المجلدات فى هذه المكتبة مائة ألف مجلد وانه كان بها مصحف بالخط الكوفى قيل انه مصحف عثمان ابن عفان رضى الله عنه بلغ ثمنه ٣٠ ألف دينار و بقيت هذه الكتب الى ان مات صاحبها ثم استولت عليها الأيدى ولم يبق منها إلا القليل

الثالثة — خزانة خلفاء بنى أمية بالأندلس وكانت من أجل خزائن الكتب أيضا ولم تزل الى انقراض دولتهم واستيلاء ملوك الطوائف على الأندلس فذهبت كلها كل مذهب وكان بها من المجلدات نحو السبعمائة ألف مجلد وكان فهرسها أربعة وأربعين مجلدا وقد ثبت انه كان ببلاد الأندلس وحدها سبعون مكتبة عمومية مفتوحة للطالع

أما ضخامة تآليف العرب فما لا يحصره الانسان وناهيك بكتاب قيد الأوابد للامام البجنيهى المتوفى سنة ٥٥٩ بخراسان فانه بلغ ٤٠٠ مجلدا وكذلك كتاب العالم لأحمد بن أبان فانه بلغ المائة جزأ والأغرب من هذا كله كتاب فلك الأدب الذى تعاقب على تأليفه من علماء الأندلسيين ٦ فى ١١٥ سنة آخرها سنة ٦٤٥

فان شئت أن تعرف مؤلفات العرب وأنواعها وأسماء مؤلفيها راجع كتاب كشف الظنون فى أسماء الكتب والفنون وفهرس كتبخانات المانيا وانجلترا وفرنسا واسبانيا والاستانة العلية وكتبخانة الأموى بدمشق وان أردت أن تعرف أسماء الذين ألفوا خمسين كتابا فمائة فأكثر راجع كتاب جميل بك العظم محاسبجى معارف ولاية بيروت المطبوع بها فما ذكرنا يظهر اهتمام العرب بالعلوم فى الصدر الأول والثانى من الاسلام وهناك

مسألة أخرى لا تقل أهمية عندهم عن العلوم وهي حب السياحة التي ألفوها وتعودوا عليها لنشر تجارتهم وكان لهم فيها القدح المعلى

الفصل الثالث

في

(السياحة برا)

كان الباعث الاول للعرب على حب السياحة استطلاع أخبار الامم ومعرفة عوائدهم وأخلاقهم ونشر تجارتهم وتنفيتها وبث روح الدين الاسلامي وتعاليمه بين الامم الاوربية مع عوامل التمدن في اطراف البلاد واكنافها

فانتشار الرحالات المسلمين في مشارق الارض ومغاربها واضحة بينة بانتشار الدين الاسلامي بين الامم المختلفة الاجناس ونخص منها الصين ومالبزيا والسودان فقد ذكر أبو الفدا المؤرخ الشهير ٦٠ من اشهر الرحالات أصحاب التأليف في الاسفار وكلهم من أهل العصور السابقة على عصره

فمن كبار الرحالات ابن بطوطة الذي ساح البلاد وسافر من طنجة الى أفريقية الشمالية فزارها ثم رحل من مصر الى فلسطين ثم مكة ومنها الى القسطنطينية وروسيا ثم توجه الى الهند عن طريق تركستان ونزل في دلهي فحمله سلطان تلك المملكة مهمة الى امبراطور الصين ورحل الى بكين بعدان زار سيلان وصومطره وجاوه ثم السودان وتومبوكتو واسبانيا

ومنهم أيضا أبي الحسن علي ابن أبي بكر الهروي الموصلي ذكر فيها بطريق الاختصار انه زار مدينة حلب وأعمالها ثم الشام بأسرها وبلاد الافرنج وفلسطين والارض المقدسة بأجمعها وديار مصر بأسرها وسمع من أهل تونة بجزيرة تنيس بجهة دمياط ببحيرة المنزلة ان بها مشهد النبي صلى الله عليه وسلم ومشهد العلي ابن أبي طالب رضي الله عنه وبلاد سمنة بها أيضا قبر موسى بن شعيب ثم زار بلاد المغرب وجرائر بلاد الروم وجزيرة ابن عمر وديار بكر والعراق بأسره وأطراف الهند وبلاد اليمن وبلاد العجم ثم القسطنطينية ودخلها في

عهملكها قسطنطين وقال عنها انها مدينة عظيمة وهى أكبر من اسمها ودعا الله أن يجعلها دار مسلمين ومقر الخلافتهم فاستجاب الله دعاؤه وتم فتحها بعد موته بزمن على يد السلطان محمد الفاتح سلطان آل عثمان وهى الآن مقر الخلافة الاسلامية (ودعاؤه مذكور برحلته الخطية الغير مطبوعة)

وقد ذكر الاستاذ جورج يا كوب ان رحالة مسلما يعرف بالعذرى رحل من قرطبة الى البلاد الواقعة على بحر بلطيق ولما وصل الى ميانس فى وسط المانيا التقى برحالة مسلم آخر وافد من بغداد عن طريق روسيا وفى أنباء ذلك الرحالة الاندلسى ما يثبت ان أوروبا كانت اذ ذاك فى هوة انحطاط لا قرار لها هذه القارة المتمدنة الآن

وصل العرب فى سياحتهم البرية الى الاقطار الاوروبية الشمالية وامتدت تجارتهم الى السويد والدانيمارك وروسيا فقد وجدت كنوز عديدة من النقود الاسلاميه فى كثير من من الاقطار الاوروبية الشمالية فأحصى الاستاذ تورنبرج سنة ١٧٥٧ المحلات التى أخرجت منها النقود العربية فى بلاد السويد وحدها فبلغ عددها ١٦٩ محلا وأحصى الدكتور هانس هليبراند سنة ١٨٧٣ قطع النقود الفضية العربية التى عثر عليها فى جزيرة جوتلاندة وحدها على صغرها فأربى ما أحصاه على ١٣ ألف قطعة

وكما كثرت أسفار المسلمين فى البر كثرت فى البحر وكان لهم من الدونمات العظيمة فى البحار ما ساعدهم على انتشار التجارة واستكشاف الجزائر

الفصل الرابع

فى

(السياحة بحرا)

كان للعرب سفن عظيمة بحرية كما كان لهم مراكب تجارية تمخر فى البحر الابيض المتوسط والمحيط الهندى وفى الاقيانوس الاطلانطيقى المسمى فى كتبهم ببحر الظلمات والهادى فكانت ملاحتهم تضرب من جزائر اليابان شرقا الى بلاد الكاب غربا وتسمى عندهم برأس الرجاء الصالح فأقوى برهان على استمرار تنقلاتهم فى تلك الانحاء كثرة عدد

الذين اعتنقوا الاسلام من جزائر الفليبين التابعة لامريكا الآن وجزائر الهند الصيني وجزيرة مداغشقر وماحولها وهم الذين أطلقوا على بلاد الكافر هذا الاسم وقد سبقوا الاوروباويين الى طواف محيط أفريقية بحراً ووصلوا الى جزائر في المحيط الاطلانطيقي ينطبق وصفها على أرلندا وعلى تيرنيف أى الارض الجديدة بأمريكا وقد ترامت بهم الاسفار في البحر كما ترامت بهم في البر بدليل وجود نقود اسلامية في جهة ميودال من أعمال ميرار من جزيرة اسلانده وفي جزيرة وينلانده على مقربة من القطب الشمالي

سبق ملاحوا العرب جميع ملاحي القرن الخامس عشر بنحو أربعمائة سنة في اكتشاف المعمور من البلاد والجزائر مع قصر مدتهم ووضعوا أول علم الهدى لمن يأتي بعدهم فكان الحظ والفخر لكرستوف كولومبو ولم يكن لواحد من أبنائهم . فهم الذين سافروا من أشبونه ببلاد الاندلس على نية السياحة واكتشاف أرض جديدة جزموا بوجودها فيما وراء المحيط الاعظم ووقوفهم على آثار اطلانطيد القديمة فاكتشفوا في طريقهم أرخبيلين في المحيط الاطلانطي وهما أرخبيل أسورة وأرخبيل ماديره وقدروى الاستاد ابليز يةريكلوس أكبر جغرافي انه اجتمع للمسلمين في جزائر الفلبيين مائة ألف بحار في زمن واحد اشتهروا بالشجاعة والمهارة فيما يختص بالفنون البحرية

الفصل الخامس

في

﴿ فضائل السياحة ﴾

للسياحة فضائل عديدة لاتحصى منها انها تسهل اتحاد مسلمي الارض وتؤلف بين مختلفي الاجناس وتزيد الاعتقاد فكلما سار الانسان ونظر الارض وما عليها من محاسن الطبيعة وتأمل في دقيق صنع البارى ازداد يقينه واعلم أن الله حق لايتغير واحد لايتعدد أبدى لايزول ومنها تنمية مواهب الشخص من الوجهة الادبية والعقلية والمادية فقد ذكر الله تعالى في كتابه العزيز قل سيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المتقين فأمر الله بالسير حتى لايقعد بالامة الكسل فتنقطع أخبارها عن غيرها ويحل بها الفقر وتضرب في

مواطنها المذلة والمسكنة

فسياح المسلمين فى العصور الماضية هم خلاف سواح هذا العصر من أبنائه فالسائح فى الزمن الاول كان يخرج لا كتساب الدرهم والدينار ونشر الفضيلة والآداب ودرس الاخلاق والعوائد وتدوين الرحلات العلمية و إثبات مايشاهده فى أثناء سيره كما هو شأن الوافدين على بلادنا الآن من سياح أورو با فانه لايمر علينا شهر أو سنة الا ونرى كل يوم رحلة جديدة عن الشرق لاحد رجال الغرب سواء كان انجليزيا أو فرنساويا أو ألمانيا أما أغلب سواح عصرنا من المسلمين فانهم يخرجون من بلادهم للاسترسال وراء الملذات والشهوات البهيمية التى هى خادعة العقول وغادرة الالباب ومحسنة القبائح ومسولة الفضائح وليس عطب الاوهى له سبب

فسواح الشرق يعودون الى بلادهم حاملين للذل المعصية والعار مع احتقار أهل تلك البلاد لهم بدل تعظيمهم كما كانت تفعل أورو با فى العصور الماضية عندما يفد الى أوطانهم تاجرا أو سائحا عربيا فقد روى ابن فضلان ان بلغار روسيا كانوا يكرمون وفادة التجار المسلمين عليهم الى حد أنهم كانوا عند استقبالهم ينثرون الدراهم تحت أقدامهم اشارة الى التأهيل والترحيب بهم و يبتهجون بقدومهم ابتهاجا عظيما

الفصل السادس

فى

(التجارة)

عالج سياح المسلمين التجارة فكان لتجارتهم شأن عظيم فى أقطار أورو با الصقلبية الشمالية حركة شديدة وكان للتجار بها تأثير عظيم أعرب عن دخول كثير من أهل تلك البلاد الى الدين الاسلامى ودليل ذلك انهم وجدوا نقودا بلغارية وألمانية ونورماندنية وانكلزية سكسونية موشاة بخطوط كوفية جميلة فى تلك الجهات

فاذا تتبعنا أحوال متقدمى الاسلام ومشاهير أمرائه والحكام لم نجد أحدا منهم الا وله حرفة يتقوت منها أو صنعة لا يستغنى فى معيشته عنها علمية كانت أو عملية سواء فى ذلك

الكبير والصغير والمأمور والامير فأصحاب العلوم توضح الطرائق وتزيل العوائق وأرباب العمل يتبعون مارسموه ويبنوه ويعملون على مقتضى ما استحسنوه فقد حث القرآن الشريف على العمل والسعي في طلب الرزق حتى كاد يعده فرضا خصوصا وقد مدح التجارة والصناعة والسياحة فلم يبق عند العرب أوهام بالنسبة لاتضاع الصنعة وشرفها فلم يكن أحد منهم يرى أنه أشرف من غيره ولهذا قروى وذاك مدنى ولهذا فقيرا وذاك غنى بل كانوا جميعا لايرون الفضل الا لمن اتبع سبيل الرشاد

فالصنائع كانت تشرف بهم لأنهم يشرفون بها بخلاف تجارنا الآن فان شرف الرجل عندهم بقدر شرف صنعته فلذلك كانت رجال الدول الاسلامية وقادة الجيوش ورؤساء الاحكام لايبالون بأسماء صنائعهم حيث يتيسر لهم بها في الدنيا أمر معاشهم كالخياطة والعطارة والجوهرية فكان أبو بكر رضي الله عنه برازا وعمر رضي الله عنه وعثمان تجارا وكان عليا رضي الله عنه لصغر سنه ساعيا في خدمة ابن عمه صلى الله عليه وسلم

فعلى مقتضى الشريعة المحمدية يلزم كل انسان أميرا كان أومأمورا ان يقتات من عمل يده وهكذا كان كثير من الخلفاء والصالحين والعلماء العاملين فلولا دين الاسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة بأسرها اذ ليس في أحكام الديانة مايمنع من التقدم في أي علم من العلوم النافعة دينا ودنيا بل أن كتاب الله وأحاديث أنبيائه وسائر رسله آمرة بذلك فقد كان صلى الله عليه وسلم يحث على البكور في طلب الرزق وغيره من حوائج الدنيا ويقول اللهم بارك لامتي في بكورها وقال الشافعي رضي الله عنه أحرص على ماينفعك ودع كلام الناس وقال حكيم من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير فالتجارة هي كما قاله ابن خلدون في مقدمته هي محاولة الكسب بتنمية المال بشراء السلع بالرخص وبيعها بالغلا أياما كانت السلع من زرع أوحيوان أوقماش وذلك القدر النامي يسمى ربحا فالمحاولة لذلك الربح اماأن يختزن السلعة ويتحين بها حوالة الاسواق من الرخص الى الغلا فيعظم ربحه ولذلك قال بعض الشيوخ من التجار لطالب الكشف عن حقيقة التجارة أنا أعلمها لك في كلمتين اشتراء الرخيص وبيع الغالي . ـ كانت العرب تتجر في زمن الجاهلية مع الهند والصين والفنقيين عن طريق الحجاز برا بواسطة القوافل ونجحت هذه التجارة نجاحا عظيما جدا أيام سليمان عليه السلام حتى شاع بمعرفة التجار المتنقلين خبر سليمان ومجده وحكمته وكان من أهم مواد التجارة عند العرب الاحجار الثمينة التي كانت في بعض جبال تلك الجزيرة واللؤلؤ الذي يستخرج من خليج عمان والطيب والبخور المأخوذ من الاعشاب الطبيعية

عندهم كالعود القاقلي وغيره كالاشياء المفيدة مثل القرفة والحناء والمنسوجات الحريرية والمرجان والعقيق والمعادن النافعة كالذهب والفضة ومنسوجات القطن والصوف والكتان وقد وصلت الحياكة الى درجة عالية فى زمانهم وكان لهم أسواق تقام فى أيام المواسم يعرضون فيها تجاراتهم ومصنوعاتهم كالمعارض التي تقام فى أوروبا الآن وكانت تجتمع الامم من كافة الاقطار فيها

الفصل السابع

فى

(أسواق العرب وحرب الفجار)

أسواق العرب فى الجاهلية كثيرة أشهرها سوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز وسوق دومة الجندل ولكن سوق عكاظ هو المتميز بين الاسواق بالسباق فى الشعر وغيره وكان فيها سوق أسبوعية تقوم يوم الاحد للبيع والشراء وسوق سنوية تجتمع فيها قبائل العرب فيتناشدون الاشعار ويذكرون مآثر العشائر هم من المجد والفخار وكان من فوائدها ان العرب يتعارفون فيها ويتحابون ومن له أسير سعى فى فدائه فمن له حكومة ارتفع الى الذى يقوم بأمر الحكومة وكانت فرسان العرب اذا كانت أيام عكاظ فى الشهر الحرام وأمن بعضهم بعضا يتقنعون حتى لايعرفوا وان كانت هذه السوق تؤدن بالتعامل والاخذ والعطاء الا أنها كانت فى الحقيقة ونفس الامر محلا لاجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لابداء نتائج أفكارهم وأظهار محاسن فصاحتهم و بلاغتهم فنها يؤخذ انه كان للعرب جمعيات علمية احتفالية فى أسواق دورية ذات ميادين شعرية

فلم يكن محفل عكاظ معدن المفاخر التليدة والطارفة ولم يكن وحده فى جزيرة العرب بل كانت أسواق اليمن أيضا مراكز للمفاخرة الظاهرية والمنافع العمومية والزينة والزخرفة فكانت بضاعتها هى النافقة وكان سوق عكاظ الذى هو مجمع المفاخرة بين العرب ربما قد تتسبب عنه فتن وحروب كما وقع ذلك فى الفجار الأول والفجار الثانى والفجار الثالث والرابع إذ سبب حرب الفجار الأول أن بدر بن معشر الغفارى كان له مجلس يجلس فيه

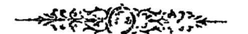
فى سوق عكاظ و يفتخر على الناس فبسط يوما رجله وقال أنا أعز العرب فمن زعم انه أعز منى فليقطعها بالسيف فوثب عليه رجل من أشراف العرب فضربه بالسيف على ركبته فأدماها فاقتتلوا اقتتالا شديدا

وسبب الفجار الثانى ان امرأة من بنى عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فطاف بها شاب من قريش من بنى كنانة وسألها أن تكشف وجهها فأبت فجلس خلفها وهى لا تشعر وعقد ذيلها بشوكة فلما قامت وانحسر ذيلها من خلفها ضحك الناس عليها وقيل لها قد بخلت بكشف وجهك فبان غيره فنادت يا آل عامر فساروا بالسلاح ونادى الشاب يا بنى كنانة فجاؤا بالسيوف والرماح فحصل الحرب بينهما بسبب ذلك ومن هذا يفهم ان النساء فى الجاهلية كن يأبين كشف وجوههن وليس كذلك اللهم إلا أن يكون هذا الحجاب كان موجودا فى أشرافهن خصوصا فى الجمعيات الاحتفالية

وثم الفجار الثالث وسببه انه كان لرجل من بنى عامر دين على رجل من بنى كنانة فماطله ذلك الرجل فجرت بينهما مخاصمة شديدة فتحمل عبد الله بن جدعان ذلك الدين ودفعه من ماله وكان ذلك سببا لانقضاء هذا الحرب

وثم الفجار الرابع وهو الذى شهده النبى صلى الله عليه وسلم وسببه ان عروة الرّحال بتشديد الحاء المهملة وكان من قيس هوازن أجار العير من النعمان بن المنذر

فمن هذا كله يعلم ان سوق عكاظ كان مجمعا لمفاخر العرب حربا وسلما حماسة وسماحة وانه كان يحمل نفوس العرب الأبية على كسب المجد والشرف



المقالة الرابعة

﴿ فى ان العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم ﴾

(وفيها ثمانية فصول)

الفصل الاول

فى

(عوائد العرب التى أقرها الاسلام وحلف الفضول)

العرب أفضل الأمم وحكمتهم أشرف الحكم وصفاتهم أحسن الصفات وعاداتهم من أجمل العادات فكان لهم من الفضائل وآداب النفوس ومكارم الأخلاق ومحاسن الشيم ما ميزهم على غيرهم من الأمم

كان لهم قبل الاسلام عوائد وآداب وأخلاق وأحكام وقوانين وصلت الى عصره فنها ما أقرها وأبقاها فازدادها رونقا على رونق وبهاء على بهاء وجمالا على جمال

فهم أول من حرّم الخمر فى الجاهلية فقد حرّمها الوليد بن المغيرة وقيل قيس بن عاصم ثم جاء الاسلام بتقريره وأول من حرّم القمار فى الجاهلية الأقرع بن حابس التميمى ثم جاء الاسلام بتقريره وأول من رجم فى الزنا فى الجاهلية ربيع خوان ثم جاء الاسلام فقرره فى المحصن وأول من حكم ان الولد للفراش فى الجاهلية أكثم بن صيفى حكيم العرب ثم جاء الاسلام بتقريره وأول من قطع اليد فى السرقة فى الجاهلية المغيرة ثم جاء الاسلام بتقريره وأول من سن الدّية مائة من الابل عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم وذلك انه أنذر إن ولد له عشرة ذكور ليذبحن العاشر فولد له عشرة وكان عاشرهم عبد الله أبو النبى صلى الله عليه وسلم فرام ذبحه فعارضه قريش فى أمره وأشير عليه ان يقرع بينه وبين الابل حتى تخرج القرعة على الابل فأقرع بينه وبين عشرة فخرجت القرعة عليه ثم زاد عشرة بعد عشرة

وهى تقع عليه حتى بلغ المائة فى الابل فوقعت القرعة عليها فنحرها فكان النبي صلى الله عليه وسلم يقول أنا ابن الذبيحين يعني اسماعيل وعبد الله ثم جاء الاسلام بتقريرها وأول من أوقد النار بالمزدلفة حتى يراها بالموقف قصى بن كلاب وأول من أهدى البدن الى البيت الياس بن مضر وأول من أظهر التوحيد بمكة قبل البعثة قس بن ساعدة وأول من خضب بالوسمة من قريش عبد المطلب وأول من نسأ النسىء وسيب السوائب وجعل الوصيلة عمرو بن لحى وهو أبو خزاعة وقد حرموا نكاح الأمهات والجمع بين الأختين وكانوا يعيبون من يتزوج امرأة أبيه ويسمونه الضيزن وكانوا يحجون البيت الحرام بمكة ويعتمرون ويحرمون ويطوفون ويسعون ويرمون الجمار ويقفون مواقف الحج كلها وكانوا أيضا يغتسلون من الجنابة ويداومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الأظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان وكانت قريش تصوم يوم عاشوراء فى الجاهلية وكان صلى الله عليه وسلم يحب الفأل الصالح والاسم الحسن فقد جاء فى الخبر أنه صلى الله عليه وسلم لما هاجر الى المدينة نزل على رجل يقال له كلثوم فدعا بغلامين له يا بشار ويا سالم فقال صلى الله عليه وسلم لأبى بكر فقد سلمت لنا البلد وكان كما قال صلى الله عليه وسلم

ولهم غير ذلك من العوائد حلف الفضول فقد جاء عنه فى كتاب خلاصة الكلام فى تاريخ الجاهلية والاسلام انه كان للعرب عقود وعهود يحلفون فيها حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا وكانت هذه المحالفات بين القبائل لحفظ نواميسهم ويعضد بعضهم بعضا والمتحالفون يسمون عند العرب بالأحلاف فمن ذلك ان بنى عبد مناف لما أرادت أخذ ما فى أيدى بنى عبد الدار من الحجابة والسقاية وأبت عبد الدار ذلك عقد كل قوم على أمرهم حلفا مؤكدا على أن لا يتخاذلوا فأخرجت عبد مناف جفنة مملوأة طيبا فوضعتها لاحلافهم وهم أسد وزهرة وتيم عند الكعبة فغمسوا أيديهم فيها وتعاقد بنو عبد الدار وحلفاؤهم وحلفوا حلفا آخر مؤكدا وكانت أحلافهم قبائل عبد الدار وكعب وجمع وسهم ومخزوم وعدى وكان مثل هذه المحالفات للتناصر بينهم فقط لا للمصلحة العمومية ففى منصرف قريش من حرب الفجار فى ذى القعدة بعد انقضاض سوق عكاظ أسس حلف الفضول وهو أشرف حلف عند العرب وأحق بالفخار مما عداه وكان هذا الحلف لشرف موضوعه وجل الغرض المطلوب منه يكاد أن يكون أساسا للسياسة وطنية وتمهيد الاحوال تمدنية وأول من دعا الى هذا الحلف فى شهر ذى القعدة بعد الفجار الرابع الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم

شقيق أبيه فاجتمع اليه بنو هاشم وزهرة و بنو أسد بن عبد العزى فى دار عبد الله بن جدعان التيمى المتقدم ذكره وكان بنو تيم فى حياته كأهل بيت واحد بقوتهم وكان عبد الله بن جدعان ذا شرف وسن وتحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها أى على أن يردوا الحقوق التى أخذت ظلما إلى أربابها ولا يعز ظالم على مظلوم وكان معهم فى ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد شهده وقال صلى الله عليه وسلم ما أحب أن لى بحلف حضرته بدار بن جدعان حمر النعم وأنى أغدر به أى لا أحب الغدر وان أعطيت حمر النعم فى ذلك وفى رواية لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الاسلام لأجبت أى لو نادى مظلوم يا آل حلف الفضول لأجبته ونصرته لان الاسلام يقرر رفع المظالم وسببه أن قريشا كانت تتظالم فى الحرم وكان قبل ذلك قد تحالف قوم من جرهم أن لا يرواظالما ببطن مكة إلا غيروه ودفعوه وكان قد باد أهل ذلك الحلف وتنوسى أمره وصار يقع الظلم فى الحرم بدون مدافع فاتفق أن رجلا من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص ابن وائل وكان من أهل الشرف والقدر بمكة فحبس عنه حقه فاستعدى عليه الزبيدى بالاحلاف عبد الدار ومخزوم وجمح وسهم وعدى بن كعب فأبوا أن يعينوا على العاص وانتهروا الزبيدى فلما رأى الزبيدى الشر رقى على جبل أبى قبيس عند طلوع الشمس وقريش فى أنديتهم حول الكعبة وقال بأعلى صوته

يا آل فهر لمظلوم بضاعته ... ببطن مكة نائى الدار والنفر
ومحرم أشعث لم يقض عمرته ... يا للرجال وبين الحجر والحجر
ان الحرام لمن تمت مكارمه ... ولا حرام لوثب الفاجر الغدر

فقام فى ذلك الزبير بن عبد المطلب وعبد الله بن جدعان واجتمع إليهما من تقدم من الناس قيل كان معهم العباس وأبو سفيان وتعاهدوا وتعاقدوا ليكونن يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى حقه شريفا أو وضيعا ثم مشوا الى العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدى فدفعوها إليه وصاروا دائما يأخذون من الظالم للمظلوم حقه على وفق حلف الفضول الذى كان أشرف حلف فى الجاهلية كما سبق وقد بقى مثل ذلك معمولا به فى الاسلام من اجتماع جمعية من الناس تنصر المظلوم على ظالمه وتأخذ حقه منه بقضايا عرفية يذعن اليها المتخاصمان وهذا الحلف وأمثاله من العوائد العربية الشريفة يدل على ما كان لهم من الميل للحق والمروءة التامة والبعد عن خسائس الامور واغتيال الحقوق كما تشهد بذلك أخبارهم وتنطق به أشعارهم

الفصل الثانى

فى

(صفات العرب)

ان صفات العرب كثيرة منها الشهامة والنجدة وحفظ العهود والمحافظة على الاعراض والمدافعة عن الجار ولوجار والسخاء والكرم والضيافة للقريب والغريب وعزة النفس وإباء الضيم والولوع بالاشعار والحكم والامثال والحلم والاخذ بالثار والفصاحة والمحافظة على الشرف والصدق فى القول فمما يدل على ما كان لهم من العزة والشرف والشجاعة قول عنترة من والفخر الحماس

اذا بلغ الفطام لنا وليد تخر له أعادينا سجودا
ومن يقصد بداهية إلينا يجد منا جبابرة أسودا
ويوم البذل نعطى ما ملكنا ونملأ الارض احسانا وجودا

ومن أحسن ما مدحوا به وأجمع لصفاتهم قول النعمان بن المنذر لكسرى أنوشروان حين قدمت عليه الوفود وأخذ كل منهم يذكر فخر أمته (قال النعمان) أصلح الله الملك حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك من غير رد عليه ولا تكذيب له فان أمننى من غضبه نطقت به قال كسرى قل فأنت آمن

قال النعمان - أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة محلها وبحبوحة عزها وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها قال كسرى بماذا - قال النعمان - بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وأنفتها ووفائها فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوّخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الأرض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدتهم الصبر إذ غيرها من الأمم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم

من الهند المحرقة والصين المصفقة والترك المشوهة والروم المقشرة وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها حتى ان أحدهم ليسأل عمن وراء أبيه نسبا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس أحد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا أحاطوا بذلك أحسابهم وحفظوا به أنسابهم فلا يدخل رجل في غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير أبيه وأما سخاؤهم فان أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة عليها بلاغة في حوله وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفلذة ويجتزئ بالشربة فيعقرها له ويرضى أن يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الاحدوثة وطيب الذكر

وأما حكمة ألسنتهم فان الله تعالى أعطاهم في أشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشياء وضربهم للامثال وابلاغهم في الصفات ماليس لشيء من ألسنة الاجناس الأخرى ثم ان خيلهم أفضل الخيل ونساؤهم أعف النساء ولباسهم أفضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم الابل التى لا يبلغ مثلها على سفن ولا يقطع بمثلها بلد قفر

وأما دينها وشريعتها فانهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من نسكه بدينه أن لهم أشهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وادراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى

وأما وفاؤهم فان أحدهم يرمح عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته وان أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به وعسى أن يكون نائيا فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جواره وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله

وأما قولك أيها الملك يئدون أولادهم فانما يفعله من يفعله منهم بالاناث أنفة من العار وغيرة من الأزواج

وأما قولك ان أفضل طعامهم لحوم الابل على ما وصفت منها فما تركوا ما دونها الا احتقارا فعمدوا الى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع أنها أكثر البهائم شحوما وأطيبها لحوما وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة وانه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها الا استبان فضلها عليه

وأما تحاربهم وأكل بعضهم بعضا وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفعل

ذلك من يفعله من الأمم اذا آنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها اليها بالزحف وانه انما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم فيلقون اليهم أمورهم و ينقادون اليهم بأزمتهم

وأما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين مع أنفتهم من أداء الخراج والوطف بالعسف

وأما اليمن التى وصفها الملك فلما أتى جد الملك اليها الذى أتاه عند غلبة الجيش له على ملك متسق وأمر مجتمع مساو باطر يدا مستصرخا قد تقاصر عن ايوانه وصغر فى عينه ما شيد من بنائه ولا ماوتر به من يليه من العرب لمال الى مجال ولو جد من يجيد الطعان و يغضب للاحرار من غلبة العبيد الأشرار

فعجب كسرى من كلامه وقال انك لأهل لموضعك من الرئاسة فى أهل اقليمك ولما هو أفضل — ثم كساه من كسوته وسرحه الى موضعه من الحيرة اهـ

ومثل ذلك كثير فمن يقرأ كلام الوفود العشرة الذين وفدت على كسرى وكلام الوفود الذين وفدوا على سيف ابن ذى يزن علم أن العرب كلما قاربوا البعثة كلما تهذب لسانهم وكملت فصاحتهم

الفصل الثالث

فى

أن السخاء والكرم من شيم العرب

ان السخاء والكرم سجيتان من سجايا العرب فى الجاهلية والاسلام يمتازون بهما عن غيرهم و يبرون من يودهم لا لفخر أو شهرة واذاعة صيت بل لدفع مضرة واغاثة ملهوف واكرام ضيف

فالسخاء اسم واقع على كل معنى من أنواع الفضل ولفظ جامع لمعانى السماحة والبذل فكل خصلة من خصال الخير وخلة من خلال البر وشيمة تعزى الى مكارم الاخلاق وسجية تضاف الى محاسن الطبائع والاعراق واقعة تحت اسم السخاء ومنه يتولد الكرم

قال ابن مسكويه أما السخاء فهو وسط بين رذيلتين احداهما السرف والتبذير والأخرى البخل والتقتير أما التبذير فهو بذل ما لا ينبغي لمن لا يستحق وأما التقتير فهو منع ما ينبغي عمن يستحق

فحد السخاء كما ذكره الماوردي هو بذل ما يحتاج اليه عند الحاجة وأن يوصل الى مستحقه بقدر الطاقة وتدبير ذلك مستصعب ولعل بعض من يحب أن ينسب الى الكرم ينكر حد السخاء ويجعل تقدير العطية فيه نوعا من البخل وأن الجود بذل الموجود وهذا تكليف يقضي الى الجهل بحدود الفضائل ولو كان الجود بذل الموجود لما كان السرف موضعا ولا للتبذير موقعا وقد ورد الكتاب بذمهما وجاءت السنة بالنهي عنهما واذا كان السخاء محدودا فمن وقف على حده سمي كريما وكان للحمد مستحقا ومن قصر عنه كان بخيلا وكان للذم مستوجبا وقد قال تعالى ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة وقال صلى الله عليه وسلم طعام الجواد دواء وطعام البخيل داء

والبر نوعان صلة ومعروف فأما الصلة فهي التبرع ببذل المال من الجهات المحمودة لغير عوض مطلوب وهذا يبعث على سماحة النفس وسخاؤها ويمنع منها شحها وإباؤها قال الله تعالى ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون قالت الحكماء الجود حارس الاعراض جود الرجل يحببه الى أضداده وبخله يبغضه الى أولاده – خير الأموال ما استرق حرا وخير الاعمال ما استحق شكرا

وقد يحدث عن البخل من الأخلاق المذمومة وان كان ذريعة الى كل مذمة أربعة أخلاق وهي الحرص والشره وسوء الظن ومنع الحقوق

أما المعروف ويتنوع الى نوعين قولا وعملا أما القول فهو طيب الكلام وحسن البشر والتودد بجميل القول وهذا يبعث على حسن الخلق ورقة الطبع ويجب أن يكون محدودا كالسخاء فانه اذا أسرف فيه كان متعلقا مذموما وان توسط واقتصد فيه كان معروفا قال صلى الله عليه وسلم انكم لن تسعوا الناس بأموالكم فليسعهم منكم بسط الوجوه وحسن الخلق

وأما العمل فهو بذل الجاه والاسعاد بالنفس والمعونة في النائبة وليس له حد ويبعث على حب الخير وايثار الصلاح

قال ابن مسكويه ان الفضائل التي تحت السخاء هي الكرم والايثار والنبل

والمواساة والسماحة والمسامحة . - أما الكرم فهو انفاق المال الكثير بسهولة من النفس في الأمور الجليلة القدر الكثيرة النفع كما ينبغي وأما الايثار فهو فضيلة للنفس بها يكف الانسان عن بعض حاجاته التي تخصه حتى يبذل لمن يستحقه وأما النبل فهو سرور النفس بالافعال العظام وابتهاجها بلزوم هذه السيرة وأما المواساة فهي معاونة الاصدقاء والمستحقين أو مشاركتهم في الأموال والأقوات وأما السماحة فهي بذل ما لا يجب وأما المسامحة فهي ترك بعض ما يجب والجميع يكون بالارادة والاختيار

ومما يدلك على مزيد سخاء العرب انه كان لهم نار تسمى نار القرى وهي نار الضيافة توقد لاستدلال الاضياف بها على المنزل وكانوا يوقدونها على الاماكن المرتفعة لتكون أشهر وربما أوقدوها بالعود ونحوه مما يتبخر به ليهتدي اليها العميان وهذه النار عندهم أجل مآثر نيرانهم

فمن اشتهر بالجود عندهم والسخاء وضرب بهم المثل في الكرم من عرب الجاهلية والاسلام حاتم الطائي وكعب ابن أمامة الايادي وهرم بن سنان وعبد الله بن حبيب العنبري وعبد الله بن جدعان التيمي وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب وحمزة بن عبد الله بن الزبير العوام وعمر بن عبد الله بن معمر التيمي وقيس بن سعد بن عبادة الانصاري وعبد الله بن أبي بكر مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسالم بن قحفان القائل

لا تعذليني في العطاء ويسري ... لكل بعير جاء طالبه حبلا

فاني لا تبكي علىّ افالها ... اذا شبعت من روض أوطانها بقلا

فلم أر مثل الابل مالا لمقتن ... ولا مثل أيام الحقوق لها سبلا

وخبر هذه الابيات أن سالم بن قحفان أتاه أخو امرأته فأعطاه بعيرا من ابله وقال لامرأته هاتي حبلا يقرن به ما أعطيناه الى بعيره ثم أعطاه بعيرا آخر وقال هاتي حبلا ثالثا فقالت ما بقي عندي حبل فقال عليّ الجمال وعليك الحبال فرمت اليه بخمارها وقالت اجعله حبلا لبعضها فأنشأ يقول لا تعذليني الابيات فأجابته امرأته

حلفت يمينا يا ابن قحفان بالذي ... تكفل بالارزاق في السهل والجبل

تزال حبالا محصدات أعدها ... لها ما مشى منها على خفه جمل

فاعط ولا تبخل لمن جاء طالبا ... فعندي له خطم وقد زاحت العلل

وعمرو بن الأهتم حيث يقول

ذريني فان الشح يا أم هيثم ... لصالح أخلاق الرجال سروق

ذريني وحظي في هواي وانني	على الحسب الزاكي الرفيع شفيق
ذريني فاني ذو فعال تهمني	نوائب يغشى رزئها وحقوق
وكل كريم يتقي الذم بالقرى	وللحق بين الصالحين طريق
لعمرك ماضاقت بلاد بأهلها	ولكن أخلاق الرجال تضيق

عتبة بنت عفيف

وهي ام حاتم الطائي وكانت أجود أهل زمانها من النساء فمنعها اخوتها عن العطاء وحبسوها في بيت سنة يطعمونها رجاء أن تكف عن عادتها ثم أخرجوها بعد مضي السنة وظنوا أنها قد اقتصرت ودفعوا اليها صرمة فأتتها امرأة من هوزان فسألتها فأعطتها الصرمة وقالت لقد عضني من الجوع ما آليت معه أن لا أمنع سائل شيأ وقالت

لعمري لقدما عضني الجوع عضة	فآليت أن لا أمنع الدهر جائعا
فقولا لهذا اللائمي الآن اعفني	فان أنت لم تفعل فعض الاصابعا
ولا ماترون الدهر الا طبيعة	فكيف بتركي يا ابن أمي الطبائعا

أعطى رجل امرأة سألته مالا عظيما فلاموه وقالوا انها لا تعرفك وانما كان يرضيها اليسير فقال ان كانت ترضى باليسير فأني لا أرضى الا بالكثير وان كانت لا تعرفني فأنا أعرف نفسي

قال عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر

أرى نفسي تتوق الى أمور	ويقصر دون مبلغهن حالي
فنفسي لا تطاوعني ببخل	ومالي ليس يبلغه فعالي

وقال أيضا

ولا أقول نعم يوما فأتبعها	منعا ولو ذهبت بالمال والولد
ولا ائتمنت على سر فبحت به	ولا مددت الى غير الجميل يدي

بلغ ابن المقفع ان جاراً له يبيع داره لدين ركبه وكان يجلس في ظل داره فقال ما قمت اذاً بحرمة ظل داره ان باعها معدماً وبت واجداً فحمل اليه مالا وقال لا تبع

قال رجل من بني عامر ابن صعصعة لعتبة ابن أبي سفيان والله لأن تحسنوا وقد أسأنا خير من أن تسيئوا وقد أحسنا فان كان الاحسان منكم فما أحقكم باتمامه وإن كان منا فما أحقكم

قال ابن مسكويه ان من كمالات الشجاعة كبر النفس - النجدة - عظم الهمة - الثبات - الصبر - الحلم - عدم الطيش - الشهامة - احتمال الكد - والفرق بين هذا الصبر والصبر الذى فى العفة ان هذا يكون فى الأمور الهائلة وذلك يكون فى الشهوات الهائجة . أما كبر النفس فهو الاستهانة باليسير والاقتدار على حمل الكرامة فصاحبه يؤهل نفسه للأمور العظام مع استخفافها لها وأما النجدة فهى ثقة النفس عند المخاوف حتى لا يخامرها جزع وأما عظم الهمة فهى فضيلة للنفس تحتمل بها سعادة الجد وضدها حتى الشدائد التى تكون عند الموت وأما الثبات فهو فضيلة للنفس تقوى بها على احتمال الآلام ومقاومتها فى الأهوال خاصة - وأما الحلم فهو فضيلة للنفس تكسبها الطمأنينة فلا تكون شغبة ولا يحركها الغضب بسهولة وسرعة وأما السكون الذى نعنى به عدم الطيش فهو أما عند الخصومات وأما فى الحروب التى يذب بها عن الحريم أو عن الشريعة وهو قوة للنفس تقسر حركتها فى هذه الأحوال لشدتها وأما الشهامة فهى الحرص على الأعمال العظام توقعا للاحدوثة الجميلة وأما احتمال الكد فهو قوة للنفس بها تستعمل آلات البدن فى الأمور الحسية بالتمرين وحسن العادة

فالعرب أشجع الأمم وأشدهم بأسا كانوا يتمادحون بالموت فى ساحة الوغى ويتهاجون بالموت على الفراش ويقولون مات فلان حتف أنفه ولامية السموأل بن عاديا خير شاهد على ذلك حيث يقول

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه	فكل رداء يرتديه جميل
وان هو لم يحمل على النفس ضيمها	فليس الى حسن الثناء سبيل
تعيرنا أنا قليل عديدنا	فقلت لها ان الكرام قليل
وما قل من كانت بقاياه مثلنا	شباب تسامى للعلى وكهول
وما ضرنا أنا قليل وجارنا	عزيز وجار الأكثرين ذليل
لنا جبل يحتله من نجيره	منيع يرد الطرف وهو كليل
رسا أصله تحت الثرى وسما به	الى النجم فرع لا ينال طويل
هو الأبلق الفرد الذى شاع ذكره	يعز على من رامه ويطول
وانا لقوم لا نرى القتل سبة	اذا ما رأته عامر وسلول
يقرب حب الموت آجالنا لنا	وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيد حتف أنفه	ولا طل منا حيث كان قتيل

تسيل على حد الظبات نفوسنا — وليست على غير الظبات تسيل
صفونا ولم نكدر وأخلص سرنا — اناث أطابت حملنا وفحول
علونا الى خير الظهور وحطنا — لوقت الى خير البطون نزول
فنحن كماء المزن ما فى نصابنا — كهام ولا فينا يعد بخيل
وننكر ان شئنا على الناس قولنا — ولا ينكرون القول حين نقول
اذا سيد منا خلا قام سيد — قؤول لما قال الكرام فعول
وما أخمدت نار لنا دون طارق — ولا ذمنا فى النازلين نزيل
وأيامنا مشهورة فى عدونا — لها غرر معلومة وحجول
وأسيافنا فى كل شرق ومغرب — بها من قراع الدارعين فلول
معودة أن لا تسل نصالها — فتغمد حتى يستباح قتيل
سلى ان جهلت الناس عنا وعنهم — فليس سواء عالم وجهول
فان بنى الديان قطب لقومهم — تدور رحاهم حولهم وتجول

﴿ وقال أبو الغول الطهوى ﴾

فدت نفسي وما ملكت يمينى — فوارس صدقت فيهم ظنونى
فوارس لا يملون المنايا — اذا دارت رحا الحرب الزبون
ولا يجزون من حسن بسيء — ولا يجزون من غلظ بلين
ولا تبلى بسالتهم وان هم — صلوا بالحرب حينا بعد حين
هم منعوا حمى الوقبى بضرب — يؤلف بين أشتات المنون
ولا يرعون أكناف الهوينا — اذا حلوا ولا أرض الهدون

﴿ وقال عنتر بن شداد ﴾

وفى يوم المصانع قد تركنا — لنا بفعالنا خبرا مشاعا
أقمنا بالذوابل سوق حرب — وصيرنا النفوس لها متاعا
حصانى كان دلال المنايا — فخاض غبارها وشرى وباعا
وسيفى كان فى الهيجا طبيبا — يداوى رأس من يشكو الصداعا
ولو أرسلت رمحى مع جبان — لكان بهيبتى يلقى السباعا

﴿ وله أيضا ﴾

أعادى صرف دهر لا يعادى ... وأحتمل القطيعة والبعادا
وأظهر نصح قوم ضيعونى ... وان خانت قلوبهم الودادا
أعلل بالمنى قلبا عليلا ... وبالصبر الجميل وان تمادا
تعيرنى العدا بسواد جلدى ... وبيض خصائلى يمحو السوادا
وردت الحرب والأبطال حولى ... تهز أكفها السمر الصعادا
وخضت بمهجتى بحر المنايا ... ونار الحرب تتقد اتقادا
وعدن مخضبا بدم الأعادى ... وكرب الركض قد خضب الجوادا
وسيفى مرهف الحدين ماض ... تقد شفاره الصخر الجمادا
ورمحى ما طعنت به طعينا ... فعاد بعينه نظر الرشادا
ولولا صارمى وسنان رمحى ... لما رفعت بنو عبس عمادا

﴿ وله أيضا ﴾

حكم سيوفك فى رقاب العذل ... واذا نزلت بدار ذل فارحل
واذا الجبان نهاك يوم كريهة ... خوفا عليك من ازدحام الجحفل
فاعص مقالته ولا تحفل بها ... واقدم اذا حق اللقا فى الأول
واختر لنفسك منزلا تعلو به ... أومت كريما تحت ذل القسطل
ان كنت فى عدد العبيد فهمتى ... فوق الثريا والسماك الأعزل
أوأنكرت فرسان عبس نسبتى ... فسنان رمحى والحسام يقر لى
وبذابلى ومهندى نلت العلى ... لا بالقرابة والعديد الأجزل
ورميت رمحى فى العجاج فخاضه ... والنار تقدح من شفار الأنصل
خاض العجاج محجلا حتى اذا ... شهد الوقيعة عاد غير محجل
ولقد نكبت بنى حريقة نكبة ... لما طعنت صميم قلب الأخيل
وقتلت فارسهم ربيعة عنوة ... والهيذبان وجابر بن مهلهل
لا تسقنى ماء الحياة بذلة ... بل فاسقنى بالعز كأس الحنظل
ماء الحياة بذلة كجهنم ... وجهنم بالعز أطيب منزل

﴿ وقال ابن سناء الملك ﴾

سواى يهاب الموت أو يرهب الردى ... وغيرى يهوى أن يعيش مخلدا

ولكنني لا أرهب الدهر إن سطا ولا أحذر الموت الزؤام اذا عدا
ولو مد نحوي حادث الدهر كفه لحدثت نفسي ان أمد له يدا
توقد عزمي يترك الماء جمرة وحيلة حلمي تترك السيف مبردا
وفرط احتقاري للأنام لانني أرى كل عار من حلى سؤددي سدى
ويأبى اباتى أن يراني قاعدا واني أرى كل البرية مقعدا
وأظمأ ان أبدى لى الماء منة ولو كان لى نهر المجرة موردا
ولو كان ادراك الهدى بتذلل رأيت الهدى أن لا أميل الى الهدى
وقدما بغيري أصبح الدهر أشيبا وبي وبفضلي أصبح الدهر أمردا
وانك عبدي يا زمان وانني على الرغم مني ان أرى لك سيدا
وما أنا راض انني واطئ الثرى ولي همة لا ترتضي الأفق مقعدا
ولو علمت زهر النجوم مكانتي لخرت جميعا نحو وجهي سجدا
أرى الخلق دوني إذ أراني فوقهم ذكاء وعلما واعتلاء وسؤددا
وبذل نوالى زاد حتى لقد غدا من الغيظ منه ساكن البحر مزبدا
ولي قلم في أنملي ان هززته فما ضرني أن لا أهز المهندا
اذا صال فوق الطرس وقع صريره فان صليل المشرفي له صدى

﴿ المهلهل ﴾

انا بني تغلب شم معاطسنا بيض الوجوه اذا ما أفزع البلد
كم قد قتلت بني بكر بسيدنا وليس يوفي كليبا منهم أحد
كم من فتاة كقرن الشمس ناعمة تبكي سراة بني شيبان إذ فقدوا
ما كان جمعهم في عرض سودتنا إذ أقبل الجمع نحو الجمع فاحتشدوا
إلا كمثل ذباب طار معترضا في لهوة الليث فاستولى به الأسد
ما زلت أقتلهم قتلا وآسرهم حتى اشتكت لهم الأحشاء والكبد

وهي قصيدة طويلة وكان المهلهل من أصبح أهل زمانه وجها وأفصحهم لسانا وأرقهم شعرا وكان كثير المحادثة للنساء حتى كان أخوه يسميه زير النساء (١)

فهذا شيء من كثير يدل على شجاعة العرب وحماستهم فمن أراد التوسع فعليه بديوان

---

(١) أي جليسهن

الحماسة وجمهرة العرب لابن دريد ولأبي زيد القرشي والأغاني والمعلقات السبع وديوان الحماسة البصرية وحماسة البحتري وأبي تمام وقد أودعت العرب في شعرها أسرار لغتها وعوائدهم وأخلاقهم وما كان لهم من الحروب والوقائع وقوة الفكر وثبات الجنان والعتاب والزهد وذكر عجائب الكائنات ووصفها وذكر الطلول والمنازل ووصف الظباء والغزلان الى غير ذلك من الأساليب التي لا نهاية لها

الفصل الخامس

في

(أخلاق العرب وادبهم)

قال صلى الله عليه وسلم ان الله تعالى اختار لكم الاسلام دينا
فأكرموه بحسن الخلق والسخاء فانه
لا يكمل الا بهما

ان الخلق هيئة تحدث للنفس الناطقة من جهة انقيادها للبدن اتباعها له واعلم ان حصول الخلق في النفس شيئين أحدهما الطبيعة وهو ان يكون مزاج الشخص يقضي استعداده لحصول ذلك الخلق له وثانيهما العادة ونعني بالعادة تكرر فعل الشيء الواحد مرارا كثيرة زمانا طويلا في أوقات متفاوتة ومتقاربة ويدل على ما ذكرنا ان أصحاب السياسات الجيدة وأفاضل الناس يجعلون أهل المدن اخيارا بما يعودونهم من أفعال الخير وكذلك أصحاب السياسات الرديئة المتقلبون على المدن يجعلون أهاليها أشرارا بما يعودونهم من أفعال الشر

قال بعض العلماء ان سائر الاخلاق طبيعية يمتنع زوالها وحصول اضدادها وقال آخرون ان بعض الاخلاق طبيعية يمتنع زوالها وبعضها مكتسب بحسب أسباب تحصل للشخص في أول الفطرة ثم ترسخ في النفس حتى تبلغ درجة الاخلاق الطبيعية اه

فمن المقرر ان الانسان مستعد من أول الفطرة للاخلاق الجيدة والرذيلة وذلك بحسب الوسط الذي يعيش بين أهله فيه فانه يتطبع بطباع من عاشرهم ويشب عليها فيصبح اذا طبعا

غريزياً له ان كان خيراً فخيراً وان كان شراً فشراً

قال ارسطاطاليس ان الشرير قد ينتقل بالتأديب الى الخير ولكن ليس على الاطلاق لانه يرى ان تكرير المواعظ والتأديب وأخذ الناس بالسياسات الجيدة الفاضلة لا بد أن يؤثر ضروب التأثير في ضروب الناس فمنهم من يقبل التأديب ويتحرك الى الفضيلة بسرعة ومنهم من يقبله ويتحرك الى الفضيلة بابطاء

وقال ابن مسكويه فمن اتفق له في الصبا أن يربى على أداب الشريعة ويؤخذ بوظائفها وشرائطها حتى يتعود ثم ينظر بعد ذلك في كتب الاخلاق حتى تتأكد تلك الآداب والمحاسن ثم ينظر في الحساب والهندسة حتى يتعود صدق القول وصحة البرهان فلا يسكن الا اليهما ثم يتدرج حتى يبلغ الى أقصى مرتبة الانسان فهو السعيد الكامل

كانت العرب في أثناء جاهليتها الاولى اسمى أخلاقاً وأرقى أداباً منا نحن الآن فما يستدل به على عظيم شأنهم وعلو منزلتهم في الاخلاق والآدب نساء ورجالا ما نورده من أشعارهم وحكمهم التي تزينت بها صحف التواريخ وحفظت لهم الذكر الجميل على ممر الايام وكرور الدهور والاعوام وهي عبرة لمعتبر وتفكرة لمتفكر

فمن عرب الجاهلية الاصبع العدواني وهو من قدماء الشعراء في الجاهلية وله غارات كثيرة ووقائع مشهورة وقد أوصى ابنه أسيداً حين حضرته الوفاة فقال له يابني ان أباك قد فني وهو حي وعاش حتى سئم العيش واني موصيك بما ان حفظته بلغت ما بلغته فاحفظ عني

ألن جانبك لقومك يحبوك وتواضع لهم يرفعوك وابسط لهم وجهك يطيعوك ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك واكرم صغارهم كما تكرمك كبارهم بكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم واسمح بمالك وأحم حريمك وأعزز جارك وأعن من استعان بك وأكرم ضيفك وأسرع النهضة في الصريخ فان لك اجلا لا يعدوك وصن وجهك عن مسئلة أحد شيأ فبذلك يتم سؤددك

أأسيداً ان مالا ملكـ	ـت فسر به سيرا جميلا
آخ الكرام ان استطعـ	ـت الى أخائهم سبيلا
واشرب بكاسهم وان	شربوا به السم الثميلا
أهن اللئام ولا تكن	لاخائهم جملا ذلولا
ان الكرام اذا توا	خيهم وجدت لهم قبولا
ودع الذي يعد العشيـ	ـرة أن يسيل ولن يسيلا

(عنترة بن شداد)

اني امرؤ من خير عبس منصبا　　شطرى وأحمى سائرى بالمنصل

ولقد أبيت على الطوى وأظله　　حتى أنال به كريم المأكل

والخيل تعلم والفوارس انني　　فرقت جمعهم بطعنة فيصل

بكرت تخوفنى الحتوف كأنني　　أصبحت عن غرض الحتوف بمعزل

فأجبتها أن المنية منهل　　لابد أن أسقى بذاك المنهل

فأقنى حياءك لا أبالك واعلمى　　انى امرؤ سأموت ان لم أقتل

ولقد لقيت الموت يوم لقيته　　متسربلا والموت لم يتسربل

والخيل ساهمة الوجوه كأنما　　سقيت فوارسها نقيع الحنظل

ان يلحقوا أكرر وان يستلحموا　　أشدد وان نزلوا بضنك أنزل

(عروة الصعاليك جاهلى)

اذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه　　شكا ألم الفراق ولام الصديق فأكثرا

وصار على الأدنين كلا وأوشكت　　قلوب ذوى القربى له أن تنكرا

وماطالب المعروف من حيث يبتغى　　من الناس الا من أبر وشمرا

فسر فى بلاد الله والتمس الغنى　　تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ولا ترض من عيش بدون ولا تنم　　وكيف ينام الليل من كان معسرا

(بعض بنى سليم)

فان تسأليني كيف أنت فانني　　صبور على ريب الزمان صليب

يعز على أن ترى بى كآبة　　فيشمت عاد أو يساء حبيب

قال اعرابى ان الغضب عدو العقل وكفى بالتجارب تأديبا وبالأيام عظة

قال الأصمعى سمعت اعرابيا يقول أسرع الناس جوابا من لم يغضب لا توقد بين جنبيك جمرة الغضب وأرددها ساعته بالحلم فان شجرة النار اذا حت عليها الرياح تحاكت أغصانها فتشتعل نارا وتحترق أصولها

غضب هشام على رجل من أشراف الناس فشتمه فوبخه الرجل فقال له أما تستحى أن تشتمنى وأنت خليفة الله فى أرضه فأطرق هشام واستحيا وقال له اقتص فقال اذا أسفه مثلك فقال خذ من ذلك عوضا المال قال ما كنت لأفعل قال فهبها لله قال هى لله ثم لك فنكس هشام

رأسه وقال والله لا عود لمثلها

قال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ثلاث من اجتمعن فيه فقد سلم من اذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضي لم يدخله رضاه في الباطل واذا قدر عف وكف

ضرب رجل سلم بن نوفل سيد بني كنانة بسيفه فأخذ فأتي به اليه فقال له ما الذي فعلت أما خشيت انتقامي قال فلم عودناك إلا أن تكظم الغيظ وتعفو عن الجاني وتحلم على الجاهل وتحمل المكروه في النفس والمال فخلى سبيله

قال المأمون اني لأجد لعفوي لذة أعظم من لذة الانتقام وأعلم انه اذا عاقب الملك أو أهان على ظن بغير يقين ادخل على نفسه من قبح الخطأ في الرأي أعظم مما أدخل على صاحبه من العقوبة

﴿ ورقة بن نوفل ﴾

هو أحد من اعتزل الأوثان في الجاهلية وطلب الدين وقرأ الكتب ومن شعره

لقد نصحت لأقوام وقلت لهم	أنا النذير فلا يغرركم أحد
لاتعبدون إلها غير خالقكم	فان دعوكم فقولوا بيننا جدد
سبحان ذي العرش سبحانا نعوذ به	وقبل قد سبح الجودي والجمد
مسخر كل ما تحت السماء له	لاينبغي أن يناوي ملكه أحد
لا شئ مما ترى تبقى بشاشته	يبقى الاله ويودي المال والولد
لم تغن عن هرمز يوما خزائنه	والخلد قد حاولت عاد فما خلدوا

﴿ ومن كلامهم في الحكم الاخلاقية ﴾

المنفعة توجب المحبة ـ والمضرة توجب البغضة ـ والمخالفة توجب العداوة ـ والمتابعة توجب الالفة ـ والصدق يوجب الثقة ـ والأمانة توجب الطمأنينة ـ والعدل يوجب اجتماع القلوب ـ والجور يوجب الفرقة ـ وحسن الخلق يوجب المودة ـ وسوء الخلق يوجب المباعدة ـ والانبساط يوجب المؤانسة ـ والانقباض يوجب الوحشة ـ والكبر يوجب المقت ـ والتواضع يوجب المقه ـ والجود يوجب الحمد ـ والبخل يوجب المذمة ـ والتواني يوجب التضييع ـ والجد يوجب رجاء الأعمال ـ والهوينى توجب الحسرة ـ والحزم يوجب السرور ـ والتغرير يوجب الندامة ـ والحذر

يوجب الغدر ـ واصابة التدبير توجب بقاء النعمة ـ وبالتأني تسهل المطالب ـ وبسعة خلق المرء يطيب عيشه ـ والاستهانة توجب التباعد ـ وبصالح الأخلاق تزكو الأعمال ـ وبالرفق والتؤدة تستحق الكرم ـ واعلم أن السياسة تكسوا أهلها المحبة ـ والفظاظة تخلع عن صاحبها ثوب القبول ـ ومن صغر الهمة الحسد للصديق على النعمة ـ والنظر فى العواقب نجاة ـ ومن لم يحلم ندم ـ ومن صبر غنم ـ ومن سكت سلم ـ ومن خاف حذر ـ ومن اعتبر بصر ـ ومن أبصر فهم ـ ومن فهم علم ـ ومن أضاع هواه ضل ـ ومع العجلة الندامة ـ وفى التأنى السلامة ـ اذا جهلت فاسأل ـ واذا زللت فارجع ـ واذا أعطيت فاجزل ـ المروآت كلها تبع العقل ـ الرأى تبع التجربة ـ العقل أصله التثبت وثمرته السلامة ـ والتوفيق أصله العقل وثمرته النجاح ـ المعروف كنز ـ والجهل سفه ـ والأيام دول ـ والدهر غير ـ والمرء منسوب الى فعله ـ ومأخوذ بعمله ـ اكرموا الجليس يعمر ناديكم ـ انصفوا من نفوسكم يوثق بكم ـ إياكم والأخلاق الدنيئة فانها تضيع الشرف وتهدم المجد ـ من فسدت بطانته كان كمن غص بالماء ـ أفضل من السؤال ركوب الأهوال ـ العدم من احتاج الى لئيم ـ من لم يعتبر فقد خسر ـ ما كل عثرة تقال ـ ولا كل فرصة تنال ـ لا وفاء لمن ليس عنده حياء ـ عليك بالمجاملة لمن لا تدوم له مواصلة ـ أفضل الفعال صيانة العرض بالمال ـ اذا أردت طرد الحر فسمه الهوان ـ الرياء يفسد العلانية ـ صاحب المعروف لا يقع فان وقع وجد متكأ ـ العصب على من لا تملك عجز ـ وعلى من تملك لؤم ـ وأجمعت حكماء العرب والعجم على أربع كلمات ـ لا تحمل بطنك مالا تطيق ـ ولا تعمل عملا لا ينفعك ـ ولا تغتر بامرأة ـ ولا تثق بمال وان كثر ـ من أمن الزمن خانه ـ ومن تعذر عليه هانه ـ كما يجب أن تكون المرآة أضوأ من الناظر فيها فكذلك يجب أن يكون المؤدب أفضل ممن يؤدب ـ من كانت الدنيا سبب صلته فانها سبب قطيعته فاحذر أن تجعلها وسيطة بين أحد ـ اذا أردت أن تطاع فسل ما يستطاع ـ ان يكن الشغل مجهدة فالفراغ مفسدة ـ بعض القتل احياء للجميع ـ ان كنت كذوبا فكن ذكورا ـ اذا طاعت من دونك فلا تأمن عذاب من فوقك ـ رب ضنك أفضى الى ساحة وتعب الى راحة ـ رب مستعجل لأذية ومستقبل لمنية ـ سوء الخلق يعدى ـ طول التجارب زيادة فى العقل ـ فى سعة الأخلاق كنوز الأرزاق ـ كل آت قريب ـ العبادة تميت الشهوة ـ عدو عاقل خير من صديق جاهل ـ سلطان بلا عدل كنهر بلا ماء ـ لا تطمع فى كل ما تسمع ـ ما أشبه الليلة بالبارحة ـ من محضك موده فقد خولك مهجته ـ

من طلب شيا وجدّ وجد - الوقت كالسيف ان لم تقطعه قطعك - من استحسن قبيحا فقد عمله - من أفشى سره كثر المتآمرون عليه - من أعجب برأيه ضن - من سابق الدهر عثر - من غلب هواه على عقله هلك

ولهم من الأشعار في الحكم مالا يمكن حصره نأتي على بعض منه اتماما للفائدة وعظة للقارئ

عبد القيس بن خفاجة البرجمي

أبى أن أباك كارب يومه — فاذا دعيت الى المكارم فاعجل
أوصيك ايصاء امرئ لك ناصح — طبن بريب الدهر غير مغفل
الله فاتقه وأوف بنذره — واذا حلفت ممارياً فتحلل
والضيف أكرمه فان مبيته — حق ولا تك لعنة للنزّل
واعلم بأن الضيف مخبر أهله — بمبيت ليلته وان لم يسأل
ودع القوارص للصديق وغيره — كيلا يروك من اللئام العذل
وصل المواصل ما صفا لك وده — واجذذ حبال الخائن المتبدّل
واحذر محل السوء لاتحلل به — واذا نبا بك منزل فتحوّل
واستأن تظفر في أمورك كلها — واذا عزمت على الهدى فتوكل
واستغن ما أغناك ربك بالغنى — واذا تصبك خصاصة فتحمل
واذا افتقرت فلاتكن متخشعا — ترجو المواضل عند غير المفضل
واذا تشاجر في فؤادك مرة — أمران فاعمد للأعف الأجمل
واذا هممت بأمر سوء فاتئد — واذا هممت بأمر خير فاعجل

عبدة بن أبي الطيب

ابني اني قد كبرت ورابني — بصري وفيَّ لمنظر مستمتع
أوصيكم بتقى الاله فانه — يعطي الرغائب من يشاء ويمنع
وبر والدكم وطاعة أمره — ان الابر من البنين الاطوع
ان الكبير اذا عصاه أهله — ضاقت يداه بأمره ما يصنع
ودعوا الضغائن لاتكن من شأنكم — ان الضغائن للقرابة توضع
يزجي عقاربه ليبعث بينكم — حربا كما بعث العروق الاخدع

ان الذين ترونهم اخوانكم … يشفى غليل صدورهم أن تصرعوا
واذا مضيت الى سبيلى فابعثوا … رجلاله قلب حـديد أصمع
ان الحوادث تختر من وانما … عمر الفتى فى أهـله مستودع
يسعى ويجمع جاهـدا مستهترا … جـدا وليس بآكل مايجمع

﴿عبيد بن الابرص الاسدى﴾

ولم أبتغى ود امرىء قل خيره … وماأناعن وصل الصديق بأصيد
وانى لأطفى الحرب بعدشبوبها … وقدأوقدت للغى فى كل موقـد
وانى لذو رأى يعاش بفضله … وماأنا من عـلم الامور بمبتدى
اذا أنت حملت الخؤون أمانة … فانك قـد أسندتها شر مسند
وجدت خؤون القوم كالعر يتقى … وما خلت عم الجار الا بمعهد
ولاتظهرن ود امرىءقبل خبره … وبعـد بلاء المرء فاذم أوأحمـد
ولا تتبعن الرأى منـه تقصه … ولـكن برأى المرءدى اللب فاقتد
ولاتزهدن فى وصل أهل قرابة … لذخر وفى وصل الاباعد فازهـد
وان أنت فى مجـد أصبت غنيمة … فعدللذى صادفت من ذاك وازدد
تزود من الدنيا متاعا فانه … على كل حال خـير زاد المزود
تمنى امرىءالقيس موتى وان أمت … فتلك سبيل لست فيها بأوحـد
لعل الذى يرجو رداى وميتتى … سفاهاوجبنا أن يكون هوالردى
فـاعيش من يرجى خلافى بضائرى … ولاموت من قدمات قبلى بمخلدى
وللمرء أيام تعد وقـد دعت … حبال المنايا للفتى كل مرصـد
فمن لم يمت فى اليوم لابدأنه … سيعلقه حبل المنية فى غـد
فقل للذى يبغى خلاف الذى مضى … تهيأ لاخرى مثلها فـكأن قـد

﴿حسام الدين الواعظ﴾

من ضيع الحزم من أفعاله ندما … وظل مكتئبا والقلب قـد سقما
ما المرء الا الذى طابت فضائله … والدين زين يزين العاقـل الفهما
والعـلم أنفس شئ أنت ذاخره … فلاتـكن جاهلاتستو رث الندما
تعلم العـلم واجلس فى مجالسه … ماخاب قط لبيب جالس العلما

والوالدين فأكرم تنج من ضرر ولاتكن نكرا تستوجب النقما
ولازم الصمت لاتنطق بفاحشة وأكرم الجار لاتهتك له حرما
واحذر من المزح كم في المزح من خطر كم من صديقين بعد المزح فاختصما
وصبر النفس وارشدها اذا جهلت وان حضرت طعاما لاتكن نهما
آسي اللهيف اذا ما كنت مقتدرا على الزمان وكن للخير مقتسما
وصن نفسك عن لهو وعن مرح وان حضرت مقاما كنت فيه سما

﴿ ولبعضهم ﴾

اذا شئت ان تزداد قدرا ورفعة فلن وتواضع واترك الكبر والعجب

﴿ وكتب الامام على رضى الله عنه ينصح ابنه الحسن ﴾

يابنى اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك — وأحب لغيرك ماتحب لنفسك — واكره له ماتكره لها — ولاتظلم كما لاتحب أن تظلم — وأحسن كما تحب أن يحسن اليك — واستقبح من نفسك ماتستقبح من غيرك — وأرض من الناس ماترضاه لهم من نفسك — ولا تقل مالاتعلم وقل ماتعلم ولاتقل مالاتحب أن يقال لك — ولاتكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرا — واعلم ان حفظ مافى يديك أحب الى من طلب مافى يد غيرك — ولاتأكل من طعام ليس فيه حق فبئس الطعام الحرام — وجد فى الحصول على معاشك واياك والاتكال على المنى فانها بضائع الموتى

﴿ وصايته لأولاده ﴾

يابنى عاشروا الناس ان غبتم حنوا اليكم وان فقدتم بكوا عليكم يابنى ان القلوب جنود مجندة تتلاحظ بالمودة وتتناجى بها وكذلك هى البغض فاذا أحببتم الرجل من غير خير سبق منه اليكم فارجوه واذا أبغضتم الرجل من غير سوء سبق منه اليكم فاحذروه

﴿ ومن حكمه رضى الله عنه ﴾

الآداب حلل مجددة والفكر مرآة صافية — اذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره واذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه

الفصل السادس

في

خطباء العرب وطرفا من خطبهم

اشتهر العرب بالخطابة في الجاهلية والاسلام وقد أودعوا خطبهم كثيرا من الفصاحة والبلاغة والمواعظ وكانوا لا يخطبون إلا على أثر حادث أو لاستلفات نظر أو لتنبيه فكر واليك طرفا من خطبهم بعد خطبة خير الخلق وخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم الذي افتتحنا بها هذا الباب تيمنا به وتفضيلا له وتعظيما القدره وهي

أيها الناس ان لكم معالم فانتهوا الى معالمكم - وان لكم نهاية فانتهوا الى نهايتكم - ان المؤمن بين مخافتين - بين عاجل قد مضى لا يدري ما الله صانع به - و بين آجل قد بقي لا يدري ما الله قاض به - فليأخذ العبد من نفسه لنفسه - ومن دنياه لآخرته - ومن الشبيبة قبل الكبر - ومن الحياة قبل الموت - فوالذي نفس محمد بيده ما بعد الموت من مستعتب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار

وقال صلى الله عليه وسلم

أوصاني ربي بتسع أوصيكم بها - أوصاني بالاخلاص في السر والعلانية - والعدل في الرضا والغضب - والقصد في الغنى والفقر - وأن أعفو عمن ظلمني - وأعطي من حرمني وأصل من قطعني - وأن يكون صمتي فكرا - ونطقي ذكرا - ونظري عبرا

وله صلى الله عليه وسلم

نهيتكم عن قيل وقال واضاعة المال وكثرة السؤال فلا تقعدوا على ظهور الطرق فان أبيتم فغضوا الأبصار وأفشوا السلام واهدوا الضال وأعينوا الضعيف

فمن خطباء العرب المشهورين قس بن ساعدة الايادي فهو أشهر الخطباء ذكرا وأرفعهم قدرا ولم يكن على دين من الأديان المشهورة وكان ممن كانوا على التوحيد من العرب وكفى له بذلك فخرا ولقومه على مدى الأيام حيث يقول صلى الله عليه وسلم يرحم الله قسا اني لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده - وهو أول من علا على شرف وخطب وأول من قال في كلامه أما بعد ومن خطبه الخطبة الآتية

أيها الناس اسمعوا وعوا — من عاش مات — ومن مات فات — وكل ماهو آت آت — ليل داج — وسماء ذات أبراج — بحار تزخر — ونجوم تزهر — وضوء وظلام — وبر وآثام ومطعم ومشرب — وملبس ومركب — مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون — ارضوا بالمقام فأقاموا — أم تركوا فناموا — وإله قس بن ساعدة ما على وجه الأرض دين — أفضل من دين قد أظلكم زمانه — وأدرككم أوانه — فطوبى لمن أدركه فاتبعه — وويل لمن خالفه — ثم أنشأ يقول

فى الذاهبين الأولين	ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا	للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومى نحوها	تمضى الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضى الى	ى ولا من الباقين غابر
أيقنت أنى لا محا	لة حيث صار القوم صائر

﴿ ومنهم كعب بن لؤى جد النبى صلى الله عليه وسلم ومن خطبه ﴾

اسمعوا وعوا — وتعلموا تعلموا — وتفهموا تفهموا — ليل ساج — ونهار صاح — والأرض مهاد — والجبال أوتاد — والأولون كالآخرين — كل ذلك الى البلاء — فصلوا أرحامكم — واصلحوا أموالكم — فهل رأيتم من هالك رجع — أو ميتا نشر — الدار امامكم — والظن خلاف مايقولون — زينوا حرمكم وعظموه — وتمسكوا به ولا تفارقوه فسيأتى له نبأ عظيم — وسيخرج منه نبى كريم — ثم قال

نهار وليل واختلاف حوادث	سواء علينا حلوها ومريرها
يؤوبان بالاحداث حتى تأوبا	وبالنعم الضافى علينا ستورها
صروف وأنباء تقلب أهلها	لها عقد ما يستحيل مريرها
على غفلة يأتى النبى محمد	فيخبر أخبارا صدوقا خبيرها

ومنهم سحبان وائل الباهلى قد أدرك الاسلام وأسلم قال الأصمعى انه اذا خطب يسيل عرقا ولا يعيد كلمة ولا يتوقف ولا يقعد حتى يفرغ وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم سعيد بن عثمان فطلب سحبان فأتى به فقال تكلم فقال انظروا الى عصا تقوم من أودى فقالوا وماتصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين قال ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه فى يده فضحك معاوية وأمر له بعصا فأخذها ثم قام وخطب من صلاة الظهر الى وقت

العصر وماتنحنح ولاسعل ولاتوقف ولا ابتدأ في معنى نخرج منه وقد بقي عليه شيء فاز الث ثلاث حالته حتى أشار معاوية بيده وأشار اليه سحبان وائل أن لاتقطع علىّ كلامي فقال معاوية الصلاة فقال هي امامك ونحن في صلاة وتحميد وعدو وعيد فقال معاوية أنت أخطب العرب فقال سحبان والعجم والانس والجن

ومنهم خالد بن عبد الله أمير البصرة — أيها الناس نافسوا في المكارم وسارعوا الى المغانم واشتروا الحمد بالجود ولاتكسبوا بالمطل ذما ولاتعتدوا بالمعروف مالم تعجلوه ومهما يكن لأحد منكم عند أحد نعمة لم يبلغ شكرها فالله أحسن لها جزاء وأجزل عليها عطاء واعلموا أن حوائج الناس اليكم نعمة من الله عليكم فلاتملوا النعم فتحولوها نقما واعلموا ان أفضل المال ما أكسب أجرا وأورث ذكرا ولو رأيتم المعروف رجلا رأيتموه حسنا جميلا يسر الناظرين ولو رأيتم البخل رجلا رأيتموه مشوّها قبيحا تنفر عنه القلوب وتغض عنه الأبصار

أيها الناس أجود الناس من أعطى من لايرجوه وأعظم الناس عفوا من عفا عن قدرة وأوصل الناس من وصل من قطعه ومن لم يطب حرثه لم يزك نبته والاصول عن مغارسها تنمو وبأصولها تسمو أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

ومن خطب النبي صلى الله عليه وسلم — أيها الناس كأن الموت فيها على غيرنا قد كتب وكأن الحق فيها على غيرنا قد وجب — وكأن الذي نشيع من الاموات سفر عما قليل الينا راجعون نبوّئهم أجداثهم ونأكل من تراثهم كأنا مخلدون بعدهم ونسينا كل واعظة وأمنا كل جائحة طوبى لمن شغله عيبه عن عيوب الناس طوبى لمن أنفق مالا اكتسبه من غير معصية وجالس أهل الفقه والحكمة وخالط أهل الدل والمسكنة طوبى لمن ذلت وحسنت خليقته وطابت سريرته وعزل عن الناس شره طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله ووسعته السنة ولم تستهوه البدعة

وخطب أبو بكر بن عبد الله أمير المدينة المنوّرة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام والتحية والاكرام وقد بلغه عن قوم من أهل المدينة انهم ينالون من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ويسعفهم آخرون على ذلك

أيها الناس انى قائل قولا فمن وعاه وأداه فعلى الله جزاؤه ومن لم يعه فلايعدمن ذمامها ان قصرتم عن تفصيله فلن تعجزوا عن تحصيله فارعوه أبصاركم واوعوه أسماعكم وأشعروه قلوبكم فالموعظة حياة والمؤمنون اخوة وعلى الله قصد السبيل ولوشاء

لهدا كم أجمعين فأتوا الهدى تهتدوا واجتنبوا الغي ترشدوا وأنيبوا الى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون والله جل جلاله وتقدست أسماؤه أمركم بالجماعة ورضيها لكم ونهاكم عن الفرقة وسخطها منكم فاتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها جعلنا الله واياكم ممن يتبع رضوانه ويجتنب سخطه فانما نحن به وله وان الله بعث محمدا صلى الله عليه وسلم بالدين واختاره على العالمين واختار له أصحابا على الحق وزراء دون الخلق اختصهم به وانتخبهم له فصدقوه ونصروه وعزروه ووقروه فلم يقدموا الا بأمره ولم يحجموا الا عن رأيه وكانوا أعوانه بعهده وخلفاء من بعده فوصفهم فأحسن وصفهم وذكرهم فأثنى عليهم فقال وقوله الحق محمد رسول الله والذين آمنوا معه أشداء على الكفار الى قوله مغفرة وأجرا عظيما فمن غاظوه كفر وخاب وفجر وخسر وقال الله عزوجل للفقراء والمهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا الى قوله ربنا إنك رؤف رحيم فمن خالف شريطة الله عليه لهم وأمره اياه فيهم فلا حق له في الفيء ولا سهم له في الاسلام في آي كثير من القرآن فمرق مارقة من الدين وفارقوا المسلمين وجعلوهم عضين وحزبوا أحزابا اشابات وأوشابا فخالفوا كتاب الله فيهم فخابوا وخسروا الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم مالي أرى عيونا خزرا ورقابا صعرا وبطونا بجرى شجى لا يسيغه الماء وداء لا يشرب فيه الدواء أفنضرب عنكم الذكر صفحا اذ كنتم قوما مسرفين كلا والله بل هو الهناء والطلاء حتى يظهر العذر ويبوح السر ويتضح العيب ويشوس الحبيب فانكم تحلقوا عبثا ولم تتركوا سدى ويحكم اني لست أناويا أحلم ولا بدويا أفهم قد حلبتكم أشطرا وقلبتكم أبطنا وأظهرا فعرفت أنحاءكم وأهواءكم وعلمت أن قوما أظهروا الاسلام بألسنتهم وأسروا الكفر في قلوبهم فضربوا بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض وولدوا الروايات فيهم وضربوا الامثال ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعوانا يأذنون لهم ويصغون اليهم مهلا مهلا قبل وقوع القوارع وطول الروائع هذا لهذا ومع هذا فلست أعيش آسيا ولا نائيا عفا الله عما سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيز ذو انتقام فأسروا خيرا وأظهروه وأجهروا به وأخلصوه وطالما مشيتم القهقرى ناكصين وليعلم من أدبر وأصر

أنها موعظة بين يدي نقمة ولست ادعوكم الى هوى يتبع ولا الى رأي يبتدع انما أدعوكم الى الطريقة المثلى التي فيها خير الآخرة والأولى فمن أجاب فالى رشده ومن عمي فعن قصده فهلم الى الشرائع الجدائع ولا تولوا عن سبيل المؤمنين ولا تستبدلوا الذى هو أدنى بالذى هو خير بئس للظالمين بدلا اياكم وبينات الطريق فعندها الترنيق والترهيق وعليكم بالجادة فهى أسدّ وأورد ودعوا الاماني فقد أودت من كان قبلكم وأن ليس للانسان الا ماسعى ولله الآخرة والأولى ولا تفتروا على الله الكذب فيسحتكم بعذابه وقد خاب من افترى ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب

ومن خطب الحسن بن علي رضي الله عنه - اعلموا أن الحلم زين والوقار مودة والصلة نعمة والاكبار حلف والعجلة سفه والسفه ضعف والقلق ورطة ومجالسة أهل الدناءة شين ومخالطة أهل الفسوق ريبة

ومنهم يزيد بن المهلب فانه كان أبلغ الخطباء والفصحاء فمن ذلك ما أوصى به ابنه حين استخلفه على جرجان وهو قوله يابني اني قد استخلفتك على هذه البلاد فانظر هذا الحي من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر

اذا كنت مرتاد الرجال لنفعهم فرش واصطنع عند الذين بهم ترمى

وانظر هذا الحي من ربيعة فانهم شيعتك وأنصارك فاقض حقوقهم وانظر هذا الحي من تميم فأمطرهم ولا تزدلهم ولا تدنهم فيطمعوا ولا تنقصهم فيقطعوا وانظر هذا الحي من قيس فانهم أكفاء قومك في الجاهلية ومساعفوهم المنابر في الاسلام ورضاهم منك البشر

يابني ان لأبيك صنائع فلا تفسدها فانه كفى بالمرء نقصا أن يهدم مابنى أبوه واياك والدماء فانه لاتقية معها واياك وشتم الأعراض فان الحر لا يرضيه عن عرضه عوض واياك وضرب الابشار فانه عار باق ووتر مطلوب واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى ولا تعزل عن عجز أو خيانة ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك اليه فانك انما تصطنع الرجال لفضلها وليكن صنيعك عند من يكافيك عنه العشائر احمل الناس على حسن أدبك يكفوك أنفسهم واذا كتبت كتابا فأكثر النظر فيه وليكن رسولك فيما بيني وبينك من يفقه عني وعنك فان كتاب الرجل موضع عقله ورسوله موضع سره وأستودعك الله فلابد للمودع أن يسكت وللمشيع أن يرجع وماعف من المنطق وأقل من الخطيئة أحب الى أبيك

وخطب عبد الملك لما دخل الكوفة بعد أن قتل مصعبا ابن الزبير فقال

أيها النـاس ان الحرب صعبة مرة وأن السلم أمن ومسرة وقد زبنتنا الحرب و زبناها فعرفناها وألفناها فنحن بنوها وهي أمنا

أيهـا النـاس فاسـتقيموا على سبيل الهدى ودعوا الاهواء المردية وتجنبوا فراق جماعة المسلمين ولا تـكلفونا أعمال المهاجرين الأولين وأنتم لا تعلمون أعمالكم ولا أظنكم تزدادون بعـد الموعظة الا شرا ولن تزداد بعد الاعذار اليكم والحجـة عليكم الا عقوبة فمن شاء منكم أن يعود لمثلها فليعد وانما مثلي ومثلكم كما قال قيس بن رفاعة

أنا النذير لـكم مني مجاهرة   كي لا ألام على نهي ولا انذار

فان عصيتم مقالي اليوم فاعـترفوا   ان سوف تلقون خزيا ظاهر العار

لترجعن أحاديثـا ملفقة   عند المقيم وعنـد المدلج السارى

من كان في نفسه حوجاء يطلبها   عنـدي فاني له رهن بأصحارى

أقيم عوجيه ان كان ذا عوج   كما يقوم قـدح النبعـة البارى

وصاحب الوتر عندي ليس مدركه   عنـدي واني لدراك لأوتار

ومنهم ابن زيد الحيرى و زهير وأكثم بن صيفي التميمي وغيرهم كثيرون ولمروان بن عبد العزيز وسليمان بن عبد الملك من خلفاء بني أمية وأبي جعفر المنصور وهارون الرشيد وابنـه المأمون من خلفاء بني العباس وغـيرهم من خلفاء الدولتين وأمرائهم خطبا فائقـة و بلاغات معجبة رائقة يضيق هـذا الـكتاب عن ايرادها وقد أوردنا من ذلك ما فيه كفاية اللبيب ومقنع للاديب ومن أراد التوسع في ذلك فعليه بمراجعة نهج البلاغة للامام علي كرم الله وجهه وكتاب الأعلام عن الحروب الواقعـة في صدر الاسلام للسياسي وكتاب الامامـة والسياسة لابن قتيبة وتاريخ الطبري وكتب السير

وكانت نساؤهم لا تقل عن الرجال في العلم والمعرفـة والفقه والادب شيأ ولنذكر بعضا من نوادرهن وطرف من ملحهن اتماما للفائدة واظهارا لفضلهن على غـيرهن من أبناء جنسهن

الفصل السابع

في

﴿ أخلاق نساء العرب وآدابهن وفصاحتهن ﴾

كانت النسوة العربيات في الجاهلية والاسلام يعادلن رجالهن في الفصاحة والكرم والشجاعة ولهن من الحرية ماليس لغيرهن من أبناء جنسهن وعلى عكس ماتظنه أهالي أوروبا من انهن اسيرات لازواجهن مستعبدات لهم

لعبت نساء العرب دوراً مهماً في كلا العصرين فقد كن يرافقن الرجال الى ساحة القتال ويعالجن الجرحى ويداوين المرضى ويشجعن الرجال على اقتحام الخطوب وخوض بحار المنايا والجولان في ميادين الحروب - فقد حكى عن الخنساء بنت عمر والسلمية انها حضرت حرب القادسية ومعها بنوها أربعة رجال فقالت لهم من أول الليل يابني والله الذي لا إله غيره انكم لبنو رجل واحد انكم بنو امرأة واحدة ماخنت أباكم ولا فضحت خالكم ولا هجنت حسبكم ولا غيرت نسبكم وأنتم تعلمون قول الله تعالى يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون - فاذا أصبحتم ان شاء الله تعالى فأغدوا الى قتال عدوكم مستبصرين وبالله على أعدائكم مستنصرين فاذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها وأضرمت لظى على سياقها فتيمموا وطيسها وجالدوا رسيها عند اخترام خميسها تظفروا بالغنى والكرامة في دار الخلد والمقامة فلما أضاء لهم الصبح باكروا مراكزهم وشنوا الأغارة وقاتلوا حتى استشهدوا جميعاً فبلغها الخبر فقالت الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته فكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يعطي لها أرزاق أولادها الاربعة لكل واحد منهم مايتادرهم

بلغت النساء في العصور الماضية من الرقي في الآداب والاخلاق والعلوم والمعارف ما يجعلنا نعترف بانحطاط المرأة في هذا الزمن فقد كانت المرأة العربية تعرف مايعرفه الرجل من العلوم كالطب والجراحة والحديث والفقه واني لاذكر لك على سبيل العلم بعض أسماء النساء اللواتي جاءت أخبارهن في صحف التاريخ تنبيها للعاقل وتذكيرا للغافل وردا على من قال بعدم وجوب تعليم المرأة للمقارنة بينها في الزمن الحاضر وبين أختها في الزمن

الغارف فكان فى أزواجه صلى الله عليه وسلم من يكتب ويقرأ كحفصة بنت عمر وعائشة بنت أبى بكر رضى الله عنهم وغيرهم من نساء كل زمان ومكان

فتعليم البنات والصبيان مع بعضهما فى حال الصغر القراءة والكتابة والحساب ونحو ذلك مما يزيدهن أدبا وعقلا ويجعلهن بالمعارف أهلا ويصلحن به لمشاركة الرجال فى الكلام والرأى فيعظمن فى قلوبهم ويعظم مقامهن لزوال مافى هن من سخافة العقل والطيش

فى الامر اء فيه ان حصول النساء على ملكة القراءة والكتابة وعلى التخلق بالاخلاق الجيدة والاطلاع على المعارف المفيدة هو أجمل صفات الجمال فالادب للمرأة يغنى عن الجمال ولكن الجمال لايغنى عن الأدب لانه عرض زائل فأدب المرأة ومعارفها تؤثر فى أخلاق أولادها وقد قضت التجربة فى كثير من الأزمان ان نفع تعليم البنات أكثر من ضرره بل لاضرر فيه كان فى النساء من يعلم القراءة والكتابة فى الزمن الاول للنساء وللرجال أيضا كمية الكاتبة جارية خلافة أم ولد المعتضد فانها كانت عالمة تفتى فى الفقه وأم سلمى فاطمة بنت أبى بكر بن عبد الله وخديجة بنت أبى بكر محمد أحمد أبى الثلج فانها روت عن أبيها وكتب عنها محمد بن جعفر كتاب الجمل وأم الواحد كانت عالمة فاضلة من أحفظ الناس للفقه على مذهب الشافعى وحفظت القرآن وغير ذلك من العلوم وكانت فاضلة فى نفسها وحدثت بالحديث وكتب عنها وتوفيت فى شهر رمضان سنة ٣٠٧ وزبيدة زوجة هارون الرشيد فانها كانت عالمة وقد حدث عنها أحمد بن حنبل كما حدث عن أم عمر وبنت حسان ابن زيد الثقفى وكريمة بنت محمد بن حاتم المروزية جاورت بمكة المكرمة وروت صحيح البخارى عن الكشميهنى وروايتها أصح من روايات البخارى وروت عن زاهر السرخسى وكانت تضبط كتابها وتقابل بنسخها وهى فى الفهم والنباهة وحدة الذهن بحيث ترحل اليها أفاضل العلماء وتوفيت عام أربعمائة وثلاثة وستين وبلغ عمرها مائة سنة ولم تتزوج قط

تقية بنت أبى الفرج ذكرها الحافظ السلفى فى تعليقه وأثنى عليها وتلقت العلم عنه بثغر الاسكندرية وفاقت الرجال فيه ولها زيادة على ذلك الباع الأطول فى الشعر والأدب ومن لطائف أدبها مع الحافظ المذكور انه كان مارا بمنزله فعثر فجرح باطن قدمه فقطعت جارية من الدار قطعة من خمارها وعصبت قدمه بها فأنشأت تقول

لو وجدت السبيل جدت بخدى ... عوضا عن خمار تلك الوليده

كيف لى ان أقبل اليوم رجلا ... سلكت دهرها الطريق الحميده

ومن غرائبها في الأدب انها مدحت الملك المظفر ابن أخي السلطان صلاح الدين بقصيدة خمرية فقال ممازحاً أتعرف الشيخة هذه الاحوال من صباها فبلغها ذلك فنظمت قصيدة أخرى حربية وصفت فيها الحرب وما يتعلق بها أحسن وصف وبعثتها اليه وقالت علمي بهذا كعلمي بذاك

زينب بنت أبي القاسم — كانت فاضلة عالمة أدركت جماعة من أعيان العلماء وأخذت عنهم وأجازها العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري مؤلف الكشاف وممن أجازتهم من أكابر العلماء المؤرخ شهاب الدين قاضي القضاة ابن خلكان صاحب التاريخ المشهور

عائشة بنت محمد بن عبد الهادي بن عبد الحميد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد قدامة المقدسي الصالحية الحنبلية سيدة المحدثين بدمشق سمعت صحيح البخاري على حافظ العصر المعروف بالحجار وروى عنها الحافظ ابن حجر وقرأ عليها كتبا عديدة وانفردت في آخر عمرها بعلم الحديث وكانت سهلة في تعليم العلوم لينة الجانب للمتعلمين توفيت بدمشق سنة ٨١٦ ودفنت بالصالحية

فكان نبغ فيهن عالمات نبغ منهن ملكات تولين الملك وسرن به السير الجميل حتى فضلت مدة حكمهن على غيرهن من الرجال فمن اشتهر وا بذلك الملكة ضيفة خاتون صاحبة حلب والدة الملك العزيز وبنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب ملكت حلب بعد وفاة ابنها الملك العزيز وتصرفت في الملك تصرف السلاطين وقامت به أحسن قيام وكانت مدة حكمها ستة سنوات والصاحبة غازية بنت السلطان الملك العادل محمد بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ووالدة الملك المنصور صاحب حماة كانت من أحسن النساء سيرة وزهدا وعبادة وحفظت الملك لولدها المنصور حتى كبر وسلمته اليه

والزباء وهي نائلة بنت عمرو فانها عادلت ملوك العرب في شدة البأس وشن الغارة ملكت بعد أبيها على الجزيرة وأعالي الفرات ومشارق الشام وبنت على الفرات مدينتين متقابلتين وقتلت جذيمة الأبرش بثار أبيها

بلغت نساء العرب في زمانهن مالا يبلغه غيرهن ممن يأتون بعدهن إلا اذا ساروا على سننهن واتبعوا طريقهن وتحلوا بالحياء والأدب والعفة التي بلغت منتهاها عندهن فمن اشتهر وا بالعفة والآداب

الحرقة بنت النعمان بن المنذر — بعقلها وذكائها وما فيها من الحياء والعفة رق لها قلب خصمها كان في حقها بمتكبر ولا متجبر وبيان ذلك انه لما افتتح سعد بن أبي وقاص

القادسية قيل ان الحرقة بنت النعمان بن المنذر حضرت ومعها جاريتان لها في مثل زيها فلما وقفن بين يديه قال أيتكن الحرقة بنت النعمان قالت أنا قال أنت قالت نعم كأن الدنيا لا تدوم على حال فانها سريعة الانتقال تتنقل بأهلها انتقالا وتعقبهم بعد حال حالا إنا كنا ملوك هذا المصر يجبى الينا بخراجه حتى تشتت الأمر وصاح بنا الدهر فشق عصانا وشتت ملأنا وكذلك الدهر يعثر بالأحرار ويكب على ذوي الأخطار فقال لها سعيد خبريني عن حالكم كيف كان قالت أطيل أم أقصر فقال اقصرى فقالت أمسينا وليس أحد من العرب إلا وهو يرغب الينا أو يرهب منا وأصبحنا وليس أحد من العرب إلا ونحن نرغب اليه أو نرهب منه ثم أنشأت تقول

فبينا نسوس الناس والأمر أمرنا   إذ نحن فيه سوقة نتعفف

فأف لدنيا لا يدوم نعيمها   تقلب تارات بنا وتصرف

فاستحسن سعد كلامها وأكثر إكرامها فلما أرادت الانصراف قال لها سلي حاجتك قالت خرابة أعمرها وأعيش بانتفاعها فقال لعماله اطلبوا في الولاية خرابا فطلبوا فلم يجدوا فقال لها سعيد لم نجد في الولاية خربة فاختاري معمورة فقالت الحمد لله على أياديه حيث وفق آبائي للعدل حتى عمروا الدنيا بعدلهم وسلموها الى غيرهم معمورة فاجتهد أيها الأمير في تسليمها الى غيرك أن تكون عامرة كما أخذتها وتستحق رحمة الخالق ومحمدة الخلق وإياك أن تسعى في خراب وأما أنا فبعد اليوم لا أرجو سرورا ولا تمتد عيني الى زهرة الدنيا ثم دعت له فقالت لا جعل الله لك الى لئيم حاجة ولا زالت لكريم عندك حاجة مقضية أبدا وشكرت يدا افتقرت بعد غنى ولا نابتك يد استغنت بعد فقر ولا أزال الله عن قوم كرام نعمة إلا وجعلك سببا لردها

﴿ ليلى بنت لكيز جاهلية ﴾

قد بلغت منها العفة مبلغا عظيما فقد سبيت الى بلاد العجم واستعملوا معها كل قساوية بربرية للوصول الى قضاء وطرهم منها فكانت تمتنع عن اجابة طلبهم حتى انهم تحايلوا عليها كثيرا وأظهروا لها من نفائس الجوهرات والملبوس ما يجعل النفس تميل اليه فكانت تزداد تمسكا بعفتها حتى ان ربيع الايادي قال لزوجته عندما خاطبته في شأنها ان لم تفعل ما تؤمر به من الملك لأعذبنها عذابا شديدا ثم قام اليها وعدها ويهددها ويرغبها في الملك ويشوقها الى نعيمه وزخرفه اذا فعلت ما تؤمر به فلما أكثر عليها أنشأت تقول

ياصاحب القصر لا حييت من رجل   لقد عممت بما تفتال بالغيل

اصبر ستجزى الذى سلفت فى عجل   بما فعلت بلا ريب ولا مهل
من مخبرى لى برّاقا واخوته   أسد العرين أولى الغارات بالأسل
صنع الأيادى شر الناس كلهم   هيهات برّاق عنى اليوم فى شغل
لا تخذلوا لى لكيزا يا بنى أسد   واستغضبوا مضرا يأتون فى عجل

فلما فرغت قال لها ستكونين أنت حاكمة على الممالك والمتصرفين قالت هو لك وعليك وأنشدته أبياتا جاء فى آخرها

وأنا النسيبة والعفيفة فاعلمن   يابن الدنية يا ابن كل أتان

فانف بردين طريح من آخر شعرها وقال لها ويحك أبردين طريح ابن أتان أليس أياد وربيعة اخوانه قالت لا كذبت يا ابن الفارسية ما أنت لاياد ولو كنت لاياد ما رضيت فى ربيعة هذا الفعل ولكن شبه زنيم فازداد غيظا وأمر بها فقيدت وغلت وضربت ضربا شديدا فسألته زوجته فيها فلم يشفعها فأقبلت عليها وقالت يا أختاه قد بلغت فى عرضك عذرا فاقبلى نصيحتى فليس هذا أوان عفة فان ذلك لو كنت فى رجالك و فى عشيرتك فقالت القتل والعذاب أهون على مما يطلبه منى ثم بكت وأنشأت تقول

ليت للبراق عينا فترى   ما أقاسى من عناء و بلاء
يا كليبا يا عقيلا اخوتى   يا جنيدا اسعدونى بالبكا
عذبت أختكم يا ويلكم   بعذاب النكر صبحا ومسا
غللونى قيدونى ضربوا   موضع العفة منى بالعصا
يكذب الاعجم ما يقربنى   ومعى بعض حشاشات الحيا
قيدونى غللونى وافعلوا   كل ما شئتم جميعا من بلا
فأنا كارهة بغيكم   ويقين الموت شئ يرتجى
يا بنى كهلان يا أهل الفلا   أتدلون علينا العجما
يا أياد حشرت أيديكم   خالط المنظر من برد عمى
يا بنى الاغباط أما تعطفوا   لبنى عدنان أسباب الرجا
فاصطبارا أو عزاء حسنا   كل نصر بعد ضر يرتجى
أصبحت ليلى تغلل كفها   مثل تغليل الملوك العظما
وتقيد وتكبل جهرة   وتطالب بقبيحات النبا
قل لعدنا هديتم شمروا   لبنى مبعوض شهد بالوها

واعقدوا الرايات في أقطارها	واشهروا البيض وسيروا في الضحى
يابني تغلب صبروا وابصروا	وذروا الغفلة منكم والكرى
احذروا العار على أعقابكم	وعليكم مابقيتم في الدنا

حكى الاصمعي قال قال لي رجل من بني ضبة أضللت ابلالي فأتاني طلبها حتى أتيت بلاد بني سليم فبينما أنا في صحرائها اذ أنا بجارية أعشى والله بصري اشراق وجهها فقالت لي ياعبد الله مابغيتك قلت أضللت ابلالي فأتاني طلبها قالت أتحب أن أرشدك الى من عنده علمها قلت أجل ومن هو قالت الذي أعطاكها هو أخذها وان شاء ردها فسله من طريق اليقين لامن طريق الاختبار فأعجبني ماسمعت من بديع مقالها وراعني مارأيت من بارع جمالها فقلت لها هل لك بعل قالت كان فدعي الى ماخلق له ونعم البعل كان قلت فهل لك في بعل لاتذم خلائقه ولاتخشى بوائقه فاطرقت طويلا ثم رفعت رأسها وعيناها تذرفان دموعا وأنشدت

كنا كغصنين في أصل غذاؤهما	ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث خيرهما من جنب صاحبه	دهر يكر بفرحات وترحات
وكان عاهدني ان خانني زمن	أن لايضاجع أنثى بعد مثوات
وكنت عاهدته أيضا فعاجله	ريب المنون قريبا منسنيات
فاصرف عنانك عمن ليس يصرفه	عن الوفاء خلاف في التحيات

قالت عربية لابنها يابني عليك بحسن الخلق وجميل العشرة ولطف المرافقة ولين الجانب والاحتمال للصاحب وكف الاذى والمقاسمة في الغذاء فانك تستميل القلوب وتنال كل مطلوب ويحفظك علام الغيوب

﴿ امامة بنت الحرث التغلبية ﴾

كانت من فضليات النساء في العرب ولها حكم مشهورة في الاخلاق والمواعظ فقد أوصت ابنتها أم اياس بنت عوف ليلة زفافها الى زوجها بالوصية الآتية

قالت لها يابنية ان الوصية لو كانت تترك لفضل أدب أو لتقدم حسب لزويت ذلك عنك ولابعدته منك ولكنها تذكرة للعاقل ومنبهة للغافل

أي بنية لو استغنت امرأة عن زوج بفضل مال أبيها لكنت أغنى الناس عن ذلك ولكن للرجال خلقنا كما خلقوا لنا

بنية انك قد فارقت الحي الذي منه خرجت والعش الذي فيه درجت الى وكر لم تعرفيه وقرين لم تألفيه أصبح بملكه عليك مليكا فكوني له أمة يكن لك عبدا وشيكا واحفظي عني خلالا عشرة يكن لك ذكرا وذخرا ـ أما الاولى والثانية ـ فالصحبة بالقناعة والمعاشرة بحسن السمع والطاعة فان في القناعة راحة القلب وفي حسن المعاشرة مرضاة الرب وأما الثالثة والرابعة فالمعاهدة لموضع عينيه والتفقد لموضع أنفه فلا تقع عيناه منك على قبيح ولا يشم أنفه منك الا أطيب ريح واعلمي يابنية ان الكحل أحسن الحسن الموجود والماء أطيب الطيب المفقود والخامسة والسادسة التعاهد لوقت طعامه والتفقد لحين منامه فان حرارة الجوع ملهبة وتنغيص حاله مكربة وأما السابعة والثامنة فالاحتفاظ ببيته وماله والرعاية لحشمه وعياله فان حفظ المال أصل التقدير والرعاية للحشم والعيال من حسن التدبير وأما التاسعة والعاشرة فلا تفشين له سرا ولا تعصين له أمرا فانك ان أفشيت سره لم تأمني غدره وان عصيت أمره أوغرت صدره واتقي مع ذلك كله الفرح اذا كان ترحا والاكتئاب اذا كان فرحا فان الأولى من التقصير والثانية من التكدير وأشد ما تكونين له اعظاما أشد ما يكون لك اكراما وأشد ما تكونين له موافقة أطول ما يكون لك مرافقة واعلمي يابنية انك لا تقدرين على ذلك حتى تؤثري رضاه على رضاك وتقدمي هواه على هواك فيما أحببت أو كرهت والله يضع لك الخير وأستودعك الله وهذا من أكمل الوصايا وأعمها وأبلغها وأتمها

وحكي أنه مر فتى غر من عرب الحاضرة بجارية من عرب البادية تبهت الناظر جمالا وتسكت الذاكر مقالا وتشغل النفوس براعة وجمالا ففتن بها فسأل عنها أهل هي بكر أم ثيب فقيل هي بكر لها عم وليس لها أب حي فقصد رجالا من كبار قومها واستنهضه لخطبتها فأتيا عمها في جماعة فعرضوا عليه الامر فقال والله مالنا في أنفسنا معها رأي فكيف في نفسها لكن أعرض عليها الامر فدخل اليها ثم خرج اليهم وقد جلست خلف سجف فقال هاهي ثم قالت اللهم حي العصابة بالسلام وأجزل لهم ثواب ما قصدوه في دار المقام قل ياعم

اي بنية هذا عمك نظير أبيك يخطبك على ابن عمك ونظيرك ويبذل لك من الصداق ما يرضيك فقالت له ياعم أضرت بك الحاجة حتى طمعت طمعا أخل بمروءتك أتزوجني

غلاما غرا حضر يا يغلبنى بفطنته ويصول على بقدرته ويمن على بفضله ويطولنى بذات يده ويقول ياهناه يابنت الهناه ثم أعيش بعدها كلا إن الله واسع كريم سميع عليم غفور رحيم والله لا تزوجت الا رجلا كاملا فيه ثلاث خصال العقل والجمال واللسان فاذا كان عاقلا دارنى وان كان جميلا ألهانى وان كان لسنا ارضانى وازددت به علما الى علمى وفهما الى فهمى انصرفوا يغفر الله لكم

﴿ أم الخير البارقية ﴾

من فضليات النساء وفصحائهن وانتصرت لعلى رضى الله عنه يوم صفين

كتب معاوية الى واليه بالكوفة أن يحمل اليه أم الخير بنت الحريش البارقية برحلها وأعلمه انه مجازيه بقولها فيه بالخير خيرا او بالشر شرا فلما ورد عليه كتابه ركب اليها فأقرأها الكتاب فقالت أما أنا فغير زائغة عن طاعته ولا معتلة بكذب ولقد كنت أحب لقاء أمير المؤمنين لأمور تختلج فى صدرى فلما شيعها وأراد مفارقتها قال لها يا أم الخير ان أمير المؤمنين كتب الى أن يجازينى بقولك فى بالخير خيرا وبالشر شرا فما عندك قالت يا هذا لا يطمعنك برك بى أن أسرك بباطل ولا يؤيسك معرفتى بك أن أقول فيك غير الحق فسارت خير مسير حتى قدمت على معاوية فأنزلها مع حرمه ثم أدخلها عليه فى اليوم الرابع وعنده جلساؤه فقالت السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته قال لها وعليك السلام يا أم الخير وبالرغم منك دعوتينى بهذا الاسم قالت مه يا أمير المؤمنين فان بديهة السلطان مدحضة لما يجب علمه (ولكل أجل كتاب) قال صدقت فكيف حالك ياخالة وكيف كنت فى مسيرك قالت لم أزل فى عافية وسلامة حتى صرت اليك فأنا فى مجلس أنيق عند ملك رفيق قال معاوية بحسن نيتى ظفرت بك قالت يا أمير المؤمنين أعيذك بالله من دحض المقال وما تردى عاقبته قال ليس هذا أردنا أخبرينى كيف كان كلامك يوم قتل عمار ابن ياسر قالت لم أكن والله زورته قبل ولا رويته بعد وانما كانت كلمات نفثهن لسانى حين الصدمة فان شئت أحدثت لك مقالا غير ذلك فعلت قال لا أشاء ذلك ثم التفت الى أصحابه فقال أيكم يحفظ كلام أم الخير فقال رجل من القوم أنا أحفظه يا أمير المؤمنين كحفظى سورة الحمد قال هاته قال نعم كأنى بها يا أمير المؤمنين فى ذلك اليوم عليها برد زبيدى كثيف الحاشية وهى على جمل أرمك وقد أحيط حولها وبيدها سوط منتشر الظفيرة وهى كالفحل يهدر فى شقشقته تقول يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شئ عظيم ان الله قد أوضح الحق وأبان الدليل ونور السبيل ورفع العلم فلم يدعكم فى

عمياء مبهمة ولا سوداء مدلهمة فأنى تريدون يرحمكم الله أفرارا من أمير المؤمنين أم فرارا من الزحف أم رغبة في الاسلام أم ارتدادا عن الحق أما سمعتم الله عز وجل يقول ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوا أخباركم . ثم رفعت رأسها الى السماء وهي تقول قد عيل الصبر وضعف اليقين وانتشرت الرغبة وبيدك يارب أزمة القلوب فاجمع الكلمة على التقوى وألف القلوب على الهدى هلموا رحمكم الله الى الامام العادل والوصي الوفي والصديق الاكبر انها احن بدرية وأحقاد جاهلية وضغائن أحدية وثب بها معاوية حين الغفلة ليدرك بها ثارات بني عبد شمس ثم قالت قاتلوا (أئمة الكفر انهم لا ايمان لهم لعلهم ينتهون) صبرا معاشر المهاجرين والانصار قاتلوا على بصيرة من ربكم وثبات من دينكم وكأني بكم غدا قد لقيتم أهل الشام كحمرة مستنفرة فرت من قسورة لا تدري أين يسلك بها من فجاج الارض باعوا الآخرة بالدنيا واشتروا الضلالة بالهدى وباعوا البصيرة بالعمى عما قليل ليصبحن نادمين حين تحل بهم الندامة فيطلبون الاقالة انه والله من ضل عن الحق وقع في الباطل ومن لم يسكن في الجنة نزل في النار

أيها الناس ان الاكياس استقصروا عمر الدنيا فرفضوها واستبطؤا مدة الآخرة فسعوا لها والله أيها الناس لولا ان تبطل الحقوق وتعطل الحدود ويظهر الظالمون وتقوى كلمة الشيطان لما اخترنا ورود المنايا على حفض العيش وطيبه فالى أين تريدون رحمكم الله عن ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ابنته وأبي ابنيه خلق من طينته وتفرع عن نبعته وخصه بسره وجعله باب مدينته وأعلم بحبه المسلمين وأبان ببغضه المنافقين فلم يزل كذلك يؤيده الله بمعونته ويمضي على سنن استقامته ليعرج لراحة اللذات وهو مفلق الهام ومكسر الأصنام اذ اصلى والناس مشركون وأطاع والناس مرتابون فلم يزل كذلك حتى قتل مبارزي بدر وأفنى أهل أحد وفرق جمع هوازن فيالها وقائع زرعت في قلوب قوم نفاقا وردة وشقاقا قد اجتهدت في القول وبالغت في النصيحة وبالله التوفيق وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته

فقال معاوية إيه يا أم الخير ما أردت بهذا إلا قتلي والله لو قتلتك ما حرجت في ذلك قالت والله ما يسوؤني يا ابن هند أن يجري الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه قال هيهات يا كثيرة الفضول ما تقولين في عثمان بن عفان قالت وما عسيت أن أقول فيه استخلفه الناس وهم كارهون وقتلوه وهم راضون فقال أيها يا أم الخير هذا والله أصلك الذي بنيت عليه قالت لكن الله يشهد وكفى بالله شهيدا ما أردت بعثمان نقصا ولقد كان سباقا الى الخيرات وانه لرفيع

الدرجة قال فاتقولين فى طلحة قالت وماعسى أن أقول فى طلحة اغتيل من مأمنه وأتى من حيث لم يحذر وقد وعده رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فاتقولين فى الزبير قالت ياهذا لاتدعنى كرجيع الضبع يعرك فى المركن قال حقا لتقولن ذلك وقد عزمت عليك قالت وماشئت أن أقول فى الزبير ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه وقد شهد له بالجنة ولقد كان سباقا الى كل مكرمة فى الاسلام وانى أسألك بحق الله يامعاوية فان قريشا تحدث انك من أحلمها أن تسعنى بفضل حلمك وأن تعفينى من هذه المسائل وامض لما شئت من غيرها قال نعم وكرامة قد أعفيتك وردها مكرمة الى بلدها

﴿ الزرقاء بنت عدى بن قيس الهمدانية ﴾

وهى ممن اشتهرن أيضا بالخطابة فى يوم صفين فيروى انها ذكرت عند معاوية يوما فقال لجلسائه أيكم يحفظ كلامها قال بعضهم نحن نحفظه ياأمير المؤمنين قال فأشيروا على فى أمرها فأشار بعضهم بقتلها فقال بئس الرأى أيحسن بمثلى أن يقتل امرأة ثم كتب الى عامله بالكوفة أن يوفدها اليه مع ثقة من ذوى محرمها وعدة من فرسان قومها وأن يمهد لها وطأ لينا ويسترها بستر خصيب ويوسع لها فى النفقة فلما دخلت على معاوية قال مرحبا بك وأهلا قدمت خير مقدم قدمه وافد كيف حالك قالت بخير ياأمير المؤمنين أدام الله لك النصر قال كيف كنت فى مسيرك قالت ربيبة بيت أو طفلا ممهدا قال بذلك أمرناهم أتدرين فيم بعثت اليك قالت وانى لى بعلم مالم أعلم ومايعلم الغيب إلا الله عز وجل قال ألست الراكبة الجمل الأحمر والواقفة بين الصفين بصفين تحضين الناس على القتال وتوقدين نار الحرب فما حملك على ذلك قالت ياأمير المؤمنين مات الرأس وبتر الذنب ولن يعود ماذهب والدهر ذوغير ومن تفكر أبصر والأمر يحدث بعد الأمر قال لها معاوية أتحفظين كلامك يومئذ قالت لا والله لقد أنسيته قال لكنى أحفظه لله در أبوك حين تقولين أيها الناس ارعووا وارجعوا انكم أصبحتم فى فتنة غشتكم جلابيب الظلم وجارت بكم عن قصد المحجة فيالها فتنة عمياء صماء بكماء لاتسمع لناعقها ولاتسلس لقائدها ان المصباح لايضىء فى الشمس ولكواكب لاتنير مع القمر ولايقطع الحديد إلا الحديد إلا من استرشد أرشدناه ومن سألنا أخبرناه أيها الناس ان الحق كان يطلب ضالته فأصابها فصبرا يامعاشر المهاجرين والأنصار على الغصص فكأن قد اندمل شعب الشتات والتأمت كلمة التقوى ودمغ الحق باطله فلا يجهلن أحد فيقول كيف العدل وانى ليقضى الله أمرا كان مفعولا ألا وأن خضاب النساء الحناء وخضاب الرجال

وأول امرأة رآها الناس فى الموقف فى هودج وأول امرأة أقام معها زوجها سبعة أيام لا يظهر وأول امرأة رأى الناس الصرر المختومة تخرج الى المستورات من جيرانها فيها الدراهم يوم أسبوعها وأول امرأة سهرت على زوجها من الغيرة حتى طلع الفجر

﴿ خديجة أم فضل ﴾

هى بنت أحمد بن عبد العزيز أبى القاسم بن عبد الرحمن أم الفضل ابن شهاب الدين النيوبرى القرشية فهى أعظم النساء دينا وكرما وعبادة دخلت فى زمرة أفاضل العلماء بحيازة الفضل وكانت لا ترغب فيما يميل اليه النساء وكانت تكتب وتقرأ ولها فضائل وتنظم الشعر الجيد وبينها وبين علماء عصرها وصلحائه مكاتبات ولها قصيدة أولها

حمل الغرام على مالا أحمل   فرثى لحالى من يلوم ويعذل

﴿ عائشة بنت أبى بكر الصديق ﴾

تزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولها خطب ووقائع مشهورة وكانت هى السبب فى واقعة الجمل وكانت أفصح أهل زمانها ورت عنها الرواة من الرجال والنساء وكان مسروق اذا روى عنها يقول حدثتنى الصديقة بنت الصديق البريئة المبرأة وقال عطاء بن أبى رباح كانت عائشة من أفقه الناس وأحسن الناس رأيا فى العامة وقال عروة ما رأيت أحدا أعلم بفقه ولا بطيب ولا بشعر من عائشة

﴿ عالية بنت المهدى ﴾

هى أخت هارون الرشيد كانت فى زمانها تساجل الادباء وتناظر العلماء ذات عفة وأدب واتخذت العصائب المكللة بالجوهر لتستر بها جبينها فأحدثت شيأ لم تبتدع النساء أحسن منه واشتهرت بالغناء وحسن الصوت وأجادت الشعر وهى القائلة

أيا سروة البستان طال تشوقى   فهل الى ظل لديك سبيل
متى يلتقى من ليس يقضى خروجه   وليس لمن يهوى اليه دخول
عسى الله أن نرتاح من كربة لنا   فيلتقى اعتباطا خلة وخليل

﴿ ولادة بنت المستكفى ﴾

هى بنت المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الناصر لدين الله كانت واحدة فى زمانها المشار اليها باللسان حسنة المحاضرة مشكورة المذاكرة وكانت عالمة كاتبة شاعرة لها مجلس تمتد فيه الموائد ويجتمع بها فيه العلماء والفضلاء والشعراء والادباء

وكانت بدون تكليف ولكنها عفيفة شريفة كتبت بالذهب على الطراز الايمن

أنا والله أصلح للمعالي وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الطراز الايسر

أمكني عاشقي من صحن خدي وأعطي قبلتي من يشتهيها

وهي القائلة تعارض الأبيات الاولى بهذين البيتين

اني وان نظر الانام لبهجتي كظباء مكة صيدهن حرام

يحسبن من لين الكلام فواحشا ويصدهن عن الخنا الاسلام

وفيها خلع ابن زيدون عذارة وقال فيها القصائد الطنانة وكانت لها جارية سوداء بديعة المعنى فظهر لولادة ان ابن زيدون مال اليها فكتبت له

لو كنت تنصف في الهوى مابيننا لم تهوى جاريتي ولم تتخير

وتركت غصنا مثمرا بجماله وجنحت للغصن الذي لم يثمر

ولقد علمت بأنني بدر السما لكن ولعت لشقوتي بالمشتري

ولها أشعار كثيرة وقال عنها ابن بشكوال في كتاب الصلة وذكره صاحب نفح الطيب انها كانت أديبة شاعرة جزلة القول حسنة الشعر تساجل الأدباء وتفوق البرعاء وعمرت عمرا طويلا ولم تتزوج قط وماتت في سنة ٤٨٤ وكان أبوها المستكفي بائعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر وكان خاملا وخرجت هي في نهاية الادب والظرف حضور شاهد وحرارة أوابد وحسن منظر وحلاوة مورد ومصدر وكان مجلسها بقرطبة منتدى لاحرار المصر وفناؤها ملعبا لجياد النثر يعشو أهل الادب الى ضوء غرتها ويتهالك افراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها وعلى سهولة حجابها وكثرة منتابها تخلط ذلك بعلو نصاب وكرم انساب وطهارة أثواب على انها أوجدت للقول فيها السبيل بقلة مبالاتها ومجاهرتها بلذاتها ولما ضرب بالوزير أبي عامر وامام داره بركة تتولد عن كثرة الامطار وربما استمدت بشيء مما هنالك من الاقذار وقد نشر أبو عامر كميه ونظر في عطفيه وحشر أعوانه اليه فقالت

أنت الخصيب وهذه مصر فتدفقا فكلاكما بحر

فتركته لا يحير صرفا ولا يرد طرفا وهي بالغرب كعلية بالشرق

﴿ بثينة بنت المعتمد ﴾

هي بنت المعتمد بن عباد كانت جميلة بارعة في الشعر طاهرة الذيل ويدل على طهارتها

انه لما وقع النهب فى قصر أبيها كانت فى جملة من سبي واختفت أخبارها عن أمها وأبيها مدة من الزمان لا يعلمان ما آل اليه أمرها الى أن كتبت اليهما بالشعر المشهور المتداول بين الناس الى الآن وكان أحد تجار اشبيلية اشتراها على انها جارية سرية ووهبها لابنه فنظر من شأنها وهيئت له فلما أراد الدخول عليها امتنعت وأظهرت نسبها وقالت لا أحل لك الا بعقد نكاح ان رضى أبى بذلك وأشارت عليهم بتوجيه كتاب من قبلها لأبيها وانتظار جواب فكان الذى كتبته بخطها من نظمها ما صورته

اسمع كلامى واستمع لمقالتى — فهى السلوك بدت من الاجياد

لا تنكروا انى سبيت وانى — بنت لملك من بنى عباد

ملك عظيم قد تولى عصره — وكذا الزمان يؤول للافساد

لما أراد الله فرقة شملنا — واداقنا طعم الاسى من زاد

قام النفاق على أبى فى ملكه — فدنا الفراق ولم يكن بمرادى

فخرجت هاربة فحازنى امرؤ — لم يأت فى اعجاله بسداد

اذا باعنى بيع العبيد فضمنى — من صانني الامن الانكاد

وأرادنى لنكاح نجل طاهر — حسن الخلائق من بنى الانجاد

ومضى اليك يسوم رأيك فى الرضا — ولانت تنظر فى طريق رشاد

فعساك يا أبتى تعرفنى به — ان كان ممن يرتجى لوداد

وعسى رميكية الملاك بفضلها — تدعو لنا باليمن والاسعاد

فلما وصل شعرها لأبيها وهو بأغمات واقع فى شرك الكروب والزمان سرهو وأمها بحياتها ورأيا ان ذلك للنفس من أحسن أمنية اذ علما ما آل اليه أمرها وجبر كسرها ان ذلك أخف الضررين وأشهد على نفسه بعقد نكاحها من الصبى المذكور وكتب اليها أثناء كتابه ما يدل على حسن صبره المشكور

بنيتى كونى به بره — فقد قضى الدهر باسعافه

﴿ أسماء العامرية ﴾

من أهل اشبيلية كتبت الى عبد المؤمن بن على رسالة تمت فيها اليه بنسبها العامرى وتسأله فى رفع الانزال عن دارها والاعتقال عن مالها وفى آخرها قصيدة أولها

عرفنا النصر والفتح المبينا — لسيدنا أمير المؤمنينا

اذا كان الحديث عن المعالى رأيت حديثكم فيناشجونا

ومن بلاغتهن أيضا انه ركب المعتمد فى النهر ومعه ابن عمه ووزيره زردت الريح النهر فقال ابن عباد لابن عمار أجز * صنع الريح من الماء زرد *

فأطال ابن عمار الفكرة فقالت امرأة من الغسالات * أى درع لقتال لو جمد *

فتعجب ابن عباد من حسن ما أتت به مع عجز ابن عمار ونظر اليها فاذا هى صورة حسنة فأعجبته فسألها أذات زوج هى فقالت لا فتزوجها وولدت له أولاده الملوك

مرت أعرابية بجماعة من نمير فأداموا لها النظر فقالت يابنى نمير ما فعلتم بقول الله تعالى قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم فأطرقوا حياء

قال أعرابى خرجت فى ليلة بهيمة فاذا أنا بجارية كأنها علم فراودتها فقالت أمالك زاجر من عقل ان لم يكن لك ناه من دين فقلت انه لا يرانا الا الكواكب فقالت وأين مكوكبها

نزل أسدى بطائية فى يوم طائف فأتته بقرى ففتنته بعينها من وراء البرقع فراودها فقالت أما بروعك الكرم والاسلام كل وأقل وان أردت غير ذلك فارتحل

وروى أن ابرويز راود امرأة على الفجور فقالت أيها الملك ان المرأة طبعت على ثلاث أجزاء من الانسانية فاذا افتضت ذهب جزء واذا حبلت ذهب جزء واذا ولدت ذهب جزء وقد أنبيت عن ذلك فأنا أعيذ الملك أن يخرجنى عن حد الانسانية

﴿ أم حكيم ﴾

هى بنت زينب بنت عبد الرحمن بن الحرث بن هشام كانت هى وأمها من أجمل نساء قريش فكانت قريش تقول لأم حكيم الواصلة بنت الواصلة وقيل الموصلة بنت الموصلة لانهما وصلتا الجمال بالكمال وقد تزوجها عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فى حياة جده عبد الملك ولما عقد النكاح بينهما كان فى المجلس عبد الملك فأمر بادخال الشعراء ليهنؤهم بالعقد ويقولون فى ذلك أشعارا فدخل جرير وقال

جمع الأمير اليه أكرم حرة فى كل ما حال من الاحوال

حكمية علت الروابي كلها ... بمفاخر الاعمال والأخوال
واذا النساء تفاخرت ببعولة ... فخرتهم بالسيد المفضال
عبد العزيز ومن يكلف نفسه ... أخلاقه يلبث بأكسف بال
هنأتكم بمودة ونصيحة ... وصدقت في نفسي لكم ومقالي
فلتهنك النعم التي خولتها ... ياخير مأمول وأفضل وال

فأمر له عبد الملك بعشرة آلاف درهم وأمر لجميع من حضر من الرؤساء والكتاب بعشرة آلاف دينار

حكى أن أعرابية دخلت البادية فسمعت صراخا في دار فقالت ماهذا فقيل لها مات لهم انسان فقالت ماأراهم الامن ربهم يستغيثون و بقضائه يتبرمون وعن ثوابه يرغبون

قالت أعرابية وقاكم الله هول المطلع وصرف عنكم سوء المضطجع وأحسن اليكم في المرتجع ولاساءكم فيما صنع فعجبوا من كلامها وأحسنوا اليها

﴿ زينب بنت حدير وتزويج شريح لها ﴾

قال شريح ياشعبي عليكم بنساء بني تميم فانهن النساء قال قلت وكيف ذلك قال انصرفت من جنازة ذات يوم مظهرا فمررت بدور بني تميم فاذا امرأة جالسة في سقيفة على وسادة وتجاهها جارية حسناء ولها ذوائب على ظهرها جالسة على وسادة فاستسقيت فقالت أي الشراب أعجب اليك ألنبيذ أم اللبن أم الماء فقلت أي ذلك تيسر عليكم فقالت اسقوا الرجل لبنا فاني أخاله غريبا فلما شربت نظرت الجارية فأعجبتني فسألتها من هذه فأجابت ابنتي احدى نساء بني تميم فقلت أتزوجينها فقالت نعم ان كنت كفيا ولها عم فاقصده فقصد عمها وطلبها منه وتزوجها وقد ندم بعد زواجها وهم بطلاقها فراجع نفسه ثم قال أجمعها الي فان رأيت ماأحب والا أطلقها وقد دار بينه و بينها الحديث فقالت الحمد لله اني امرأة عربية ماسرت مسيرا قط أشر علي منه وأنت رجل غريب لاأعرف أخلاقك فحدثني بما تحب فآتيه وماتكره فأنزجر منه فقال الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد قدمت خير مقدم على أهل دار زوجك سيد رجالهم وأنت سيدة نسائهم أحب كذا وأكره كذا قالت اخبرني عن اختانك أتحب أن يزوروك فقلت اني رجل قاض وماأحب أن تملوني فكنت

لاارى يوما ألا وهو أفضل من يوم حتى اذا كان عندى رأس الحول دخلت منزلى فاذا بعجوز تأمر وتنهى قلت يازينب من هذه فقالت أمى قلت حياك الله بالسلام قالت أباأمية كيف أنت وحالك قلت بخير أحمد الله قالت أباأمية كيف زوجتك قلت كخير امرأة قالت ان المرأة لاترى فى حال أسوأ خلقا منها فى حالين اذا حظت عند زوجها واذا ولدت غلاما فان رابك منها ريب فالسوط فان الرجال والله ماحازت الى بيوتهن شرا من الولهاء المتدللة قلت أشهد أنها ابنتك قد كفيتنا الرياضة وأحسنت الادب قال فكانت فى كل حول تأتينا فتذكرها شعر

رأيت رجالا يضربون نساءهم فشلت يمينى يوم أضرب زينبا
أأضربها فى غير جرم أتت به الىّ فما عذرى اذا كنت مذنبا
فتاة تزين الحلى ان حليت كأن بفيها المسك خالط محلبا

ومنهن جمعة بنت حابس الايادى وصخرة بنت النعمان وخصيلة بنت عامر وحذام بنت الريان وهى القائلة لوترك القطا ليلا لنام

قال المفضل الضبى أول من قال ذلك حذام بنت الريان وذلك أن عاطس بن حلاج سار الى أبيها فى حمير وضغم وجعفى وهمدان ولقيهم الريان فى أربعة عشر حيا من أحياء اليمن فاقتتلوا اقتتالا شديدا ثم تحاجزوا وان الريان خرج تحت ليلة وأصحابه هربا فساروا يومهم وليلتهم ثم عسكروا وأصبح عاطس فعدا لقتالهم فاذا الارض منهم بلاقع فجدّ فى الطلب فانتهوا الى عسكر الريان ليلا فلما كانوا قريبا منه أثاروا القطا فمرت على أصحاب الريان فخرجت حذام الى قومها فقالت

ألايا قومنا ارتحلوا وسيروا فلو ترك القطا ليلا لنام

فلم يلتفتوا الى قولها وأخلدوا الى المضاجع لما نابهم من الكلال فقام ديسم بن طارق فقال بصوت عال .

اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

فثار القوم فلجأوا الى واد كان قريبا منهم فاعتصموا به حتى أصبحوا وامتنعوا منهم وفى رواية أخرى أن البيت للجيم بن صعب فى امرأته حزام

والحكايات والاخبار فى ذلك كثيرة والاطناب يخرج عن الحد المقصود ويؤدى الى الملال وفيما ذكرنا من ذلك مقنع ومن أراد التوسع فعليه بمراجعة كتاب بلاغات النساء

وكتاب النساء لأبي الفرج وكتاب الصلة لابن بشكوال ونفح الطيب وتاريخ بغداد لابن الخطيب البغدادي وقد بلغت الغيرة في الرجال على النساء الى حدّ أنهم كانوا يئدون بناتهم خوف العار والمذلة

الفصل الثامن

في

﴿ الغيرة ﴾

الغيرة قوة نفسية تتولد في الانسان بحسب ميله الطبيعي الى مايغار عليه وهي توجد في كل زمان ومكان حتى في الحيوان نفسه وقد كانت في العرب أكثر من غيرهم حتى ان من دخل دار أحدهم والتجأ الى فنائه عدوا فعله حرمة وجوارا وزمارا

وقد أودع الله هذه القوة في الانسان سببا لصيانة الماء وحفظا للانساب ولذلك قيل كل أمة وضعت الغيرة فيها وفي رجالها وضعت الصيانة في نسائها

ومن مواد الغيرة المروءة والمحبة ثم تزيد وتختلف بحسب الدواعي والاشخاص والمحمود منها ما كان واقعا عند مشاهدة نقص في ناموس الهي وحكم ديني ونمط شرعي

فمن غيرة العرب ونخوتهم أنهم يكنون عن الحرائر من النساء بالبيض وقد جاء القرآن العزيز بذلك فقال سبحانه وتعالى كأنهن بيض مكنون وقد تستعمل الغيرة في صيانة كل مايلزم صيانته في السياسات الثلاث التي هي سياسة الرجل نفسه وسياسة أهله ومنزله وسياسة مدينته وضيعته وسموها بالحكمة العملية وألفوا فيها كتبا كثيرة كما ألفوا في غيرها



المقالة الخامسة

في

﴿ الحكمة العملية ﴾

(وفيها ثلاثة فصول)

الفصل الاول

في

﴿ الحكمة الالهية ﴾

لما كان الانسان مدنيا بالطبع وكان تركه مهملا مؤديا الى التقاتل والتناصر والعداوة والشحناء المنافية هذه الأمور الى قضية التمدن والاجتماع وعمارة المدن والاصقاع

اقتضت الحكمة الالهية وضع قوانين متعلقة بجميع الاشخاص على العموم بحيث لاتختص بشخص شخص ولا بطائفة دون أخرى بل كل الطوائف والأمم سواسية في هذه السياسة والقانون الجاري بطريق التعادل

ثم ان هذه القوانين لابد وأن تؤخذ من انسان يعلمه الله بواسطة الملك ويؤيده من عنده بالمعجزات الناقضات للعادات ليصدقه الكل ادمن له قوة قدسية وحكمة تامة لايحتاج الى المعجزات الحسية في تصديقه وأما من هو نازل عن هذه الدرجة بمرتبة أو بمراتب فانه يحتاج الى معجزة حسية إما مرة أو مرات بحسب قوة جهله أو ضعفه وقد اشتملت الشريعة الغراء على محاسن الشرائع وأوسطها والاجتناب عن طرفي الاقتصاد وتفريطها وافراطها فلم يترك العالم سدى بل جعل عقول البشر مهذبة الى قدر مايبقى به النظام بين النوع الانساني وأرشدهم الى مايكمل به مصالح دنياهم أكثريا وبعض من مصالح آخرتهم

فالذي جاءت به الرسل من عند الله تعالى هو العدل حقيقة وأما الذي استحسنه عقول

العقلاء والحكماء فهو ما يشبه العدل وهى السياسة الاصطلاحية التى هرم عليها الكبير ونشأ عليها الصغير وبعيد أن يبقى سلطان أو تستقيم رعية فى حال ايمان أو كفر بلا عدل قائم أو ترتيب للامور التى تشبه العدل

فالسياسة ما يبقى بها نظام العالم وان لم يصلح بها أمور الآخرة وقد ذكر الحكماء علومهم العملية هذه وبحثوا فيها عن الاعمال الصادرة عن البشر وتلك الاعمال اما أن تتعلق بالشخص وحده وهى علم الأخلاق واما أن تتعلق بأصل المنزل لدوام الأنس والائتلاف وهى علم تدبير المنزل أو تتعلق بأحوال أهل البلد لنظام أحوال المملكة وهى علم السياسة

الفصل الثانى

فى

﴿ علم الأخلاق ﴾

هو علم يعرف منه أنواع الفضائل وهى اعتدال ثلاث قوى وهى القوة النظرية والغضبية والشهوية كل منها أوساط بين رذيلتين . الحكمة وهى كمال القوة النظرية وهى التوسط بين رذيلتين البلادة والجربزة والأول تفريطها والثانى افراطها والشجاعة وهى كمال القوة الغضبية وهى التوسط بين رذيلتين الجبن والتهور والاول تفريطها والثانى افراطها والعفة وهى كمال القوة الشهوية وهى التوسط بين رذيلتين الجمود والفجور والأول تفريطها والثانى افراطها

وهذه الثلاث أى الحكمة والشجاعة والعفة لكل منها فروع وكل من هذه الفروع توسط بين رذيلتين وخير الأمور الوسط وقد احتوت كتب علم الأخلاق على تعريفات هذه الأمور ثم طريق العلاج بأن يفر عن طرفى التوسط ويعتدل فى الوسط

وموضوع هذه العلوم الملكات النفسانية من حيث تعديلها بين الافراط والتفريط قال الحكماء للاسكندر أيها الملك عليك بالاعتدال فى كل الامور فالزيادة عيب والنقصان عجز

ومنفعته أن يكون الانسان كاملا فى أفعاله بحسب الامكان ليكون أولاه سعيدا وأخراه حميدا

الفصل الثالث

في

﴿ علم تدبير المنزل ﴾

هو علم يعرف منه اعتدال الأحوال المشتركة بين الانسان وزوجته وأولاده وخدمه وطريق علاج الأمور الخارجة عن الاعتدال ووجه الصواب فيها وموضوعه أحوال الأهل والولد والأقارب والخدم وأمثالها من حيث الانتظام

ومنفعته لاتخفى على أحد لأن حاصله أحوال انتظام الانسان في منزله ليتمكن بذلك من صيانة الحقوق الواجبة بينه وبين الاشخاص المذكورة ويتمرع باعتدالها وانتظامها على كسب السعادة العاجلة والآجلة

ولابن سينا رسالة في هذه السياسات مختصرة نأتي بها هنا اتماما للفائدة ولبيان فضل رجال الاسلام على من عداهم بوضعهم أساس هذا العلم

﴿ التفاوت بين الناس في الصفات والرتب ﴾

خص الله بني آدم بخصائص من نعمه وفضلهم بها على كثير من خلقه فجعلهم أحسن الخلق وطبائعهم أكمل الطبائع وتركيبهم أعدل التركيب ومعيشتهم أنعم المعاش وسعيهم في منقلبهم أرد السعي الى العقول الرضية التي أمدهم بها والأحلام الراجحة التي أيدهم بفضلها والآداب الحسنة التي ألبسهم جمالها والأخلاق الكريمة التي زينهم بشرفها مع التمييز الذي أراهم به فرق ما بين الخير والشر وخلاف ما بين الغي والرشد وفضل ما بين الصانع والمصنوع والمالك والمملوك والسائس والمسوس حتى صار ذلك طريقا لهم الى معرفة ما بين الخالق والمخلوق وسبيلا واضحا الى تثبيت الصانع القديم إلا جحودا عنادا ومكابرة عيان

ثم من الله عليهم بفضل رأفته ما مستأنفا بان جعلهم في عقولهم وآرائهم متفاضلين كما جعلهم في أملاكهم ومنازلهم ورتبهم متفاوتين لما في استواء أحوالهم وتقارب أقدارهم من الفساد الداعي الى فنائهم لما يلقى بينهم من التنافس والتحاسد ويثير من التباغي والتظالم فقد علم ذوو العقول ان الناس لو كانوا جميعا ملوكا لتفانوا عن آخرهم ولو كانوا كلهم سوقة لهلكوا أعيانا بأسرهم كما انهم لو استووا في الغنى لما مهن أحد لأحد ولا رفد حميم حميما ولو

استو وافى الفقر لما تواضر او هلكوا بؤسا فلما كان التحاسد من أطباعهم والتباهى من سوسهم وفى أصل جوهرهم كان اختلاف أقدارهم وتفاوت أحوالهم سبب بقائهم وعلة لقناعتهم فذوا المال الغفل من العقل العطل من الأدب المدرك حظه من الدنيا بأهون سبب اذا تأمل حال العاقل المحروم وأكدار الحوّل القلب ظن بل أيقن ان المال الذى وجده مغير من العقل الذى عدمه وذوا الأدب المعدم اذا تفقد حال المثرى الجاهل لم يشك فى انه فضل عليه وقدم دونه وذوى الصناعة التى تعود عليها بما يمسك رمقه لا يغبط ذوا السلطان العريض ولا ذا الملك المديد وكل ذلك من دلائل الحكمة وشواهد لطف التدبير وأمارات الرحمة والرأفة

﴿ لزوم التدبير والسياسة لجميع الناس ﴾

وأحق الناس وأولاهم بتأمل ما يجرى عليه تدبير العالم من الحكمة وحسن واتقان السياسة وأحكام التدبير الملوك الذين جعل الله تعالى ذكره بأيديهم أزمة العباد وملكهم تدبير البلاد واسترعاهم أمر البرية وفوض اليهم سياسة ثم الأمثل فالأمثل من الولاة الذين أعطوا قيادة الأمم واستكفلوا تدبير الأمصار والكور ثم الذين يلونهم من أرباب النعم وسواس البطانة والخدم ثم الذين يلونهم من أرباب المنازل ورواض الأهل والولدان فان كل واحد من هؤلاء راع لما يحوزه كنفه ويضمه رحله ويصرفه أمره ونهيه ومن تحت يد رعيته ويحتاج أصغرهم شأنا وأحقهم ظهرا وأرقهم حالا وأضيقهم عطنا وأقلهم عددا من حسن السياسة والتدبير ومن كثرة التفكير والتقدير ومن قلة الاغفال والاهمال ومن الانكار والتأنيب والتعنيف والتأديب والتعديل والتقويم الى جميع ما يحتاجه اليه الملك الأعظم

بل لو قال قائل ان الذى يحتاج اليه هذا من التيقظ والتنبه ومن التعرف والتجسس والبحث والتنقير والفحص والتكشيف أو من استشعار الخوف والوجل ومجانبة الركون والطمأنينة والاشفاق من انفتاق الرتق واختلال السد أكثر لأصاب مقالا لان الفذ الذى لا ظهير له والفرد الذى لا معاضد له أحوج الى حسن العناية وأحق بشدة الاحتراز من المستظهر بكفاية وفد الوزراء والأعوان ولان المعدم الذى لا مال له يحتاج من ترقح العيش ومرمة الحال الى أكثر مما يحتاج اليه الغنى الموسر

ولعل منكرا ينكر تمثيلنا أحوال السوقة بأحوال الملوك أو عائبا يعيب موازنتنا بين الحالتين أو قادحا يقدح فى سداد تشابه الأمرين فليعلم المتكلف فى النظر فى ذلك ان تكلمنا

فى تقارب الناس فى الأخلاق والخلق وفى حاجات الأنفس وفى دواعى الأجساد والمنازل دون المراتب والأخطار والأقدار

﴿ أهل الانسان ﴾

ثم ليعلم ان كل انسان من ملك وسوقة يحتاج الى قوت تقوم به حياته وتبقى شخصه ثم يحتاج الى أعداد فضل قوته لما يستأنف من وقت حاجته وانه ليس سبيل الانسان فى اقتناء الأقوات سبيل سائر الحيوان الذى ينبعث فى طلب الرعى والماء عند هيجان الجوع وحدوث العطش وينصرف عنهما بعد الشبع والرى غير معنى بما أفضله ولا حافظ لما احتازه ولا عالم بعود حاجته اليهما بل يحتاج الانسان الى مكان يخزن فيه ما يقتنيه ويحرسه لوقت حاجته فكان هذا سبب الحاجة الى اتخاذ المساكن والمنازل فلما اتخذ المنزل وأحرز القنية احتاج الى حفظها فيه ممن يريدها ومنعها ممن يرومها فلو انه قام على القنية حافظا لها راصدا لطلابها اذن أفناها قبل أن يزيد فيها فاذا اقتنى ثانية عادت حاجته الى حفظها فلا يزال ذلك دأبه حتى يصير فى مثل حيز البهيمة التى تسعى الى مرعاها مع حدوث حاجتها فاحتاج عند ذلك الى استخلاف غيره على حفظ قنيته فلم يصلح لخلافته فى ذلك إلا من تسكن نفسه اليه ولم تسكن نفسه إلا الى الزوج التى جعلها الله تعالى ذكره للرجل سكنا وكان ذلك سبب اتخاذ الأهل

ولما يغشى الاهل بالامر الذى جعله الله سببا لحدوث الذرية وعلة البقاء والنسل حدث الولد وكثر العدد وزادت الحاجة الى الاقوات وأعداد فضلاتها الاوقات الحاجة احتاج عند ذلك الى الاعوان والقوّام والى الكفاة والخدام فاذا به صار راعيا وصار من تحت يده له رعية

فهذه أمور قد استوى فى الحاجة اليها الملك والسوقة والراعى والمرعى والسائس والمسوس والخادم والمخدوم لان كل انسان محتاج فى دنياه الى قوت يمسك روحه ويقيم جسده والى منزل يحرز فيه ذات يده ويأوى اليه اذا انصرف عن سعيه والى زوجة تحفظ عليه منزله وتحرز له كسبه والى ولد يسعى له عند عجزه ويقوم كفايته فى حال كبره ونصل نسله ويحيى ذكره من بعده والى قوام وكفاة يعينونه ويحملون ثقله واذا اجتمع هؤلاء كان راعيا ومسيا وكانوا له رعايا وسوّاما

وكان المسيم يلزمه ان يرتاد مصالح سائمته من الكلاء والماء نهارا ومن الحظائر والزراب ليلا وان يذكى عيونه فى كلائها ويبث كلابه فى أقطارها يحرسها من السباع العادية ومن

الآفات الطارقة ومن السرق والغارة والنهب وان يختار لها المشتى الدفى والمصيف الريح ويرودها فى طلب الكلا والنطف العذاب وان يتحين وقت عملها وان يترقب حين نتاجها ويلزمه بعد ذلك ان يسوقها الى مصالحها ويصرفها عن متألفها بنعيقه وصفيره وبزجره ووعيده فان كفاه ذلك فى حسن انقيادها واستقامة ضلعها والا أقدم عليها بعصاه كذلك يلزم ذا الاهل والولد والخدام والتبع معا بحق عليه من حفظهم وحياطتهم ومن تحمل مؤنهم وادرار ارزاقهم احسان سياستهم وتقويمهم بالترغيب والترهيب بالوعد والوعيد وبالتقرب والتبعيد وبالاعطاء والحرمان حتى تستقيم له قناتهم

فهذه أقاويل مجملة فى وجوب السياسة والحاجة اليها وسنتبعها بأمثلة مفسرة فى أبواب مفصلة بعد ان نقدم قبلها بابا فى سياسة الرجل نفسه فان ذلك أحسن فى النظم وأبلغ فى النفع انشاء الله تعالى

﴿ فى سياسة الرجل نفسه ﴾

ان أول ماينبغى أن يبدأ به الانسان من أصناف السياسة سياسة نفسه اذ كانت أقرب الاشياء اليه أكرمها عليه وأولاها بعنايته ولانه متى أحسن سياسة نفسه لم يعى بما فوقها من سياسة المصر ومن أوائل مايلزم من رام سياسة نفسه ان يعلم أن له عقلا هو السائس ونفسا أمارة كثيرة المعايب جمة المساوى فى طبعها وأصل خلقها هى المسوسة وان يعلم ان كل من رام اصلاح فاسد لزمه أن يعرف جميع فساد ذلك الفاسد معرفة مستقصاة حتى لايغادر منه شيئا ثم يأخذ فى اصلاحه والا كان مايصلحه غير حريز ولا وثيق كذلك من رام سياسة نفسه ورياضتها واصطلاح فاسدها لم يجز له أن يبتدى فى ذلك حتى يعرف جميع مساويه معرفة محيطة فانه ان أغفل بعض تلك المساوى وهو يرى أنه قد عمها بالاصلاح كان كمن يدمل ظاهر الكلم وباطنه مشتمل على اندمال وكما ان الدار اداقوى على الاهمال وطول الترك نقض الاندمال وقذى الجلد حتى يبدو لعين الناظر كذلك العيب الواحد من معايب النفس اذا أغفل عنه كامنا حتى اذا لاح له وجه ظهور طلع مكمنه آمن ما كان الانسان له

ولما كانت معرفة الانسان نفسه غير موثوق بها لما فى طباع الانسان من الغباوة عن مساوئه وكثرة مسامحته نفسه عند محاسبتها ولان عقله غير سالم من ممازجة الهوى اياه عند نظره فى أحوال نفسه كان غير مستغن فى البحث عن أحواله والفحص عن مساوئه ومحاسنه عن معونة الاخ اللبيب الواد الذى يكون منه بمنزلة المرآة فيريه حسن أحواله حسنا وسيئها سيئا

وأحق الناس بذلك وأحوجهم اليه الرؤساء فأن هؤلاء لما خرجوا عن سلطان التثبت وعن ملكة التصنع تركوا الا كثرات السقطات وتعقب الهفوات بالندمات فاستمرت عادتهم عن كثرة الاسترسال وقلة الاحتشام الاقليلا منهم برعت عقولهم ورجحت أحلامهم وتقدمت فى ضبط نفوسهم بصائرهم فحسنت سيرتهم واستقامت طريقهم ومما زاد فى عظم بلائهم با كتتام عيوبهم عنهم انهم هيبوا عن التعبير بالمعايب مواجهة وعن النقص ولذم مشافهة وخيفوا فى اعلان الثلب والغضب والشنع والجذب والهمز واللمز يظهر العيب فلما انقطع علم ذلك عنهم ظنوا ان المعايب تخطتهم والمثالب جاوزتهم فلم تعرح بخططهم ولم تعرس بأفنيتهم

وليس كذلك حال من دونهم من الرعاع والسوقة فان أحدهم لورام أن يخفى عنه عيوبه ببدهة محبيها و يتدارك عليه بأقبحها ما استطاع ذلك فانه يخالط الناس ويلامسهم ضرورة والمخالطة تحدث المجادلة والمدافعة وذلك من أسباب المخاصمة والمخاصمة تؤدى الى التعايب بالمثالب والترامى بالعار وعند ذلك يكاد كل واحد من الفريقين لا يرضى بذكر حقائق عيوب صاحبه بل يتهمه بالباطل و يفتعل عليه الزور فهؤلاء قد كفوا استرشاد جلسائهم و بث الجواسيس فى تعرف عيوبهم من قبل أعدائهم فانها قد حلبت اليهم من غير هذا الطريق فأما من يسالم من السوقة الناس فلا يشاورهم و يواثبهم ولا يلاحيهم فانه لا يعدم من ينبهه على عيبه و ينصحه فى نفسه من حميم وقريب وخليط وجليس وأكيل

ومما زاد فى فساد حال الملوك والرؤساء ما اتبع لهم من قرناء السوء وقيض لهم من جلساء الشر الذين لو انهم لما نقضوا عهدهم وراغوا فى صحبتهم وغشوهم فى عشرتهم بتركهم صدقهم عن أنفسهم وتنبيههم عن عوراتهم لم يغشوهم بالثناء الكاذب ولم يغروهم بالتقريظ الباطل ولم يستدرجوهم باستصابة خطاءهم لكانوا أخف ذنوبا وان كانوا غير خارجين عن لؤم العشرة ودناءة الصحبة ولعل أحدهم اذ تسوغ فى إقامة عذره وتنطع فى تخفيف جرمه قال انما ندع نصحهم فى أنفسهم وصرفهم عن أحوالهم اشفاقا من جيئهم وحذرا من أنفتهم وخوفا من استثقالهم النصيحة فان للنصح لذعا كلذع النار وحرا كحر السنان فنحن نخاف ان فعلنا ذلك بهم أن لا نربح إلا استيحاشهم لنا ونفارهم منا وازورارهم عنا وعن عشرتنا فلان نظفر بهم مع زللهم خير لنا ولهم من أن نحرق عليهم فلاهم يبقون لنا ولا نحن نبقى لهم هذا اذا كان الصاحب رفيقا متثبتا وأما اذا كان أخرق متهورا فانه يقول لا نأمن من سقوط منزلتنا وانقطاع خلطتنا مع سورة غضبه و بادرة سطوته فيقال له انك اذا بنيت

أمرك فى صحبة من تصحب على الدين والمروءة لم يلزمك أن تراعى غيرهما فيما تأتى وتذر واذ اقتديت بهما وعشوت الى نورهما لم تضل فى طريق صحبة من صحبت

وقد قضيت فيك بأن صاحبك أحد رجلين إما حازم رفيق متثبت وإما أخرق متهوّر فالرفيق المتثبت لا حوز عليه فضل ما يسدّ به نصحك وان هو ارتاع ووجم وحمى أنفه وثنى عطفه فى أول ما يرد عليه منك فاذا تثبت وفكر وقدّر عرف الخير الذى قصدته والصلاح الذى أممته فرجع اليك أحسن الرجوع وأما الخرق المتهوّر فأنت غير آمن من خرقه فى أى حال شايعته أو خالفته وليس من الرأى لك أن تصحب من هذه صفته فتحتاج الى هدايته

واعلم انه ليس لك وان كان طريق ارشاد العاقل عن رعنه أن تركبه هائما وتسلكه خابطا ولكن ينبغى لك أن تمس العاقل بالمشورة عليه مسك الشوكة الشائكة بجسدك والقرحة الدامية من بدنك على ألين ما تمس وأرفق القول وأخفض الصوت وفى أخلى المواطن وأستر الأحوال والتعريض فيها أبلغ من التصريح وضرب الأمثال أحسن من التكشيف فان رأيت صاحبك يشرئب لقولك اذا بدرته ويهش له ويصغى اليه فأسبغ القول فى غير إفراط ولا إسهاب ولا إملال ولا تزد على الوجه الواحد من الرأى ودعه يختمر فى قلبه ويتردد فى جوانحه فيعلم بتخلى مغبته وان رأيت صاحبك لا يكترث لكلامك اذا أوردت عليه فاقطعه وأحل معناه الى غير ما أردته وأخره الى وقت نشاطه وفراغ باله

وينبغى لمن عنى بتصرف مناقبه ومثالبه أن يفحص عن أخلاق الناس ويتفقد شيمهم وخلائقهم ويتبصر مناقبهم ومثالبهم فيقيسها بما عنده منها ويعلم انه مثلهم وانهم أمثاله فان الناس أشباههم كأسنان المشط فاذا رأى المنقبة الحسنة فليعلم ان فيه مثلها إما ظاهرة وإما مغمورة فان كانت ظاهرة فليراعها وليواظب عليها حتى لا تبيد ولا تضمحل وان كانت مغمورة فليثرها وليحيها وليحافظ على استدعائها فانها تجيب بأهون سعى وأسرع وقت واذا رأى المثلبة والعادة السيئة والخلق اللئيم فليعلم ان مثلها راهن لديه إما باد وإما كامن فان كان باديا فليقمعه وليقهره وليمته بقلة استعماله وشدة نسيانه وان كان كامنا فليحرسه لئلا يظهر

وينبغى للانسان أن يعد نفسه ثوابا وعقابا يسوسها به فاذا حسنت طاعتها وسلس انقيادها لما يسومها من قبول الفضائل وترك الرذائل اذا أتت بخلق كريم أو منقبة شريفة أثابها باكثار حمدها وجلب السرور لها وتمكينها من بعض لذاتها واذا ساءت طاعتها وامتنع انقيادها وجمحت فلم يسلس عنانها وآثرت الرذائل على الفضائل وأتت بخلق لئيم أو فعل

ذميم عاقبها باكثار ذمها ولومها وجلب عليها شدة الندامة ومنعها لذتها حتى تلين له

﴿ في سياسة الرجل دخله وخرجه ﴾

ان حاجة الناس الى الاقوات دعت كل واحد منهم الى السعي في اقتناء قوته من الوجه الذي ألهمه الله قصده وسبب رزقه من وجوه المطالب وسبل المكاسب ولما كان الناس في باب المعيشة صنفين صنفا مكفيا سعيه برزق مهنأ سبب له من وراثة أو جناه وصنفا محوجا فيه الى الكسب ألهم هذا الصنف التسبب الى الاقوات بالتجارات والصناعات وكانت الصناعات أوثق وأبقى من التجارات لأن التجارة تكون بالمال والمال وشيك الفناء عتيد الآفات كثير الجوائح وصناعات ذوي المروءة ثلثة أنواع نوع من حيز العقل وهو صحة الرأي وصواب المشورة وحسن التدبير وهو صناعة الوزراء والمدبرين وأرباب السياسة والملوك ونوع من حيز الادب وهو الكتابة والبلاغة وعلم النجوم وعلم الطب وهو صناعة الادباء ونوع من حيز الايدي والشجاعة وهو صناعة الفرسان والاساورة فمن رام احدى هذه الصناعات فليقتد بأحكامها والتقدم فيها حتى يكون من أصحابها موصوفا بالفصاحة غير مدخول ولا مؤخر

وليعلم انه ليس شئ أزين بالرجل من رزق واسع وافق منه استحقاقا تاما ليطلب معيشته بصناعة على أعف الوجوه وأرفقها وأعفاها وأبعدها من الشره والحرص وأنآها من الطمع الفاحش والمأكل الخبيث وليعلم ان كل فضل نيل بالمغالبة والمكابرة وبالاستكراه والمجاهدة وكل ربح حيز بالاثم والعار ومع سوء القالة وقبح الاحدوثة أو ببذل الوجه ونزف الحياء أو بثلم المروءة وتدنيس العرض رهيد وان عظم قدره نزر وان غزرت مادته وبيل وان طهرت هناءته وخيم وان كان في مرآة العين مريا وان الصفو الذي لا كدر فيه والعفو الذي لا كدح معه وان قل مقداره وخف وزنه أطيب مذاقا وأسلس مساغا وأنمى بركة وأزكى ريعا

فاذا حاز الانسان ما اكتسبه فان من السيرة العادلة في ذلك أن يكون بعضه مصروفا في الصدقات والزكوات وأرباب المعروف وبعضه مستبقى مدخرا لنوائب الدهر واحداث الزمان فأما الزكوات والصدقات فينبغي ان يكون اخراجها بطيب النفس وحسن النية وانشراح الصدر والثقة بأنها العدة ليوم الفاقة وان يوضع معظمها في أهل الخلة ممن يساتر الناس بفقره ولا يهتك ستر الله تعالى عن حاله ويتوخى بباقيها من تلحقه الرقة ممن ظهرت عيلته وبدت مسكنته وأن يجعل ذلك خالصا لوجه الله ذي الجلال والاكرام فلا يستثمر له شكرا ولا يترصد له جزاء

وللمعروف شرائط احداها تعجيله أهنأله والثانية كتمانه فان كتمانه أظهر له والثالثة تصغيره فان تصغيره أكبرله والرابعة ربه ومواصلته فان قطعه ينسى أوله ويمحو أثره والخامسة اختيار موضعه فان الصنيعة اذا لم توضع عند من يحسن احتمالها ويؤدي شكرها وينشر محاسنها ويقابلها بالود والموالاة كانت كالبذر الواقع في الارض السبخة التي لا تحفظ الحب ولا تنبت الزرع

فأما النفقات فان سدادها واصلاح أمرها بين السرف والشح مترددبين التضييع والتقدير خلاف بارا ء ذلك أمر يوجب حسن التثبت وهو أنه متى استوفى الانسان حقوق التقدير كلها واستعرف شرائط الاقتصاد أجمع لم يسلم في ذلك على غميزة العامز وذلك النصفة وعموم الجور في العضيهة وشمول البغضاء الموكلة بكل مروءة تامة والحسد المغرى بكل مجد باذخ وشرف شامخ فلهذا ينبغي للعاقل أن يبني بعض أمره في الاتفاق على عقول عوام الناس وأن يستعمل كثيرا من التجوز والاعضاء في المواضع التي يخشى فيها شبه السرف وعار التضييع فان من يمدح السرف من العوام أكثر ممن يمدح الاقتصاد ويؤثر التقدير كما أن من يمدح الاقتصاد ويؤثر التقدير أحص وأتم عقلا وأحزم رأيا

فأما الدخيرة فلا ينبغي للعاقل أن يغفلها متى أمكنته فان الانسان متى بدهه صرف الزمان بحاجة لم يكن مستظهر الحال فوق حاله واضطر الى الاستعانة بالحال الحاضرة فيفصمها عروة عروة حتى يبقى معدما والله ولي الكفاية وحسن الدفاع

﴿ سياسة الرجل أهله ﴾

ان المرأة الصالحة شريكة الرجل في ملكه وقيمته في ماله وخليفته في رحله وخير النساء العاقلة الدينة الحيية الفطنة الودود الولود القصيرة اللسان المطاوعة العنان الناصحة الجيب الأمينة العيب الرزان في مجلس الوقور في هيئتها المهيبة في قامتها الخفيفة المبتدلة في خدمتها الروحها تحسن تدبيرها وتكثر قليله بتقديرها وتجلو أحزانه بجميل أخلاقها وتسلي همومه بلطيف مداراتها

وجماع سياسة الرجل أهله بحسم وسط ثلاثة أمور لاندعه وهي الهيبة الشديدة والكرامة التامة وشغل خاطرها بالمهم

أما الهيبة فهي اذا لم تهب زوجها هان عليها واذا هان عليها لم تسمع لأمره ولم تصغ لنهيه ثم لم تقنع بذلك حتى تقهره على طاعتها فتعود آمرة ويعود مأمورا وتصير ناهية ويصير منهيا

وترجع مدبرة وبرجع مدبرا وذلك الانتكاس والانقلاب والويل حينئذ للرجل ماذا يجلب له تمردها وطغيانها ويجنيه عليه قصر رأيها وسوء تدبيرها ويسوق اليه غيها وركوبها هواها من العار والشنار والهلاك والدمار فالهيبة رأس سياسة الرجل أهله وعمادها وهي الامر الذي ينسد به كل خلة ويتم تمامه كل نقص وينوب عن كل غائب ويغني عن كل فائت ولا ينوب عنه شيء ولا يتم دونه أمر فيما بين الرجل وأهله وليست هيبة المرأة بعلها شيأ غير اكرام الرجل نفسه وصيانة دينه ومروءته وتصديقه وعده ووعيده

أما كرامة الرجل أهله فمن منافعها أن الحرة الكريمة اذا استجلت كرامة زوجها دعاها حسن استدامتها لها ومحاماتها عليها واشفاقها من زوالها الى أمور كثيرة جميلة لم يكد الرجل يقدر على اصارتها اليها من غير هذا الباب بالتكليف الشديد والمؤونة الثقيلة على أن المرأة كلما كانت أعظم شأنا وأفخم أمرا كان ذلك أدل على نبل زوجها وشرفه وعلى جلالته وعظم خطره وكرامة الرجل أهله على ثلاثة أشياء في تحسين شارتها وشدة حجابها وترك اغارتها

وأما شغل الخاطر بالمهم فهو أن يتصل شغل المرأة بسياسة أولادها وتدبير خدمها وتفقد ما يضمه خدرها من أعمالها فان المرأة اذا كانت ساقطة الشغل خالية البال لم يكن لها هم إلا التعدي للرجال بزينتها والتبرج بهيأتها ولم يكن لها تفكير إلا في استزادتها فيدعوها ذلك الى استصغار كرامته واستقصار زمان زيادته وتسخط جملة احسانه

﴿ في سياسة الرجل ولده ﴾

ان من حق الولد على والديه إحسان تسميته ثم اختيار ظئره كي لا تكون حمقاء ولا ورهاء ولا ذات عاهة فان اللبن يعدي كما قيل فاذا فطم الصبي عن الرضاع بدئ بتأديبه ورياضة أخلاقه قبل أن تهجم عليه الأخلاق اللئيمة وتفاجئه الشيم الذميمة فان الصبي تتبادر اليه مساوئ الأخلاق وتنثال عليه الضرائب الخبيثة فما تمكن منه من ذلك غلب عليه فلم يستطع له مفارقة ولا عنه نزوعا فينبغي لقيم الصبي أن يجنبه مقابح الأخلاق وينكب عنه معايب العادات بالترهيب والترغيب والايناس والايحاش وبالاعراض والاقبال وبالحمد مرة وبالتوبيخ أخرى ما كان كافيا فان احتاج الى الاستعانة باليد لم يحجم عنه وليكن أول الضرب قليلا موجعا كما أشار به الحكماء قبل بعد الارهاب الشديد وبعد اعداد الشفعاء فان الضربة الأولى اذا كانت موجعة ساء ظن الصبي بما بعدها واشتد منها خوفه واذا كانت

الأولى خفيفة غير مؤلمة حسن ظنه بالباقي فلم يحفل به

فاذا اشتدت مفاصل الصبي واستوى لسانه وتهيأ للتلقين ووعى سمعه أخذ في تعلم القرآن وصور له حروف الهجاء ولقن معالم الدين وينبغي أن يروى الصبي الرجز ثم القصيدة فان رواية الرجز أسهل وحفظه أمكن لان بيوته أقصر ووزنه أخف ويبدأ من الشعر بما قيل في فضل الأدب ومدح العلم وذم الجهل وعيب السخف وما حث فيه على بر الوالدين واصطناع المعروف وقرى الضيف وغير ذلك من مكارم الاخلاق

وينبغي أن يكون الصبي مؤدب عاقلا ذا دين بصيرا برياضة الاخلاق حاذقا بتخريج الصبيان وقورا رزينا بعيدا من الخفة والسخف قليل التبذل والاسترسال بحضرة الصبي غير كز ولا جامد بل حلوا لبيبا ذا مروءة ونظافة ونزاهة قد خدم سراة الناس وعرف ما يتباهون به من أخلاق الملوك ويتعايرون به من أخلاق السفلة وعرف آداب المجالسة وآداب المؤاكلة والمحادثة والمعاشرة

وينبغي أن يكون مع الصبي في مكتبه صبية من أولاد الجلة حسنة آدابهم مرضية عاداتهم فان الصبي عن الصبي ألقن وعنه أخذ وبه آنس وانفراد الصبي الواحد بالمؤدب أجلب الاشياء لضجرهما فاذا راوح المؤدب بين الصبي والصبي كان ذلك أنفى للسآمة وأبقى للنشاط وأحرص للصبي على التعلم والتخرج فانه يباهي الصبيان مرة ويغبطهم مرة ويأنف من التصور عن شأوهم مرة ثم يحادث الصبيان والمحادثة تفيد انشراح العقل وتحل منعقد الفهم لان كل واحد من أولئك انما يتحدث بأعذب ما رأى وأغرب ما سمع فتكون غرابة الحديث سببا للتعجب منه والتعجب منه سببا لحفظه وداعيا الى التحدث به ثم انهم يترافقون ويتعارضون الزيادة ويتكارمون ويتعاوضون الحقوق وكل ذلك من أسباب المباراة والمباهاة والمساجلة والمحاكاة وفي ذلك تهذيب لأخلاقهم وتحريك لهممهم وتمرين لعاداتهم

واذا فرغ الصبي من تعلم القرآن وحفظ أصول اللغة نظر عند ذلك الى ما يراد أن تكون صناعته فوجه لطريقه فاذا أراد به الكتابة أضاف الى دراسة اللغة دراسة الرسائل والخطب ومناقلات الناس ومحاوراتهم وما أشبه ذلك وطورح الحساب ودخل به الديوان وعني بخطه وان أريد أخرى أخذ به فيها بعد أن يعلم مدبر الصبي ان ليس كل صناعة يرومها الصبي ممكنة له مؤاتية لكن ما شاكل طبعه وناسبه وانه لو كانت الآداب والصناعات تجيب وتنقاد بالطلب والمرام دون المشاكلة والملاءمة اذن ما كان أحد غفلا من الادب وعاريا من صناعة واذن لأجمع الناس كلهم على اختيار أشرف الآداب وأرفع الصناعات - ومن الدليل على ما قلنا

سهولة بعض الادب على قوم وصعوبته على آخرين ولذلك نرى واحدا من الناس تؤاتيه البلاغة وآخر تؤاتيه النحو وآخر تؤاتيه الشعر وآخر تؤاتيه الخطب وآخر تؤاتيه النسب ولهذا يقال بلاغة القلم وبلاغة الشعر فاذا اخرجت عن هذه الطبقة الى طبقة أخرى وجدت واحدا يختار علم الحساب وآخر يختار علم الهندسة وآخر يختار علم الطب وهكذا تجد سائر الطبقات اذا افتليتها طبقة طبقة حتى تدور عليها جميعها ولهذه الاختيارات وهذه المناسبات والمشاكلات أسباب غامضة وعلل خفية تدق عن افهام البشر وتلطف عن القياس والنظر لايعلمها إلا الله جل ذكره

وربما نافر طباع انسان جميع الآداب والصنائع فلم يعلق منها بشيء ومن الدليل على ذلك ان أناسا من أهل العقل راموا تأديب أولادهم واجتهدوا في ذلك وأنفقوا فيه الاموال فلم يدركوا من ذلك ماحاولوا فلذلك ينبغي لمدبر الصبي اذا رام اختيار الصناعة أن يزن أولا طبع الصبي ويسبر قريحته ويختبر ذكاءه فيختار له الصناعات بحسب ذلك فاذا اختار له احدى الصناعات تعرف قدر ميله اليها ورغبته فيها ونظر هل جرت منه على عرفان أم لا وهل أدواته وآلاته مساعدة له عليها أم خاذلة ثم بيت العزم فان ذلك أحزم في التدبير وأبعد من أن تذهب أيام الصبي فيما لايؤاتيه ضياعا

فاذا أوغل الصبي في صناعته بعض الوغول فمن التدبير أن يعرض للكسب ويحمل على التعيش منها فانه يحصل في ذلك له منفعتان احداهما اذا ذاق حلاوة الكسب بصناعته وعرف غناها وجداها عظيمتين لم يضجع في إحكامها وبلوغ أقصاها والثانية أنه يعتاد طلب المعيشة قبل أن يستوطئ حال الكفاية فأناقل ما رأينا من أبناء المياسير من سلم من الركون الى مال أبيه وما أعدّ له من الكفاية فلما عول على ذلك قطعه عن طلب المعيشة بالصناعة وعن التحلي بلباس الأدب فاذا كسب الصبي بصناعته فمن التدبير أن يزوج ويفرد رحله

﴿ في سياسة الرجل خدمه ﴾

ان سبيل سياسة الخدم والقوام من الانسان سبيل الجوارح من الجسد وكما أن قوما قالوا حاجب الرجل وجهه وكاتبه قلمه ورسوله لسانه كذلك نقول ان حفدة الرجل يده ورجله لان من كفاك التعاطي بيدك فقد قام عندك مقامها ومن كفاك السعي برجلك فقد ناب عنك منابها ومن حفظ لك ماتحفظه عينك فقد كفاك كفايتها فغناء الخدم عنك أيها الانسان كثير ونفع القوم اياك جزيل ولولاهم لأرتج دونك باب من الراحة كبير

ولا انسد عنك طريق من النعمة مهيع ولا ضطررت الى مواصلة القيام والقعود والى مواترة الاقبال والادبار وفى ذلك إتعاب الجسد وهو يعدّ من امارات الخفة ودلائل النزق وسبل المهانة والضعة وفيه سقوط الهيبة وذهاب الرزانة والركانة وبطلان الأبهة وطرح السمت والوقار وبثبات هذه الخصال يباين المخدوم الخادم والرئيس المرؤوس

فينبغى لك أن تحمد الله عز وجل على ما سخر لك منهم وما كفاك وأن تحوطهم ولا تقصيهم وتتفقدهم ولا تهملهم وترفق بهم ولا تحرجهم فانهم بشر يمسهم من الكلال واللغوب ومن السآمة والفتور ما يمس البشر وتدعوهم دواعى حاجاتهم وارادات أجسامهم الى ما فى طباع البشر ارادته والحاجة اليه

وطريق اتخاذ الخدم أن لا يتخذ الانسان خادما الا بعد المعرفة والاختبار له والا بعد سبره وامتحانه فان لم يستطع ذلك فينبغى أن تعمل فيه التقدير والفراسة والحدس والتوسم وأن تضرب عن الصور المتفاوتة والخلق المضطربة فان الاخلاق تابعة للخلق ومن أمثال الفرس أحسن ما فى الذميم وجهه وأن تجانب ذوى العاهات كالعوران والعرجان والبرصان ونحوهم وأن لا تثق منهم بذى الكيس الكثير والدهاء البين فانه لا يعرى من الخب ولا يسلم من المكر ويؤثر اليسير من العقل والحياء على كثير من الشهامة والحنقة

فاذا فرغ من ذلك فلينظر لأى أمر يصلح الخادم الذى يتخذه وأى صناعة ينتحل وأما الذى يظهر رجحانه فيه من الاعمال فليسنده اليه وليستكلفه اياه ولا ينقلن الخادم من عمل الى عمل ولا يحولنه من صناعة الى صناعة فان ذلك من أمتن أسباب الدمار وأقوى دواعى الفساد ومايشبه من يفعل ذلك الا بمن يكلف الخيل الكراب والبقر الاحضار لأن لكل انسان بابا من المعارف وفنا من الصناعات قد سمح له به طباعه وافادته اياه غريزته فصار لديه كالسجية التى لا حيلة فى تركها والضريبة التى لا سبيل الى مفارقتها فمن نقل الانسان الخادم عما قد أحسنه وأتقنه ومارسه ولابسه وألفه واعتاده الى ما يختاره له برأيه وينتخبه بارادته مما ينافر طباعه ويضاد جوهره أفسد عليه نظام خدمته وجبره فى طريق مهنته فعاد كالريض ثم لا يفيده مما نقله اليه بابا الا ينسيان أبوابا مما نقله عنه ومتى عاد به الى الامر الاول وجده فيه أسوأ حالا منه فيما نقله اليه

ولا ينبغى أن يكون نكير الانسان على الخادم اذا أراد الانكار عليه صرفه عنه فان ذلك من دلائل ضيق الصدر وقلة الصبر وخفة الحلم ولأنه اذا صرفه احتاج الى غيره بدلا منه واذا استمرت به هذه العادة أوشك أن يبقى بلا خادم بل ينبغى له أن يقرر فى قلوب خدمه ان

أحدا منهم لا يجد الى مفارقة رحله والخروج عن داره وكنفه سبيلا فان ذلك أتم للمروءة وأدل على الوقار والكرم وبعد فان الخادم لا يتوالى ولا يناصح ولا يشفق ولا ينظر ولا يحتاط ولا يحامي ولا يذب حتى يتحقق عنده ويصح لديه انه شريك صاحبه في نعمته وقسيمه في ملكه وجدته حتى يأمن العزل ولا يحذر الصرف ومتى ظن الخادم أن أساس حرمته غير وا طدة ووشائج ذمامه غير راسخة وان مكانه ناب به عند الذنب يواقعه والجرم يفارقه كأن مقامه على صاحبه كعابر سبيل فلا يعنى بما عناه ولا يهتم بما عراه ولم يكن همه الاذخيرة يعدها ليوم جفوة صاحبه وظهرة يرجع اليها عند نبوته وازورار جانبه وليكن عند الصاحب لخدمه دون صرفهم واخراجهم وسوى نبذهم واطراحهم منازل من الاستصلاح والتقويم فمن استقام له بالتأديب عوجه واعتدل بالثقاف أوده فليشدد به يدا ويوسعه عند الزلة عفوا ومن راجع الذنب بعد التوبة ونقض العهد بعد الانابة فليذقه طرفا من العقوبة وليمسه ببعض السطوة ولا ييأس من رشده مالم تنحل عقدة حياته ويكاشف باصراره ومن عصاه معصية صلعاء يلتف دونها أو جنى جناية شنعاء لا بقيا معها ولا في شرط السياسة اغتفارها فالرأي للصاحب البدار الى الخلاص والا فسد عليه سائر الخدم

وانقضت الأبواب التي مثلنا فيها ما يحق على الرجل فعله في تدبير نفسه وما يشتمل عليه منزله وانما ذكرنا القليل من الكثير والجمل دون التفسير ولو شرحنا كل باب بما يشاكله من أخبار الناس وأشعارهم لكان الكتاب أحسن وأكمل الا أنه يكون أكبر وأطول فأثرنا التخفيف على القارىء والتسهيل على الناظر ورب قليل أربح من كثير وصغير أتم من كبير والله ولي التوفيق والتيسير

﴿ رسالة ﴾

(تربية الاطفال وتعويدهم على الأخلاق الجيدة للغزالي)

اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبي أمانة عند والديه وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية عن كل نقش وصورة وهو قابل لكل ما نقش ومائل الى كل ما يمال به اليه فان عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة فشاركه في ثوابه أبواه وكل معلم له ومؤدب وان عود الشر أو أهمل إهمال البهائم وهلك كان الوزر في رقبة القيم عليه والوالي له . ـ قال الله عز وجل (يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا)

ومهما كان الأب يصونه عن نار الدنيا فبأن يصونه عن نار الآخرة أولى وصيانته بأن يؤديه ويهذبه ويعلمه محاسن الأخلاق ويحفظه من القرناء السوء ولا يعوده التنعم ولا يحبب اليه الزينة وأسباب الرفاهية فيضيع عمره في طلبها اذا كبر فيهلك هلاك الابد بل ينبغي أن يراقبه من أول أمره فلا يستعمل في حضانته وارضاعه الا امرأة صالحة متدينة تأكل الحلال فان اللبن الحاصل من الحرام لا بركة فيه فاذا وقع عليه نشوء الصبي انعجنت طينته من الخبث فيميل طبعه الى ما يناسب الخبائث ومهما رأى فيه مخايل التميز فينبغي أن يحسن مراقبته وأول ذلك ظهور أوائل الحياء فانه اذا كان يحتشم ويستحي ويترك بعض الأفعال فليس ذلك الا لاشراق نور العقل عليه حتى يرى بعض الأشياء قبيحا ومخالفة للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء وهذه هدية من الله تعالى اليه وبشارة تدل على اعتدال الاخلاق وصفاء القلب وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ فالصبي المستحي لا ينبغي أن يهمل بل يستعان على تأديبه بحيائه وتميزه وأول ما يغلب عليه من الصفات شره الطعام فينبغي أن يؤدب فيه مثلا أن لا يأخذ الطعام الا بيمينه وأن يقول عليه باسم الله عند أخذه وأن يأكل مما يليه وأن لا يبادر الى الطعام قبل غيره وأن لا يحدق النظر اليه ولا الى من يأكل وأن لا يسرع في الأكل وان يجيد المضغ وأن لا يوالي بين اللقم ولا يلطخ يده ولا ثوبه وأن يعود الخبز القفار في بعض الاوقات حتى لا يصير الادم حتما ويقبح عنده كثرة الأكل بأن يشبه كل من يكثر الاكل بالبهائم وبأن يذم بين يديه الصبي الذي يكثر الاكل ويمدح عنده الصبي المتأدب القليل المأكل وان يحبب اليه الايثار بالطعام وقلة المبالاة به والقناعة بالطعام الخشن أي طعام كان وأن يحبب اليه من الثياب البيض دون الملون والابريسم ويقرر عنده ان ذلك شأن النساء والمخنثين من الرجال يستنكفون منه ويكرر ذلك عليه ومهما رأى على صبي ثوبا من ابريسم ملون فينبغي أن يستنكره ويذمه

ويحفظ الصبي عن الصبيان الذين عوّدوا التنعم والرفاهية ولبس الثياب الفاخرة وعن مخالطة كل من يسمعه ما يرغبه فيه فان الصبي مهما أهمل في ابتداء نشوءه خرج في الاغلب رديء الاخلاق كذابا حسودا سروقا نماما لحوحا ذا فضول وضحك وكياد ومجانة

وانما يحفظ عن جميع ذلك بحسن التأديب ثم يشتغل في المكتب فيتعلم القرآن وأحاديث الاخبار وحكايات الابرار وأحوالهم ولينغرس في نفسه حب الصالحين ويحفظ من الأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ويحفظ من مخالطة الادباء الذين يزعمون أن ذلك من الظرف ورقة الطبع فان ذلك يغرس في قلوب الصبيان بذور الفساد ثم مهما ظهر من

الصبي خلق جميل وفعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ويمدح بين أظهر الناس فإن خالف ذلك في بعض الاحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ولا يهتك ستره ولا يكاشفه ولا يظهر له أنه يتصور أن يتجاسر أحد على مثله ولاسيما اذا استره الصبي واجتهد في اخفائه فان اظهار ذلك عليه ربما يفيده جسارة حتى لا يبالي بالمكاشفة فعند ذلك ان عاد ثانيا فينبغي أن يعاتب سرا ويعظم الامر فيه ويقال له اياك أن تعود بعد ذلك لمثل هذا وأن يطلع عليك في مثل هذا فتفتضح بين الناس ولا تكثر القول عليه بالعتاب في كل حين فانه يهون عليه سماع الملامة وركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه وليكن الاب حافظا هيبة الكلام معه فلا يوبخه الا أحيانا والأم تخوفه بالاب وتزجره عن القبائح وينبغي أن يمنع عن النوم نهارا فانه يورث الكسل ولا يمنع منه ليلا ولكن يمنع الفرش الوطيئة حتى تتصلب أعضاؤه ولا يسمن بدنه فلا يصبر عن التنعم بل يعود الخشونة في المفرش والملبس والمطعم وينبغي أن يمنع من كل ما يفعله في خفيته فانه لا يخفيه الا وهو يعتقد أنه قبيح فاذا تعود ترك فعل القبيح ويعود في بعض النهار المشي والحركة والرياضة حتى لا يغلب عليه الكسل ويعود أن لا يكشف أطرافه ولا يسرع المشي ولا يرخي يديه بل يضمهما الى صدره ويمنع من أن يفتخر على أقرانه بشيء مما يملكه والده أو بشيء من مطاعمه أو ملابسه أو لوحه ودواته بل يعود التواضع والاكرام لكل من عاشره والتلطف في الكلام معهم ويمنع من أن يأخذ من الصبيان شيأ بداله حشمة ان كان من الاولاد المحتشمين بل يعلم أن الرفعة في الاعطاء لا في الأخذ وان الأخذ لؤم وخسة ودناءة وان كان من أولاد الفقراء فيعلم أن الطمع والأخذ مهانة وذلة وان ذلك من دأب الكلب فانه يبصبص في انتظار لقمة والطمع فيها وبالجملة يقبح الى الصبيان حب الذهب والفضة والطمع فيهما أضر من آفة السموم على الصبيان بل على الاكابر أيضا

وينبغي أن يعود أن لا يبصق في مجلسه ولا يتمخط ولا يتثاءب بحضرة غيره ولا يستدبر غيره ولا يضع رجلا على رجل ولا يضع كفه تحت ذقنه ولا يعمد رأسه بساعده فان ذلك دليل الكسل ويعلم كيفية الجلوس ويمنع كثرة الكلام ويبين له ان ذلك يدل على الوقاحة وانه فعل أبناء اللئام ويمنع اليمين رأسا صادقا كان أو كاذبا حتى لا يعتاد ذلك في الصغر ويمنع أن يبتدأ بالكلام ويعود أن لا يتكلم إلا جوابا بقدر السؤال وأن يحسن الاستماع مهما تكلم غيره ممن هو أكبر منه سنا وأن يقوم لمن فوقه ويوسع له المكان ويجلس بين يديه ويمنع من لغو الكلام وفحشه ومن اللعن والسب ومخالطة من يجري على لسانه شيء من ذلك فان ذلك

يسرى لامحالة من القرناء السوء وأصل تأديب الصبيان الحفظ من قرناء السوء

ويبنغي اذا ضرب به معلمه أن لا يكثر الصراخ والشغب ولا يستشفع بأحد بل يصبر ويذكر له ان ذلك دأب الشجعان والرجال وان كثرة الصراخ دأب المماليك والنسوان

وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتاب أن يلعب لعبا جميلا يستريح اليه من تعب المكتب بحيث لا يتعب في اللعب فان منع الصبي من اللعب وارهاقه الى التعلم دائما يميت قلبه ويبطل ذكاءه وينغص عليه العيش حتى يطلب الحيلة في الخلاص منه رأسا

وينبغي أن يعلم طاعة والديه ومعلمه ومؤدبه وكل من هو أكبر منه سنا من قريب وأجنبي وأن ينظر اليهم بعين الجلالة والتعظيم وأن يترك اللعب بين أيديهم ومهما بلغ سن التمييز فينبغي أن لا يسامح في ترك الطهارة والصلاة ويؤمر بالصوم في بعض أيام رمضان ويجنب لبس الحرير والديباج والذهب ويعلم كل ما يحتاج اليه من حدود الشرع ويخوف من السرقة وأكل الحرام ومن الخيانة والكذب والفحش وكل ما يغلب على الصبيان فاذا وقع نشوه كذلك في الصبا فمهما قارب البلوغ أمكن أن يعرف أسرار هذه الأمور فيذكر له ان الأطعمة أدوية وانما المقصود منها أن يقوى الانسان بها على طاعة الله عز وجل وان الدنيا كلها لا أصل لها اذ لا بقاء لها وان الموت يقطع نعيمها وانها دار ممر لا دار مقر وان الآخرة دار مقر لا دار ممر وان الموت ينتظر في كل ساعة وان الكيس العاقل من تزود من الدنيا للآخرة حتى تعظم درجته عند الله تعالى ويتسع نعيمه في الجنان

فاذا كان نشوء الصبي صالحا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعا مؤثرا ناجعا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر وان وقع النشوء بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوقاحة وشره الطعام واللباس والتزين والتفاخر نبأ قلبه عن قبول الحق نبوة الحائط عن التراب اليابس فأوائل الأمور هي التي ينبغي أن تراعى فان الصبي بجوهره خلق قابلا للخير والشر جميعا وانما أبواه يميلان به الى أحد الجانبين قال صلى الله عليه وسلم كل مولود يولد على الفطرة وانما أبواه يهودانه وينصرانه أو يمجسانه اهـ

فالأدب حسن في الرجال والنساء جميعا ويحسن الأدب في النساء لما فيهن من رقة الطبيعة والمحاسن المعنوية فالمرأة بالأدب جميلة حسا ومعنى لان الأدب كمال اقتضته حكمة البارى عز وجل في حقهن

فالمرأة مساوية للرجل في الارومة لان أصلهما واحد كما جاء في الكتاب العزيز يا أيها

الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء

و ينبغى أن تترك المرأة على حيائها لان الحياء صفة ممدوحة فى النساء وهو زينتهن فلا تمسه التربية بمحو ولا تخفيف ويجب الاحتراز فى تدبيره بدون تبذير ولا تقتير

المقالة السادسة

﴿ فى الرياسة والسياسة ﴾

(وفيها ستة فصول)

الفصل الاول

فى

﴿ تعريف السياسة وموضوعها ﴾

عرفت العرب السياسة بانها علم يعرف منه أنواع الرياسات والاجتماعات المدنية وأحوالها من أحوال السلاطين والملوك والأمراء وأهل الاحتساب والقضاة وزعماء الأموال ووكلاء بيت المال وعمن يجرى مجراهم

وموضوعها المراتب المدنية وأحكامها ومنفعتها معرفة الاجتماعات المدنية الفاضلة والمراد وجه استيفاء كل واحد منها ودفع علل زوالها وجهات انتقالها ومن أعظم أسباب انتقال الدولة الاخلال بركن من أركان شريعتها ومن جملة مسائلها معرفة ماينبغى عليه الملك والسلطنة فى نفسه وحال أعوانه وأمر رعاياه وعمارة المدن وعند العلم مما يحتاج اليه الملوك وسائر الناس لما ان الانسان مدنيا بالطبع ويجب عليه اختيار المدينة الفاصلة مسكنا والرحيل عن المردية وأن يعلم كيف ينفع أهل مدينته وينتفع بهم

لك ولا تعجلن الى تصديق ساع فان الساعي غاش وان تشبه بالناصحين

ولا تدخل في مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر ولا جبانا يضعفك عن الامور ولا حريصا يزين لك الشره بالجور فان البخل والجبن والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله

ان شر وزرائك من كان للاشرار قبلك وزيرا ومن شركهم في الآثام فلا يكونن لك بطانة فانهم اعوان الأثمة واخوان الظلمة وأنت واجد منهم خير الخلف ممن له مثل آرائهم ونفاذهم وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم ممن لم يعاون ظالما على ظلمه ولا آثما على اثمه أولئك أخف عليك مؤونة وأحسن لك معونة وأحنى عليك عطفا لغيرك إلفا فاتخذ أولئك خاصة لخلواتك وحفلاتك - ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بمر الحق لك وأقلهم مساعدة فيما يكون منك مما كره الله لأوليائه واقعا من هواك حيث وقع

والصق بأهل الورع والصدق ثم رضهم على ان لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله فان كثرة الاطراء تحدث الزهو وتدني من العزة

ولا يكونن المحسن والمسيء عندك بمنزلة سواء فان في ذلك تزهيدا لاهل الاحسان في الاحسان وتدريبا لاهل الاساءة على الاساءة وألزم كلا منهم ما ألزم نفسه

واعلم انه ليس شيء بأدعى الى حسن ظن راع برعيته من احسانه اليهم وتخفيفه المؤونات عليهم وترك استكراهه اياهم على ما ليس قبلهم فليكن منك في ذلك أمر يجتمع لك به حسن الظن برعيتك فان حسن الظن يقطع عنك نصبا طويلا وان أحق من حسن ظنك به لمن حسن بلاؤك عنده وان أحق من ساء ظنك به لمن ساء بلاؤك عنده

ولا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامة واجتمعت بها الالفة وصلحت عليها الرعية ولا تحدثن سنة تضر بشيء من ماضي تلك السنن فيكون الأجر لمن سنها والوزر عليك بما نقضت منها

وأكثر مدارسة العلماء ومنافثة الحكماء في تثبيت ما صلح عليه أمر بلادك واقامة ما استقام به الناس قبلك

واعلم ان الرعية طبقات لا يصلح بعضها الا ببعض ولا غنى ببعضها عن بعض فمنها جنود الله ومنها كتاب العامة والخاصة ومنها قضاة العدل ومنها عمال الانصاف والرفق ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوي الحاجة والمسكنة - وكلا قد سمى الله سهمه ووضع على حده فريضة في كتابه

أو سنة نبيه صلى الله عليه وآله عهداً منه عندنا محفوظا

فالجنود باذن الله حصون الرعية وزين الولاة وعز الدين وسبل الامن وليس تقوم الرعية الا بهم ثم لاقوام للجنود الا بما يخرج الله لهم من الخراج الذي يقوون به في جهاد عدوهم ويعتمدون عليه فيما يصلحهم ويكون من وراء حاجتهم - ثم لاقوام لهذين الصنفين الا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتاب لما يحكمون من المعاقد ويجمعون من المنافع ويؤتمنون عليه من خواص الامور وعوامها - ولا قوام لهم جميعا الا بالتجار وذوي الصناعات فيما يجتمعون عليه من مرافقهم ويقيمونه من أسواقهم ويكفونهم من الترفق بأيديهم ما لا يبلغه رفق غيرهم - ثم الطبقة السفلى من أهل الحاجة والمسكنة الذين يحق رفدهم ومعونتهم وفي الله لكل سعة ولكل على الوالي حق بقدر ما يصلحه وليس يخرج الوالي من حقيقة ما ألزمه الله من ذلك الا بالاهتمام والاستعانة بالله وتوطين نفسه على لزوم الحق والصبر عليه فيما خف عليه أو ثقل

فولّ من جنودك أنصحهم في نفسك لله ولرسوله ولامامك وأنقاهم جيبا وأفضلهم حلما ممن يبطئ عن الغضب ويستريح الى العذر ويرؤف بالضعفاء وينبو على الأقوياء وممن لا يثيره العنف ولا يقعد به الضعف

ثم الصق بذوي الأحساب وأهل البيوتات الصالحة والسوابق الحسنة ثم أهل النجدة والشجاعة والسخاء والسماحة فانهم جماع من الكرم وشعب من العرف ثم تفقد من أمورهم ما يتفقد الوالدان من ولدهما ولا يتفاقمن في نفسك شيء قويتهم به ولا تحقرن لطفا تعاهدتهم به وان قل فانه داعية لهم الى بذل النصيحة لك وحسن الظن بك ولا تدع تفقد لطيف أمورهم اتكالا على جسيمها فان لليسير من لطفك موضعا ينتفعون به وللجسيم موقعا لا يستغنون عنه

وليكن آثر رؤوس جندك عندك من واساهم في معونته وأفضل عليهم من جدته بما يسعهم ويسع من وراءهم من خلوف أهليهم حتى يكون همهم هما واحدا في جهاد العدو فان عطفك عليهم يعطف قلوبهم عليك وان أفضل قرة عين الولاة استقامة العدل في البلاد وظهور مودة الرعية وانه لا تظهر مودتهم الا بسلامة صدورهم ولا تصح نصيحتهم الا بحيطتهم على ولاة أمورهم وقلة استثقال دولهم وترك استبطاء انقطاع مدتهم فأفسح في آمالهم وواصل في حسن الثناء عليهم وتعديد ما أبلى ذوو البلاء منهم فان كثرة الذكر لحسن أفعالهم تهز الشجاع وتحرض الناكل ان شاء الله ثم اعرف ان لكل امرىء منهم ما أبلى ولا تضيفن بلاء امرىء الى

غيره ولاتقصرن به دون غاية بلائه ولا يدعونك شرف امرء الى أن تعظم من بلائه ما كان صغيرا ولا ضعة امرء الى أن تستصغر من بلائه ما كان عظيما

واردد الى الله و رسوله ما يضلعك من الخطوب ويشبه عليك من الأمور فقد قال الله تعالى لقوم أحب ارشادهم (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فان تنازعتم فى شيء فردوه الى الله والرسول) فالرد الى الله الأخذ بمحكم كتابه والرد الى الرسول الأخذ بسنته الجامعة غير المفرقة

ثم اختر للحكم بين الناس أفضل رعيتك فى نفسك ممن لا تضيق به الأمور ولا تمحكه الخصوم ولا يتمادى فى الزلة ولا يحصر من الفيء الى الحق اذا عرفه ولا تشرف نفسه على طمع ولا يكتفى بأدنى فهم دون أقصاه أوقفهم فى الشبهات وآخذهم بالحجج وأقلهم تبرما بمراجعة الخصم وأصبرهم على تكشف الأمور وأصرمهم عند اتضاح الحكم ممن لا يزدهيه اطراء ولا يستميله اغراء وأولئك قليل ثم أكثر تعاهد قضائه وأفسح له فى البذل ما يزيل علته وتقل معه حاجته الى الناس وأعطه من المنزلة لديك ما لا يطمع فيه غيره من خاصتك ليأمن بذلك اغتيال الرجال له عندك فانظر فى ذلك نظرا بليغا فان هذا الدين قد كان أسيرا فى أيدى الأشرار يعمل فيه بالهوى و يطلب به الدنيا

ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختبارا ولا تولهم محاباة واثرة فانهما جماع من شعب الجور والخيانة وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الاسلام المتقدمة فانهم أكرم أخلاقا وأصح اعراضا وأقل فى المطامع إشرافا وأبلغ فى عواقب الأمور نظرا ثم أسبغ عليهم الأرزاق فان ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم وحجة عليهم ان خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم فان تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية وتحفظ من الأعوان فان أحد منهم بسط يده الى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك اكتفيت بذلك شاهدا فبسطت عليه العقوبة فى بدنه وأخذته بما أصاب من عمله ثم نصبته بمقام المذلة و وسمته بالخيانة وقلدته عار التهمة

وتفقد أهل الخراج بما يصلح أهله فان فى صلاحه وصلاحهم صلاحا لمن سواهم الا بهم لان الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الارض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج لأن ذلك لا يدرك الا بالعمارة ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره الا قليلا فان شكوا ثقلا أو علة أو انقطاع شرب أو بالة أو احالة

الارض اغمرها غرق أو أجحف بها عطش خففت عنهم بما ترجو أن يصلح به أمرهم ولا يثقلن عليك شيء خففت به المؤونة عنهم فانه ذخر يعودون به عليك في عمارة بلادك وتزيين ولايتك مع استجلابك حسن ثنائهم وتبجحك باستفاضة العدل فيهم معتمدا فضل قوتهم بما ذخرت عندهم من اجمامك لهم والثقة منهم بما عودتهم من عدلك عليهم في رفقك بهم فربما حدث من الأمور ما اذا عولت فيه عليهم من بعد احتملوه طيبة أنفسهم به فان العمران محتمل ما حملته وانما يؤتى خراب الارض من إعواز أهلها وانما يعوز أهلها لاشراف أنفس الولاة على الجمع وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر

ثم انظر في حال كتابك فول على أمورك خيرهم واخصص رسائلك التي تدخل فيها مكائدك وأسرارك بأجمعهم لوجود صالح الاخلاق ممن لا تبطره الكرامة فيجترئ بها عليك في خلاف لك بحضرة ملأ ولا تقصر به الغفلة عن ايراد مكاتبات عمالك عليك واصدار جواباتها على الصواب عنك فيما يأخذ لك ويعطي منك ولا يضعف عقدا اعتقده لك ولا يعجز عن اطلاق ما عقد عليك ولا يجهل مبلغ قدر نفسه في الأمور فان الجاهل بقدر نفسه يكون بقدر غيره أجهل ثم لا يكن اختيارك اياهم على فراستك واستنامتك وحسن الظن منك فان الرجال يتعرفون لفراسات الولاة بتصنعهم وحسن خدمتهم وليس وراء ذلك من النصيحة والأمانة شيء ولكن اختبرهم بما ولوا للصالحين قبلك فاعمد لأحسنهم كان في العامة أثرا وأعرفهم بالأمانة وجها فان ذلك دليل على نصيحتك لله ولمن وليت أمره واجعل لرأس كل أمر من أمورك رأسا منهم لا يقهره كبيرها ولا يتشتت عليه كثيرها ومهما كان في كتابك من عيب فتغابيت عنه ألزمته

ثم استوص بالتجار وذوي الصناعات وأوص بهم خيرا المقيم منهم والمضطرب بماله والمترفق ببدنه فانهم مواد المنافع وأسباب المرافق وجلابها من المباعد والمطارح في برك وبحرك وسهلك وجبلك وحيث لا يلتئم الناس لمواضعها ولا يجترئون عليها فانهم سلم لا تخاف بائقته وصلح لا تخشى غائلته وتفقد أمورهم بحضرتك وفي حواشي بلادك واعلم مع ذلك أن في كثير منهم ضيقا فاحشا وشحا قبيحا واحتكارا للمنافع وتحكما في البياعات وذلك باب مضرة للعامة وعيب على الولاة فامنع من الاحتكار فان رسول الله صلى الله عليه وآله منع منه وليكن البيع بيعا سمحا بموازين عدل وأسعار لا تجحف بالفريقين من البائع والمبتاع فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه فنكل به وعاقب في غير اسراف

ثم الله الله في الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم والمساكين والمحتاجين وأهل البؤسى

والزمنى فان فى هذه الطبقة قانعا ومعترا واحفظ الله ما استحفظك من حقه فيهم واجعل لهم قسما من بيت مالك وقسما من غلات صوافى الاسلام فى كل بلد فان للاقصى منهم مثل الذى للادنى وكل قد استرعيت حقه فلا يشغلنك عنهم بطر فانك لا تعذر بتضييعك التافه لاحكامك الكثير المهم فلا تشخص همك عنهم ولا تصعر خدك لهم وتفقد أمور من لا يصل اليك منهم ممن تقتحمه العيون وتحقره الرجال ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع فليرفع اليك أمورهم ثم اعمل فيهم بالاعذار الى الله يوم تلقاه فان هؤلاء من بين الرعية أحوج الى الانصاف من غيرهم وكل فاعذر الى الله فى تأدية حقه اليه وتعهد أهل اليتم وذوى الرقة فى السن ممن لا حيلة له ولا ينصب للمسئلة نفسه وذلك على الولاة ثقيل والحق كله ثقيل وقد يخففه الله على أقوام طلبوا العاقبة فصبروا أنفسهم ووثقوا بصدق وعود الله لهم

واجعل لذوى الحاجات منك قسما تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلسا عاما فتتواضع فيه لله الذى خلقك وتقعد عنهم جندك وأعوانك من احراسك وشرطك حتى يكلمك متكلمهم غير متتعتع فانى سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول فى غير موطن (لن تقدس أمة لا يؤخذ للضعيف فيها حقه من القوى غير متتعتع) ثم احتمل الخرق منهم والعى ونح عنهم الضيق والأنف يبسط الله عليك بذلك اكناف رحمته ويوجب لك ثواب طاعته وأعط ما أعطيت هنيأ وامنع فى اجمال واعذار

ثم أمور من أمورك لابد لك من مباشرتها منها اجابة عمالك بما يعيى عنه كتابك ومنها اصدار حاجات الناس يوم ورودها عليك مما تحرج به صدور أعوانك وامض لكل يوم عمله فان لكل يوم ما فيه واجعل لنفسك فيما بينك وبين الله أفضل تلك المواقيت وأجزل تلك الأقسام وان كانت كلها لله اذا صلحت فيها النية وسلمت منها الرعية

وليكن فى خاصة ما تخلص به لله دينك إقامة فرائضه التى هى له خاصة فاعط الله من بدنك فى ليلك ونهارك ووف ما تقربت به الى الله من ذلك كاملا غير مثلوم ولا منقوص بالغا من بدنك ما بلغ واذا قمت فى صلاتك للناس فلا تكونن منفرا ولا مضيعا فان فى الناس من به العلة وله الحاجة وقد سألت رسول الله صلى الله عليه وآله حين وجهنى الى اليمن كيف أصلى بهم فقال (صل بهم كصلاة أضعفهم وكن بالمؤمنين رحيما)

وأما بعد فلا تطولن احتجابك عن رعيتك فان احتجاب الولاة عن الرعية شعبة من الضيق وقلة علم بالأمور والاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه فيصغر عندهم

عظم الصغير ويقبح الحسن ويحسن القبيح ويشاب الحق بالباطل وانما الوالى بشر لا يعرف ما توارى عنه الناس به من الأمور وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب وانما أنت أحد رجلين أما امرؤ سخت نفسك بالبذل فى الحق ففيم احتجابك من واجب حق تعطيه أو فعل كريم تسديه أو مبتلى بالمنع فما أسرع كف الناس عن مسألتك اذا أيسوا من بذلك مع ان أكثر حاجات الناس اليك مما لا مؤونة فيه عليك من شكاة مظلمة أو طلب انصاف فى معاملة

ثم ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف فى معاملة فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك قطيعة ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم فيكون مهنأ ذلك لهم دونك وعيبه عليك فى الدنيا والآخرة

وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد وكن فى ذلك صابرا محتسبا واقعا ذلك من قرابتك وخاصتك حيث وقع وابتغ عاقبته بما يثقل عليك منه فان مغبة ذلك محمودة

وان ظنت الرعية بك حيفا فأصحر لهم بعذرك واعدل عنك ظنونهم باصحارك فان فى ذلك رياضة منك لنفسك ورفقا برعيتك واعذارا تبلغ به حاجتك من تقويمهم على الحق

ولا تدفعن صلحا دعاك اليه عدوك ولله فيه رضى فان فى الصلح دعة لجنودك وراحة من همومك وأمنا لبلادك ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه فان العدو ربما قارب ليتغفل فخذ بالحزم واتهم فى ذلك حسن الظن وان عقدت بينك وبين عدوك عقدة أو ألبسته منك ذمة فحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالأمانة واجعل نفسك جنة دون ما أعطيت فانه ليس من فرائض الله شئ الناس أشد عليه اجتماعا مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود وقد لزم ذلك المشركون فيما بينهم دون المسلمين لما استوبلوا من عواقب الغدر فلا تغدرن بذمتك ولا تخيسن بعهدك ولا تختلن عدوك فانه لا يجترئ على الله إلا جاهل شقى وقد جعل الله عهده وذمته أمنا أفضاه بين العباد برحمته وحريما يسكنون الى منعته ويستفيضون الى جواره فلا ادغال ولا مدالسة ولا خداع فيه ولا تعقد عقدا تجوز فيه العلل ولا تعولن على لحن قول بعد التأكيد والتوثقة ولا يدعونك ضيق أمر لزمك فيه عهد الله الى طلب انفساخه بغير الحق فان صبرك على ضيق أمر ترجو انفراجه وفضل عاقبته خير من غدر تخاف تبعته وان تحيط بك من الله فيه طلبة فلا تستقيل فيها دنياك ولا آخرتك

اياك والدماء وسفكها بغير حلها فانه ليس شئ ادعى لنقمة ولا أعظم لتبعة ولا أحرى بزوال

نعمتو انقطاع مدتة من سفك الدماء بغير حقها والله سبحانه مبتدى بالحكم بين العباد فيما تسافكوا من الدماء يوم القيامة فلا تقوين سلطانك بسفك دم حرام فان ذلك مما يضعفه و يوهنه بل يزيله و ينقله ولا عذر لك عند الله ولا عندى فى قتل العمد لان فيه قود البدن وان ابتليت بخطأ أو أفرط عليك سوطك أو سيفك أو يدك بعقوبة فان فى الوكزة فما فوقها مقتلة فلا تطمحن بك نخوة سلطانك عن أن تؤدى الى أولياء المقتول حقهم

واياك والاعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الاطراء فان ذلك من أوثق فرص الشيطان فى نفسه ليمحق ما يكون من احسان المحسنين

واياك والمن على رعيتك باحسانك أو التزيد فيما كان من فعلك أو ان تعدهم فتتبع موعدك بخلفك فان المن يبطل الاحسان والتزيد يذهب بنور الحق والخلف يوجب المقت عند الله والناس قال الله تعالى كبر مقتا عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون

واياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التسقط فيها عند امكانها أو اللجاجة فيها اذا تنكرت أو الوهن عنها اذا استوضحت فضع كل أمر موضعه وأوقع كل أمر موقعه

واياك والاستئثار بما الناس فيه اسوة والتغابى عما يعنى به مما قد وضح للعيون فانه مأخوذ منك لغيرك وعما قليل تنكشف عنك أغطية الأمور و ينتصف منك للمظلوم

املك حمية أنفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار ولن تحكم ذلك من نفسك حتى تكثر همومك بذكر المعاد الى ربك

والواجب عليك أن تتذكر ما مضى لمن تقدمك من حكومة عادلة أو سنة فاضلة أو أثر عن نبينا صلى الله عليه وآله أو فريضة فى كتاب الله فتقتدى بما شاهدت مما عملنا به فيها وتجتهد لنفسك فى اتباع ما عهدت اليك فى عهدى هذا واستوثقت به من الحجة لنفسى عليك لكيلا تكون لك علة عند تسرع نفسك الى هواها

وأنا أسأل الله بسعة رحمته وعظيم قدرته على اعطاء كل رغبة أن يوفقنى واياك لما فيه رضاه من الاقامة على العذر الواضح اليه والى خلقه مع حسن الثناء فى العباد وجميل الأثر فى البلاد وتمام النعمة وتضعيف الكرامة وأن يختم لى ولك بالسعادة والشهادة إنا اليه راغبون والسلام على رسول الله صلى الله عليه وآله الطيبين الطاهرين وسلم تسليما كثيرا والسلام

﴿ كتاب طاهر بن الحسين قائد المأمون ﴾

لابنه عبد الله بن طاهر لما ولاه المأمون الرقة ومصر وما بينهما فكتب اليه أبو طاهر كتابه المشهور عهد اليه فيه ووصاه بجميع ما يحتاج اليه في دولته وسلطانه من الآداب الدينية والخلقية والسياسات الشرعية والملوكية وحثه على مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم بما لا يستغني عنه ملك ولا سوقي

أما بعد — عليك بتقوى الله عز وجل ولا شريك له وخشيته ومراقبته ومزايلة سخطه واحفظ رعيتك في الليل والنهار والزم ما ألبسك الله في العافية بالذكر لمعادك وما أنت صائر اليه وموقوف عليه ومسؤول عنه والعمل في ذلك كله بما يعصمك الله عز وجل وينجيك يوم القيامة من عقابه وأليم عذابه فان الله سبحانه وتعالى قد أحسن اليك وأوجب عليك الرأفة لمن استرعاك أمرهم من عباده وألزمك العدل فيهم والقيام بحقه وحدوده عليهم والذب عنهم والدفع عن حريمهم وبيضتهم والحقن لدمائهم والامن لسبلهم وادخال الراحة عليهم ومؤاخذك بما فرض عليك وموقفك عليه ومالك عنهم ومسيبك عليه بما قدمت وأخرت وفرغ لذلك فهمك وعقلك وبصرك ولا يشغلك عنه شاغل فانه رأس أمرك وملاك شأنك وأول ما يوفقك الله عز وجل به لرشدك وليكن أول ما تلزم به نفسك وينسب اليه فعالك المواظبة على ما افترضه الله عز وجل عليك من الصلوات الخمس والجماعة عليها بالناس قبلك وعلى سنتها من أسباغ الوضوء وافتتاح ذكر الله عز وجل فيها وترتل في قراءتك وتمكن في ركوعك وسجودك وتشهدك ولتصدق فيها لربك ونيتك واحضض عليها جماعة من معك وتحت يدك وإدأب عليها فانها كما قال عز وجل تنهى عن الفحشاء والمنكر ثم اتبع ذلك بالأخذ بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم والمثابرة على خلائقه واقتفاء آثار السلف الصالح من بعده فاذا ورد عليك أمر فاستعن بالله عليه باستخارة الله عز وجل وتقواه ولزوم ما أنزل الله تعالى في كتاب من أمره ونهيه وحلاله وحرامه وائتمام ما جاءت به الآثار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قم فيه بما يحق الله عز وجل عليك ولا تميلن عن العدل فيما أحببت أو كرهت لقريب من الناس أو بعيد وآثر الفقه وأهله والدين وحملته وكتاب الله عز وجل والعاملين به فان أفضل ما يزين به المرء الفقه في دين الله والطلب له والحث عليه والمعرفة بما يتقرب به منه الى الله عز وجل فان الدليل على الخير كله والقائد اليه والآمر به والناهي عن المعاصي كلها وبها مع توفيق الله يزداد العبد معرفة

واجلالا ودركا للدرجات العلى فى المعادمع ما فى ظهوره وللناس من التوقير لامرك والهيبة لسلطانك والانس بك والثقة لعدلك وعليك بالاقتصاد فى الامور كلها فليس شيء أبين نفعا ولا أحضر أمنا ولا أجمع فضلا منه والقصد داعية الى الرشد والرشد دليل على التوفيق والتوفيق قائد الى السعادة وقوام الدين والسنن الهادية بالاقتصاد فأثره فى دنياك كلها ولا تقصر فى طلب الآخرة والاعمال الصالحة والسنن المعروفة ومعالم الرشد ولا غاية لاستكثار البر والسعي له اذا كان يطلب به وجهه ومرضاته ومرافقة أولياء الله فى دار كرمته

واعلم ان القصد فى شأن الدنيا يورث العز ويحصن من الذنوب وانك لن تحوط نفسك ومن تبتك ولا تستصلح أمورك بأفضل منه فأته واهتد به تتم أمورك وتزد مقدرتك وتصلح خاصتك وعامتك وأحسن ظنك بالله عز وجل تستقم لك رعيتك والتمس الوسيلة اليه فى الامور كلها تستدم به النعمة عليك ولا تتهمن أحدا من الناس فيما توليه من عملك قبل أن تكشف أمره فان ايقاع السهم بالبرآء والظنون السيئة بهم مأثم فاجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك وأطرد عنك سوء الظن بهم وأرفضه فيهم يغنك ذلك عن اصطناعهم ورياضتهم ولا يجدن عدو الله الشيطان فى أمرك مغمزا فانه انما يكتفى بالقليل من وهنك فيدخل عليك من الغم فى سوء الظن ما ينغص لذادة عيشك واعلم انك تجد بحسن الظن قوة وراحة وتكتفى به ما أحببت كفايته من أمورك وتدعوا به الناس الى محبتك والاستقامة فى الأمور كلها ولا يمنعك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك والمباشرة لامور الأولياء والحياطة للرعية والنظر فيما يقيمها ويصلحها بل لتكن المباشرة لامور الاولياء والحياطة للرعية فى النظر فى حوائجهم وحمل مؤناتهم آثر عندك مما سوى ذلك فانه أقوم للدين وأحيا للسنة وأخلص فى نيتك فى جميع هذا وتفرد لتقويم نفسك تفرد من يعلم انه مسؤول عما صنع ومجزى بما أحسن ومأخوذ بما أساء فان الله عز وجل جعل الدين حرزا وعزا ورفع من أتبعه وعززه فأسلك بمن تسوسه وترعاه نهج الدين وطريقة الهدى وأقم حدود الله عز وجل فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ولا تعجل ذلك ولا تهاون فيه ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة فان فى تفريطك فى ذلك ما يفسده عليك حسن ظنك وأعزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة وجانب البدع والشبهات ليسلم لك دينك وتقم لك مروآتك واذا عاهدت عهدا فأوف واذا وعدت الخير فانجزه وأقبل الحسنة وادفع بها واغمض عن كل ذنب من رعيتك واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وابغض أهل النميمة فان أول فساد أمورك فى عاجلها وآجلها تقريب

الكذوب والجراءة على الكذب لأن الكذب رأس المآثم والزور والنميمة خاتمها لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها لا يسلم له صاحب ولا يستقيم لطبعها أمر وأحب أهل الصلاح والصدق وأعز الأشراف بالحق وواصل الضعفاء وصل الرحم وابتغ بذلك وجه الله تعالى واعزاز أمره والتمس فيه ثوابه والدار الآخرة واجتنب سوء الأهواء والجور واصرف عنها رأيك وأظهر برأتك من ذلك لرعيتك وأنعم بالعدل في سياستهم وقم بالحق فيهم وبالمعرفة التي تنتهي بك الى سبيل الهدى واملك نفسك عند الغضب وآثر الوقار والحلم وإياك والحدة والطيش والغرور فيما أنت بسبيله وإياك ان تقول أنا مسلط أفعل ما أشاء فان ذلك سريع فيك الى نقص الرأي وقلة اليقين بالله وحده ولا شريك له واخلص لله النية فيه واليقين به - واعلم ان الملك لله يؤتيه من يشاء وينزعه ممن يشاء ولن تجد تغيير النعمة وحلول النقمة الى أحد أسرع منه الى جهلة النعمة من أصحاب السلطان والمبسوط لهم في الدولة اذا كفروا نعم الله وإحسانه واستطالوا بما آتاهم الله عز وجل من فضله ودع عنك شره نفسك ولتكن ذخائرك وكنوزك التي تدخر وتكنز البر والتقوى والعدل واستصلاح الرعية وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم والحفظ لدمائهم والاغاثة لملهوفهم

واعلم إن الأموال اذا كثرت وذخرت في الخزائن لا تنمو واذا كانت في اصلاح الرعية واعطاء حقوقهم وكف المؤنة عنهم نمت وزكت وصلحت العامة وتزينت به الولاة وطاب به الزمان واعتقد فيه العز والمنعة - فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال في عمارة الاسلام وأهله وفرق منه على أولياء أمير المؤمنين قبلك حقوقهم واوف رعيتك من ذلك حصصهم وتعهد ما يصلح أمورهم ومعاشهم فانك اذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك واستوجبت المزيد من الله عز وجل وكنت بذلك على جباية خراجك وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك وأطيب نفسا بكل ما أردت فاجهد نفسك فيما حددت لك في هذا الباب ولتعظم خشيتك فيه فانما يبقى من المال ما أنفق في سبيل الله بحقه واعرف للشاكرين شكرهم واثبهم عليه وإياك أن تنسيك الدنيا وغرورها هول الآخرة فتتهاون بما يحق عليك فان التهاون يورث التفريط والتفريط يورث البوار وليكن عملك لله عز وجل وفيه ارج الثواب فان الله سبحانه وتعالى قد سبغ نعمته عليك في الدنيا وأظهر لديك فضله فاعتصم بالشكر وعليه فاعتمد يزدك الله خيرا وإحسانا فان الله عز وجل يثيب بقدر شكر الشاكرين وسيرة المحسنين وقض الحق فيما حمل من النعم والبس من الكرامة ولا تحقرن ذنبا ولا تمالئن حاسدا ولا ترحمن

فاجرا ولاتصلن كفورا ولاتداهنن عدوا ولاتصدقن نماما ولاتأمنن غدارا ولاتوالين فاسقا ولاتتبعن غاويا ولاتحمدن مرائيا ولاتحقرن إنسانا ولاتردن سائلا فقيرا ولا تحسنن باطلا ولاتلاحظن مضحكا ولاتخلفن موعدا ولاتزهون فخرا ولاتظهرن غضبا ولاتأسين ندما ولاتمشين مرحا ولاتزكين سفيها ولاتفرطن فى طلب الآخرة ولا تدفعن الايام عتابا ولاتغمضن عن ظالم رهبة منه أو محاباة ولاتطلبن ثواب الآخرة بالدنيا وأكثر مشاورة الفقهاء واستعمل نفسك بالحلم وخذ من أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ولاتدخلن فى مشورتك أهل الرقة والبخل ولاتسمعن لهم قولا فان ضررهم أكثر من نفعهم وليس شئ أسرع فسادا لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح واعلم انك اذا كنت حريصا كنت كثير الأخذ قليل العطية واذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا فان رعيتك انما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عليهم ووال من صفا لك من أوليائك بالافضال عليهم وحسن العطية لهم فاجتنب الشح واعلم ان أول ما عصى به الانسان وبه دان العاصى بمنزلة خزى وهو قول الله عز وجل ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون فسهل طريق الجود بالحق واجعل للمسلمين كلهم من فيئك حظا ونصيبا وأيقن ان الجود من أفضل أعمال العباد فاعدده لنفسك خلقا وارض به عملا ومذهبا وتفقد الجند فى دواوينهم ومكاتبتهم وادر عليهم أرزاقهم ووسع عليهم معايشهم ليذهب الله بذلك فاقتهم فتقوى لك أمرهم وتزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصا وانشراحا وحسب ذى السلطان من السعادة أن يكون على جنده ورعيته ذا رحمة فى عدله وحيطته وانصافه وعنايته وشفقته وبره وتوسعته فزايل مكروه إحدى البابين بالاستشعار فضيلة الباب الآخر ولزوم العمل به بالحق ان شاء الله تعالى نجاحا وفلاحا

واعلم ان القضاء من الله تعالى بالمكان الذى ليس فوقه شئ من الأمور لان ميزان الله الذى تعدل عليه أحوال الناس فى الارض وباقامة الفضل والعدل فى القضاء والعمل تصلح أحوال الرعية وتأمن السبل وينتصف المظلوم وتأخذ الناس حقوقهم وتحصل المعيشة ويؤدى حق الطاعة ويرزق الله العافية والسلامة ويقوم الدين وتجرى السنن والشرائع على مجاريها وتنجز الحق والعدل فى القضاء واشتد فى الله عز وجل وتورع عن النطف وامض لاقامة الحدود واقلل العجلة وابعد عن الضجر والقلق واقنع بالقسم وليكن ريحك (١) وانتفع بتجربتك وانتبه فى صمتك واسدد فى منطقك وانصف الخصم وقف

(١) بياض بالاصل

فى الحيفة ولا تأخذن فى أحد من رعيتك محاباة ولا مجاملة ولا لومة لائم
ب وانظر وتفكر وتدبر واعتبر وتواضع لربك وارفق بجميع الرعية
وسلط الحق على نفسك ولا تسرعن الى سفك دم فأن الدماء من الله عز وجل بمكان عظيم
انتها كالها بغير حقها والنظر الى الخراج الذى استقامت عليه الرعية وجعله الله للاسلام عزا
ورفعة ولاهله توسعة ولعدده وعددهم كبتا وغيظا ولأهل الكفر من معاهدتهم ذلا
وصغارا فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ولا ترفعن منه شيأ عن
شريف لشرفه ولا غنى لغناه ولا عن كاتب لك ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ولا تأخذنه
من فوق الاحتمال ولا تكلفن امرأ فيه شطط واحمل الناس كلهم على مر الحق فان ذلك اجمع
لألفتهم والزم لرضى العامة

واعلم انك جعلت لولايتك خازنا وحافظا وراعيا وانما سمى أهل عملك رعيتك لانك
راعيهم وقيمهم تخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ونفقه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم
أودهم واستعمل عليهم ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالقلم والعلم بالسياسة
والعفاف ووسع عليهم فى الرزق فان ذلك من الحقوق اللازمة فيما تقلدت وأسند اليك ولا
يشغلك عنه شاغل ولا يصرفك عنه صارف فانك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت
به زيادة النعمة من ربك وحسن الاحدوثة فى عملك واحرزت به المحبة من رعيتك وأعنت على
الصلاح فدرت الخيرات ببلدك وفشت العمارة بناحيتك وظهر الخصب فى كورك وكثر
خراجك وتوفرت أموالك وقويت بذلك على ارتياض جندك وارضاء العامة باقضاء
العطاء فيهم من نفسك وكنت محمود السياسة مضى العدل فى ذلك عند عدوك وكنت فى
أمورك كلها ذا عدل وآلة وقوة وعدة وتنافس فى هذا ولا تقدم عليه شيأ تجد معين أمرك
ان شاء الله تعالى واجعل فى كل كورة من عملك أمينا يخبرك أخبار عمالك ويكتب اليك
سيرهم وأعمالهم حتى كأنك مع كل عامل فى عمله معاين لأموره كلها واذا أردت أن تأمرهم
بأمر فانظر فى عواقب ما أردت فان رأيت السلامة والعافية ورجوت فيه حسن الدفاع
والنصح والصنع فامضه والا فتوقف عنه وارجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته فانه ربما
نظر الرجل فى أمر من أموره وقد أتاه على ما يهوى فأغراه ذلك وأعجبه فان لم ينظر فى عواقبه
أهلكه الله ونقض عليه أمره فاستعمل الحزم فى كل ما أردت وباشره بعد عون الله بالقوة
وأكثر من استخارة ربك فى جميع أمورك وافرغ من عمل يومك الذى أخرت واعلم أن
اليوم اذا مضى ذهب بما فيه فاذا أخرت عمله اجتمع عليك عمل يومين فيشغلك ذلك حتى

تمرض منه واذا أمضيت كل يوم عمله أرحت بدنك ونفسك وأحكمت أمور سلطانك وانظر أحرار الناس وذوى السن منهم فمن تستيقن صفاء طويتهم وشهدت مودعهم لك ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك فاستخلصهم وأحسن اليهم وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة فاحتمل مؤنتهم وأصلح حالهم حتى لا يجدوا لخلتهم مساء وافرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين ومن لا يقدر رفع مظلمته اليك والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه فسل عنه واقض مسألته وكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم اليك لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم وتعاهد ذوى البأساء وأيتامهم وأراملهم واجعل لهم رزقا من بيت المال اقتداء بأمير المؤمنين فى العطف عليهم والصلة لهم ليصلح الله بذلك عيشهم ويرزقك بركة وزيادة وأجر الاجزاء من بيت المال وقدم حملة القرآن منهم والحافظين لأكثريته فى الجراية على غيرهم وانصب لمرض المسلمين دورا تودهم وقواما يرفقونه وأطباء يعالجون أسقامهم وأسعفهم بشهواتهم مالم يؤد ذلك الى سرف فى بيت المال واعلم ان الناس اذا أعطوا حقوقهم وأفضل أمانيهم لم يرضهم ولم تطلب أنفسهم دون رفع حوائجهم الى ولاتهم طمعا فى نيل الزيادة وفضل الرفق منهم وربما برم التصفح لامور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشتغل ذهنه وفكره منها بما تنال به مؤنة ومشقة وليس من يرغب فى العدل ويعرف محاسن أموره فى العاجل وفضل ثواب الآجل كالذى يستقبل ما يقربه الى الله تعالى ويلتمس رحمته فاكثر الاذن للناس عليك وأرهم وجهك وسكن لهم حراسك واخفض لهم جناحك واظهر بشرك ولن لهم فى المسألة والنطق واعطف بجودك وفضلك واذا أعطيت فاعط بسماحة وطيب نفس والتماس للصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان فان العطية على ذلك تجارة مربحة ان شاء الله تعالى واعتبر بما ترك من أمور الدنيا وممن مضى من قبلك من أهل السلطان والرياسة فى القرون الخالية والأمم البائدة ثم اعتصم فى أحوالك كلها بأمر الله سبحانه وتعالى والوقوف عند محبته والعمل بشريعته وسنته واقامة دينه وكتابه واجتنب ما فارقه ذلك وخالفه ودعا الى سخط الله عز وجل واعرف ما يجمع عمالك من الاموال وينفقون منها ولا تجمع حراما ولا تنفق اسرافا وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم وليكن هواك اتباع السنة واقامتها وايثار مكارم الاخلاق ومعاليها وليكن أكرم دخلائك عليك وخاصتك عليك من اذا رأى عيبا فيك فلا تمنعه هيبتك من انهاء ذلك اليك فى سرك واعلانك مافيك من النقص فان أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك لك وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل رجل منهم وقتا يدخل عليك فيه بكتبه

ومؤامرته وماعنده حوائج عمالك وأمور كورك ورعيتك ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك وكرر النظر والتدبر له فما كان موافقاللحق والحزم فامضه واستخر الله عز وجل فيه وما كان مخالفا لذلك فاصرفه الى التثبت فيه والمسألة عنه ولا تعنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه اليهم ولا تقبل من أحد إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور المسلمين ولا تصنعن المعروف إلا على ذلك وتفهم كتابى اليك وأكثر النظر فيه والعمل به واستعن بالله على جميع أمورك فان الله عز وجل مع الصلاح وأهله وليكن أعظم سيرتك وأفضل رغبتك ما كان لله عز وجل رضاء ولدينه نظاما ولأهله عزا وتمكينا وللذمة عدلا وصلاحا وأنا أسأل الله عز وجل أن يحسن عونك وتوفيقك ورشدك وكلاءتك والسلام

﴿ رسالة عبد الحميد الكاتب ﴾

قال أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر فى كتابه المنثور والمنظوم من رسائل المفردات رسالة عبد الحميد بن يحيى الى عبد الله بن مروان حين وجهه لمحاربة الضحاك الخارجى فى تعبية الجيوش والحروب ودفعها [illegible] فى معناه

أما بعد فان أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك الى عدو الله الجلف الجافى الأعرابى المتسكع فى حيرة الجهالة وظلم الفتنة ومهاوى الهلكة ورعاعه الذين عاثوا فى الأرض فسادا وانتهكوا حرمة الاسلام استخفافا وبدلوا نعمة الله كفرا واستحلوا دماء أهل سلمه جهلا أحب أن يعهد اليك فى لطائف أمورك وعوام شئونك ودخائل أحوالك ومصطرف تنقلك عهدا يحملك فيه أدبه ويشرع لك عظته وان كنت والحمد لله من دين الله وخلافته بحيث اصطنعك الله لولاية العهد مختصا لك بذلك دون لحمتك وبنى أبيك

ولولا ما أمر الله به دالا عليه وتقدمت المعرفة من الأولين سابقة فى (الدين) وخصيصى فى العلم لاعتمد أمير المؤمنين منك على اصطناع الله إياك بما أراك أدبه فى محبته من أمير المؤمنين وسبقك الى رغائب أخلاقه وانتزاعك محمود شيمه واستيلائك على مشابه تدبيره

ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ولقنوه إلهاما من تلقائهم ولم يتعلموا شيأ من عند غيرهم لنحلناهم علم الغيب ووضعناهم بمنزلة خالقهم المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته وفردانيته فى إلاهيته واحتجاجه منهم لتعقب فى حكمه وتثبت فى سلطانه وتنفيذ ارادته على سابق مشيئته ولكن العالم الموفق للخير مخصوص بفضل محبو بمزية العلم

أدركه معاداعليه بلطيف بحثه واذلال كنفه وصحة فهمه وهجر سآمته

وقد تقدم أمير المؤمنين اليك أخذا بالحجة عليك مؤديا حق الله الواجب عليه فى ارشادك وقضاء حقك وما ينظر الوالد المعنى الشفيق لولده وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل شئ قبيح يهش له طمع وأن يعصمك من كل مكروه حاق بأحد وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرىء فى دين أو خلق وأن يبلغه فيك أحسن مالم يزل يعوده ويريه من آثار نعمة سامية بك الى ذروة الشرف ومنجحة لك ببسطة الكرم لائحة بك فى أزهر معالى الأدب والله استخلف عليك وأسأله حياطتك وأن يعصمك من زيغ الهوى ويحضرك دواعى التوفيق معانا على الارشاد فيه فانه لايعين على الخير ولا يوفق له إلا هو

اعلم أن للحكمة مسالك تفضى مضايق أوائلها بمن أمها سالكا وركب خبارها قاصدا الى سعة عاقبتها وأمن سرحها وشرف عزها وانها لاتعاف بسخف الخفة ولاتنسى بتفريط الغفلة ولا يتعدى فيها بامن حدوقد تلقتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث فى ادراكها ولا امتطاول المنال لذروتها بل تأثلت منها أكرم معانيها واستخلصت منها أعتق جواهرها ثم شمرت الى لباب مصاصها وأحرزت منفس دخائرها فاقتعد ماأحرزت ونافس فيما أصبت

واعلم ان احتواءك على ذلك وسبقك اليه باخلاص تقوى الله فى جميع أمورك مؤثرا لها واصطبارك على طاعته واعظام ماأنعم به عليك شاكرا لها مرتبطا للمزيد بحسن الحياطة له والذب عنه ان تدخلك منه سآمة ملال أو غفلة أو ضياع أو سنة تهاون أو جهالة معرفة فان ذلك أحق مابدىء به ونظر فيه معتمدا عليه من القوة والآلة والانفراد من الأصحاب والخاصة فتمسك به لاجئا اليه واعتمد عليه مؤثرا له والجئ الى كنهه متحرزا به انه أبلغ ماطلب به رضا الله وأنجحه مسألة وأجزله ثوابا وأعوده سعيا وأعمه صلاحا وأرشدك الله لحظك وفهمك سداده وأخذ بقلبك الى محموده

ثم اجعل لله فى كل صباح ينعم عليك ببلوغه ويظهر منك السلامة فى اشراقه من نفسك نصيبا تجعله لله شكرا على ابلاغه إياك يومك ذلك بصحة وعافية بدن وسبوغ نعم وظهور كرامة وان تقرأ من كتاب الله عز وجل جزأ تردد رأيك فى أدبه وتزين لفظك بقراءته ويحضره عقلك ناظرا فى محكمه وتفهمه متفكرا فى متشابهه فان فيه شفاء القلوب من أمراضها وجلاء وساوس الشيطان وسفاسفه وضياء معالم النور تبيانا لكل شئ وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك فانه مغلاق الحسنات ومفتاح السيئات

واعلم ان كل أعدائك لك عدو يحاول هلكتك و يعترض غفلتك لانها خدع ابليس وحبائل مكره ومصائد كيدته فاحذرها مجانبا وتوقها محترسا منها واستعذ بالله من شرها وجاهدها اذا تناصرت عليك بعزم صادق لاونية فيه وحزم نافذ لامثنوية لرأيك بعد اصداره عليك وصدق غالب لامطمع في تكذيبه ومضاءة صارمة لااناة معها ونية صحيحة لاخلجة شك فيها فان ذلك ظهري صدق لك على ردها عنك وقطعها دون ماتطلع اليه منك وهي واقية لك سخطة ربك داعية لك رضا العامة ساترة عليك عيب من دونك فاز دن به ملتحفا واصب باخلاقك مواضعها الجيدة منها وتوق عليها التي تقطعك عن بلوغها وتقصر بك عن ساميها فحاول بلوغ غايته محرز الها بسبق الطلب الى اصابة الموضع محصنا لأعمالك من العجب فانه رأس الهوى وأول الغواية ومقاد الهلكة حارسا أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوئ العادات وذميم ايثارها من حيث أتت الغفلة وانتشر الضياع ودخل الوهن فتوق الآفات على عقلك فان شواهد الحق ستظهر باماراتها تصديق رأيك عند ذوي النهى وحال الرأي وفحص النظر فاجتلب لنفسك محمود الذكر وباقي لسان الصدق بالحذر لما تقدم اليك فيه أمير المؤمنين متحرزا من دخول الآفات عليك من حيث امنك وقلة ثقتك بمحكمها

ومنها أن تملك أمورك بالقصد وتصون سرك بالكتمان وتداوي جندك بالانصاف وتذلل نفسك للعدل وتحصن عيوبك بتقويم أودك وأناتك فوقها الملال وفوت العمل ومصابك فدرعها روية النظر واكتنفها باناة الحلم وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة وصمتك فانف عنه عي اللفظ وخف فيه سوء القالة واستماعك فارعه حسن التفهم وقوة باشهاد الفكر وعطاءك فامهد له بيوتات الشرف وذوي الحسب وتحرز فيه من السرف وحياءك فامنعه من الخجل وحلمك فزعه عن التهاون وأحضره قوة الشكيمة وعقوبتك فقصر بها عن الافراط وتعمد بها أهل الاستحقاق وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق وخذ به واجب المفترض وأقم به أود الدين واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المنافسة وتعهدك أمورك فخذه أوقاتا وقدره ساعات لايستفرغ قوتك ويستدعي سآمتك وعزمتك فانف عنها عجلة الرأي ولجاجة الاقدام وفرحاتك فاشكمها عن البطر وقيدها عن الزهو وروعاتك فحطها من دهش الرأي واستسلام الخضوع وحذارتك (فاصرفها) عن الجبن واعمدها بالحزم ورجاءك فقيده بخوف الفائت وامنعه من أمن الطلب

هذه جوامع دخائل النقص منها واصل الى العقل بلطائف الله وتصاريف حوله فأحكمها عارفا وتقدم في الحفظ لها معتزما على الأخذ بمراشدها والانتهاء منها الى حيث بلغت بك عظة

أمير المؤمنين وأدبه ان شاء الله

ثم ليكن بطانتك وجلساؤك فى خلواتك ودخلاؤك فى سرك أهل الفقه والورع من أهل بيتك وعامة قوادك ممن قد حنكته السن بتصاريف الأمور وخبطته فصالها بين قرائن البزل وقلبته الامور فى فنونها وركب أطوارها عارفا بمحاسن الأمور ومواضع الرأى مأمون النصيحة مطوى الضمير على الطاعة

ثم أحضرهم من نفسك وقارا تستدعى منهم بك الهيبة واستئناسا يعطف اليك منهم بالمودة وانصافا يغل أقاصيهم منك عما تكره أن ينتشر عنك من سخافة الرأى ويقطعك دون الفكر

وتعلم ان خلوت بسر فألقيت دونه ستورك وأغلقت عليه أبوابك فذلك لامحاله مكشوف للعامة ظاهر عنك وان استترب بعا ولعل وما أرى اذاعة ذلك فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به فى تلك المواطن فتقدم فى احكام ذلك من نفسك وسد خلله عنك فانه ليس أحد أسرع اليه سوء القالة ولغط العامة بخير أو شر ممن كان فى مثل حالك ومكانك الذى أصبحت به من دين الله والأمل المرجو المنتظر وإياك أن يغمز فيك أحد من عامتك وبطانة خدمك بضعفة يجد بها مساغا الى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ولا تخلو من لائمته ولا تأمن سوء القالة فيه ان نجم ظاهرا وعلن باديا ولن يجترؤا على تلك عندك الآن بر ومنك اصغاء اليها وقبولا لها وترخيصا بها

ثم إياك أن يفاض عندك بشئ من الفكاهات والحكايات والمزاح والمضاحك التى يستخف بها أهل البطالة ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ويجد فيها أهل الحسد مقالا لعيب يرفعونه ولطعن فى حق يجحدونه مع ما فى ذلك من نقص الرأى ودرن العرض وهدم الشرف وتأثيل الغفلة وقوة طباع السوء الكامنة فى بنى آدم كمون النار فى الحجر الصلد فاذا اقدح لاح شرره ولهب فى ءيضه وقد تضرمه وليست فى أحد أقوى سطوة وأظهر توقدا وأعلى كمونا وأسرع اليه بالعيب منها الى من كان فى سنك من أغفال الرجال وذوى العنفوان فى الحداثة الذين لم يقع عليهم سمات لأمور نطقا عليهم لائحها ظاهرا عليهم وسمها ولم تحضهم شهامتها مظهرة نعماه فضلهم منيعة حسن الذكر عنهم ولم يبلغ بهم الصمت فى الحركة مستمعات يدفعون بها عن أنفسهم نواطق السن أهل البغى ومواد أبصار أهل الحسد

ثم تعهد من نفسك لطيف عيب لازم لكثير من أهل السلطان والقدرة من أقطار الذرع ونخوة التيه فانها تسرع بهم الى فساد رأيهم وتهجين عقولهم فى مواطن

جة منها قلة اقتدارهم على ضبط أنفسهم فى مواكبهم ومسايرتهم العامة فمن مقلقل شخصه يكثر الالتفات تزدهيه الخفة ويبطره اجلاب الرجال حوله ومن مقبل فى موكبه على مداعبة مسايره بالمصاحبة له والتضاحك اليه والايجاف فى السير مهمرجا وتحريك الجوارح مستسرعا يخال له أن ذلك أسرع له وأخف لمطيته فلتحسن فى ذلك هيئتك ولتجمل فيه رعيتك وليقل على مسائلك إقبالك الا وأنت مطرق النظر غير ملتفت الى محدث ولا مقبل عليه بوجهك فى موكبك لمحادثته ولا تخف فى السير تقلقل جوارحك بالتحريك فان حسن مسايرة الوالى وابتداعه فى تلك من حاله دليل على كثير من عيوب أمره ومستتر أحواله

واعلم ان أقواما سيسرعون اليك بالسعاية ويأتونك من قبل النصيحة ويستميلونك باظهار الشفقة ويستدعونك بالاغراء والشبهة ويوطئونك عشوة الحيرة ليجعلوك لهم ذريعة الى استئكال العامة بموضعهم منك فى القبول منهم والتصديق لهم على من قرفوه بتهمة أو أسرعوا بك فى أمره الى الظنة فلا يصلن الى مشافهتك ساع بشبهة ولا معروف بتهمة ولا منسوب الى بدعة فيعرضك لابتداع فى دينك ويحملك على رعيتك مالا حقيقة فيه ويحملك على اعراض قوم لا علم لك بدخلهم الا بما أقدم به عليهم ساعيا وأظهر لك منهم متنصحا

وليكن صاحب شرطك ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك اليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لاولئك والمستمع لأقاويلهم والفاحص عن نصائحهم ثم لينه ذلك اليك على ما يرتفع اليه منه لتأمره بأمرك فيه وتقفه على رأيك من غير أن يظهر ذلك للعامة فان كان صوابا نالتك حظوته وان كان خطأ أقدم به جاهل أو فرطة يسعى بها كاذب فنالت الباغى منها أو المظلوم عقوبة وبدر من واليك اليه نكال لم يعصب ذلك الخطأ بك ولم تنسب الى تفريطه وخلوت من موضع الذم فيه

فافهم ذلك وتقدم الى من تولى فلا يقدم على شئ ناظرا فيه ولا يحاول أخذ أحد طارقا له ولا يعاقب أحدا منكلا به ولا يخل سبيل أحد صالحا عنه لاظهار براءته وصحة طريقته حتى يرفع اليك أمره وينهى اليك قضيته على جهة الصدق ومحض الحق

فان رأيت عليه سبيلا لحبس أو محاز لعقوبة أمرته فتولى ذلك من غير دخل له عليك ولا مشافهة منك له فكان المتولى لذلك ولا يجر على يدك مكروه ولا غلظ عقوبة وان وجدت الى العفو عنه سبيلا وكان مما قرف به خليا كنت أنت المتولى للانعام عليه بتخلية سبيله

والصفح عنه باطلاق أسره فتوليت أجر ذلك وذخره ونطق لسانه بشكرك فقرنت خصلتين ثواب الله فى الآخرة ومحمود الذكر فى العاجلة

ثم إياك وان يصل اليك أحد من جندك وجلسائك وخاصتك و بطانتك بمسألة يكشفها لك أو حاجة يبدهك بطلبها حتى يرفعها قبل الى كاتبك الذى أهدفته لذلك ونصبته له فيعرضها عليك منهيا لها على جهة صدقها ويكون على معرفة من قدرها فان أردت اسعافه ونجاح ماسئل منها أذنت له فى طلبها باسطا له كنفك مقبلا عليه بوجهك مع ظهور سرور منك بما سألك بفسحة رأى و بسطة ذرع وطيب نفس وان كرهت قضاء حاجته وأحببت رده عن طلبته وثقل عليك اسعافه بها أمرت كاتبك فصفحه عنها ومنعه من مواجهتك بها فخفت عليك فى ذلك المؤونة وحسن لك الذكر وحل على كاتبك لائمة أنت منها برىء الساحة

وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود وأتاك من الرسل فلا يصلن اليك أحد منهم الا بعد وصول علمه اليك وعلم ماقدم له عليك وجهة ماهو مكلمك وقدر ماهو سائلك إياه اذا هو وصل اليك فأصدرت رأيك فى جوابه وأجلت فكرك فى أمره وأنفذت مصدر رويتك فى مرجوع مسألته قبل مادخوله عليك وعلمه بوصول حاله اليك فرفعت عنه مؤونة البديهة وأرخيت عن نفسك خناق الروية فأقدمه على رد جوابه بعد النظر والفكرة فان دخل عليك أحد منهم فكلمك بخلاف ماأنهى الى كاتبك وطوى عنه حاجته قبلك ودفعته عنك دفعا جميلا ومنعته جوابك منعا ودفعا ثم أمرت حاجبك باظهار الجفوة له والغلظة ومنعه من الوصول اليك فان ضبطك ذلك مما يحكم لك تلك الأشياء صارفا عنك مؤونتها ان شاء الله

احذر تضييع رأيك واهمال أدبك فى مسالك الرضا والغضب واعتوارهما إياك فلا يزدهينك افراط عجب تستخفك روائعه و يستهويك منظره ولا يبدرن منك ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه وان حل بك أو حادث وان طرأ عليك وليكن لك من نفسك ظهرى ملجأ تحرز به من آفات الردى وتستعهده فى مهم نازل وتتعقب به أمورك فى التدبير فان احتجت الى مادة من عقلك وروية من فكرك أوانبساط من منطقك كان انحيازك الى ظهريك مزدادا لما أحببت الامتيار منه وان استدبرت من أمورك بوادر لهل أو مضى زلل أو معاندة حق أو خطأ تدبير كان ما احتجنت من رأيك عذرا لك عند نفسك وظهرى قوة على ردما كرهت وتخفيفا لمؤونة الباغين عليك فى القالة وانتشار الذكر وحصنا من غلوب الآفات على أخلاقك ان شاء الله

وامنع عن أهـل بطانتك وخاص خدمك وعامة رعيتك من استلحام أعراض الناس عندك بالغيبة والتقرب اليك بالسعاية والاغراء من بعض ببعض والنميمة اليك بشئ من أحوالهم المستترة عنك أو التحميل لك على أحدهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة فانه أبلغ سموا الى منال الشرف وأعون لك على محمود الذكر وأطلق لعنان الفضل فى جزالة الرأى وشرف الهمة وقوة التدبير

واملك نفسك عن الانبساط فى الضحك والانفهاق وعن القطوب باظهار الغضب وتنحله فان ذلك ضعف من سورة الجهل وخروج من انتحال اسم الفضل

وليكن ضحكك تبسما أو كبرا فى احايين ذلك وأوقاته وعند كل مرأى ملهى ومستخف مطرب وقطوبك اطراقا فى موضع ذلك وأحواله بلا عجلة الى السطوة ولا اسراع الى الطيرة دون أن يكنفها روية الحلم وتملك عليها بادرة الجهل

اذا كنت فى مجلس ملائك وحضور العامة مجلسك فاياك والرمى ببصرك الى خاص من قوادك أو ذى أثرة من حشمك وليكن نظرك مقسوما فى الجميع واعارتك سمعك ذا الحديث بدعة هادئة ووقار حسن وحضور رفهم مستجمع وقلة تضجر بالمحدث ثم لا يبرح وجهك الى بعض قوادك وحرسك متوجها بنظر ركين وتفقد محض فان وجه أحدهم نظره محدثا أو رمالك ببصره ملحا فاخفض عنه اطراقا جميلا بابداع وسكون واياك والتسرع فى الاطراق والخفة فى تصاريف النظر والالحاح على من قصد اليك فى مخاطبته اياك رامقا بنظره

واعلم ان تصفحك وجوه قوادك من قوة التدبير وشهامة القلب فتفقد ذلك عارفا بمن حضرك وغاب عنك عالما بمواضعهم من مجلسك ثم أعدهم عن ذلك سائلا عن اشغالهم التى منعتهم من حضورك وعاقتهم بالتخلف عنك ان شاء الله

ان كان أحد من أعوانك وحشمك تثق منه بعيب ضميره وتعرف منه لين طاعة وتشرف منه على صحة رأى وتأمنه على مشورتك فاياك والاقبال عليه فى حادث يرد أو التوجه نحوه بنظرك عند طروق ذلك أو ان تريه أو أحدا من أهل مجلسك ان بك اليه حاجة موحشة وان ليس بك عنه غنى فى التدبير أو انك تقتضى دونه رأيا اشراكا له فى رويتك وادخالا له فى مشورتك واضطرارا الى رأيه فان ذلك من دخائل العيوب المنتشر بها سوء القالة عن نظرائك وأخفها عن نفسك حتى لا تغفل ادكارك وأحجبها عن رؤيتك قاطعا اطماع أولئك عن مثلها عندك أو غلبتهم عليك منك

واعلم ان للمشورة موضع الخلاء وانفراد النظر فابغها محرزا لها ورمها طالبا لبيانها وإياك والقصور عن غايتها والافراط فى طلبها

احذر الاعتزام بكثرة السؤال عن حديث اما أعجبك أو أمر أما ازدهاك والقطع لحديث من اردك بحديثه حتى تنقضه عليه بالأخذ فى غيره أو المسألة عما ليس منه فان ذلك عند العامة منسوب الى سوء الفهم وقصر الأدب عن تناول محاسن الامور والمعرفة لمساوئها وانصت لمحدثك وأرعه سمعك حتى يعلم انك قد فهمت عنه واحطت معرفة بقوله فان أردت اجابته فعن معرفة حاله وبعد علم بطلبته والا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعلل من حديثه بالتبسم والاغضاء فأجرى عنك الجواب وقطع عنك السن العتب

اياك وان يظهر منك تبرم بمجلسك وتضجر بمن حضرك وعليك بالتثبت عند سورة الغضب وحمية الأنف وملال الصبر فى الامر تستعجل به والعمل تأمر بانفاذه فان ذلك سخف سائر وخفة مردية وجهاله بادية وعليك بثبوب المنطق ووقار المجلس وسكون الريح الرفض لحشو الكلام وترديد فصوله والاعتزام بالزيادات فى منطقك والترديد للفظات من نحو اسمع أو افهم أو ألا ترى أو ما يلهج به من هذه الفصول المقصرة بأهل العقل المنسوبة اليهم بالعى المردية لهم فى الذكر وخصال من معايب الملوك والسوقة عيبها عند النظر الا من عرفها من أهل الادب وقلما حامل لها مضطلع بثقلها أخذ لنفسه بجوامعها فانفها عن نفسك بالتحفظ منها واملك عنها اعتقادك معنيا بها كثرة التنخم والتبزق والتنحنح والتثاؤب والجشاء والتمطى وتنقيض الاصابع وتحريكها والعبث باللحية والشارب والمخصرة وذؤابة السيف والايماض بالنظر والاشارة بالطرف الى أحد من خدمك بأمر ان أردته والسرار فى مجلسك والاستعجال فى طعمك وشربك

ليكن مطعمك مبتدعا وشربك انفاسا وجرعك مصا واياك والتسرع فى الايمان فيما صغر أو كبر من الامور أو الشتيمة بابن الهيبة أو العمرية لاحد من خدمك وخاصتك بتسويغهم مفارقة الفسوق بحضرتك أو فى دارك وبنائك فان ذلك مما يقبح ذكره ويسوء موقع القول فيه ويحمل عليك معايبه وينالك شينه وينشر عنك سوء نباه فاعرف ذلك متوقيا له وأحذره مجانبا لسوء عاقبته

استكثر من فوائد الخير فانها تنشر المحمدة وتقيل العثرة واصطبر على الغيظ فانه يورث العز ويؤمن الساحة وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وبظر أحوالهم واستثارة دفائنهم حتى يكون على مرأى العين ويقين الخبرة فتنعش عديمهم وتجبر كسيرهم وتقيم أودهم وتعلم

جاهلهم وتستصلح فاسدهم فان ذلك من فعالك يورثك العزة ويقدمك فى الفضل ويبقى لك لسان صدق فى العامة ويحرز لك ثواب الآخرة ويرد عليك عواطفهم المستنفرة قلوبهم المستجنة عنك (وميز) بين منازل أهل الفضل فى الدين والحجى والرأى والعقل والتدبير والصيت فى العامة وبين منازل أهل النقص فى طبقات الفضل وأحواله والجود عنه تناها بأهل الحسب والنظر نصيحة لهم تنال مودة الجميع وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل وتبلغ درج الشرف فى الاحوال المتصرفة بك فاعتمد عليهم مستدخلا لهم وآثرهم بمجالستك مستمعا منهم واياك وتضييعهم مفرطا لهم واهمالهم مضيعا

هذه جوامع من خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين وجمع شواهدها مؤلفا وأهداها لك مراشد تقف عند أوامرها وتنتهى عند زواجرها وتثبت فى مجامعها وخذ بوثائق عراها تسلم من معاطب الردى وتنل أنفس الحظوظ ومزية الشرف وأعلى درج الذكر والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الارشاد وتتابع المزيد وبلوغ الأمل وأن يجعل عاقبة ذلك بك الى غبطة يسوغك إياها وعافية يحللك أكنافها ونعمة يلهمك شكرها انه الموفق للخير والمعين على الارشاد وبه تمام الصالحات وهو مؤتى الحسنات عنده مفاتيح الخير وبيده الملك وهو على كل شئ قدير

فاذا أفضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم وأخذت أهبة قتالهم فاجعل دعامتك التى تلجأ اليها وثقتك الى تأمل النجاة بها وركنك الذى ترتجى به منال الظفر وتكتهف به لمغالق الحذر تقوى الله عز وجل مستشعرا له بمراقبته والاعتصام بطاعته متبعا لأمره والاجتناب لمساخطه محتذيا سنته والتوقى لمعاصيه فى تعطيل حدوده وتعدى شرائعه متوكلا عليه فيما صمدت له واثقا بنصره فيما وجهت نحوه متبرئا من الحول والقوة فيما نالك من ظفر وتلقاك من عز راغبا فيما أهاب بك أمير المؤمنين اليه من فضل الجهاد ورمى بك اليه محمود الصبر عند الله عز وجل من قتال عدو الله للمسلمين أكلبهم عليهم وأظهرهم عداوة لهم وأفدحهم ثقلا لعامتهم وأخذة برقبهم وأعلاه عليهم بغيا وأظهره فيهم فسقا وجورا وأشده على فيئهم الذى أصاره الله لهم مؤونة

ثم خذ من معك من تبعك وجندك بكف معرتهم ورد مسمعهم على جورهم وأحكام خللهم وضم منتشر قواصيهم ولم شعث أطرافهم وحدهم عن مروا به من أهل دمتك وملتك بحسن السيرة (وعفة) الطعمة ودعة الوقار وهدى السمت وجماع النفس) محكم ذلك منهم متعقدا لهم فيه تفقدك إياه من نفسك

ثم اصمد بعدوك المتسمي بالاسلام خارجا من جماعة أهل المنتحل ولاية الدين مستحلا لدماء أوليائه طاعنا عليهم راغبا عن سنتهم مفارقا الشرائعهم يبغيهم الغوائل وينصب لهم المكايد اضرم حقدا عليهم وارصد عداوة لهم من الترك وأمم الشرك وطواغي الملل يدعو الى المعصية والفرقة والمروق من الدين الى الفتنة مخترعا بهواه الى الأديان المنتحلة والبدع المتفرقة خسارا وتخسيرا وضلالا واضلالا بغير هدى من الله ولا بيان ساء ما كسبت يداه وما الله بظلام للعبيد وبئس ما سولت له نفسه الأمارة بالسوء والله من ورائه بالمرصاد وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون

حض جندك واشكم نفسك في مجاهدة أعداء الله وارج نصره وتنجز موعده متقدما في طلب ثوابه على جهادهم معتزما في ابتغاء الوسيلة اليه على لقائهم فان طاعتك إياه فيهم ومراقبتك له ورجاءك لنصره مسهل لك وعوده وعاصمك من كل سيئة ومنجيك من كل هوة وناعشك من كل صرعة ومقيلك من كل كبوة ودارىء عنك كل شبهة ومذهب عنك لطخة كل شك ومقويك بكل أيد ومكيدة ومؤيدك في كل مجمع لقاء وحافظك من كل شبهة مردية والله وليك وولى أمير المؤمنين فيك

اعلم ان الظفر ظفران أحدهما أعم منفعة وأبلغ في حسن الذكر قالة وأحوطه سلامة وأتمه عافية وأعوده عاقبة وأحسن في الأمور موردا وأصحه في الرواية حزما وأسهله عند العامة مصدرا ما نيل بسلامة الجنود وحسن الحيلة ولطف المكيدة ويمن النقيبة بغير اخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ومبارزة الفرسان في معترك الموت وان ساعدك (الحظ) ونالك مزية لسعادة في السرف في مخاطرة التلف ومكروه المصائب وعضاض السيوف وألم الجراح وقصاص الحروب وسجالها بمعاورة ابطالها على انك لا تدري لأي الفريقين الظفر في البديهة من المغلوب في الدولة ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص فحاول أبلغهما في سلامة جندك ورعيتك وأشهرهما في بادىء رأيك وأجمعهما لالفة وليك وعدوك وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك وأقواهما في حربك وأبعدهما من وصم عزمك وأجزلهما ثوابا عندك وابدأ بالاعذار والدعاء لهم الى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة وعرى الالفة آخذا بالحجة عليهم متقدما بالانذار لهم باسطا أمانك لمن لجأ اليه منهم داعيا لهم اليه بألين لطفك ولطف حيلتك متعطفا عليهم برأفتك مترفقا بهم في دعائك مشفقا عليهم من غلبة الغواية لهم واحاطة الهلكة بهم منفذا رسلك اليهم بعد الانذار تعدهم كل رغبة يهش اليها طمعهم في موافقة الحق وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم من تبعهم موطنا نفسك

فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بوعدك والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عهدك قابلا توبة نازعهم عن الضلالة ومراجعة مسيئهم الى الطاعة مرصدا للمنحاز الى فئة المسلمين وجماعتهم اجابة الى مادعوتهم اليه وبصرته من حقك وطاعتك بفضل المنزلة واكرام المثوى وتشريف الحال ليظهر من أثرك عليه واحسانك اليه مايرغب فى مثله لصارف عنك المصر على خلافك ومعصيتك ويدعو الى الاعتلاق بحبل النجاة وماهو أملك به فى الاعتصام به عاجلا وأنجى له من العقاب آجلا وأحوط على دينه ومهجته بدأ وعاقبة فان ذلك مما يستدعى نصر الله عز وجل به عليهم وتعتصم به فى تقدمة الحجة اليهم معذرا ومنذرا ان شاء الله

ثم أذك عيونك على عدوك متطلعا لعلم أحوالهم التى ينتقلون فيها ومنازلهم التى هم بها ومطامعهم التى مدوا بها أعناقهم نحوها وأى الأمور أدعى لهم الى الصلح وأقودها لرضاهم الى العافية ومن أى الوجوه مأتاهم من قبل الشدة والمنافرة والمكيدة والمباعدة والارهاب والابعاد والترغيب والاطماع مستأنيا فى أمرك متخيرا فى رويتك متمكنا من رأيك مستشيرا لذوى النصيحة الذين قد حنكتهم التجربة ونجذتهم الحروب متسربا فى حربك آخذا بالحزم فى سوء الظن معد الحذر محترسا من الغرة كأنك منزل كله ومنازل تجمع مواقف لعدوك رأى عين تنظر حالاتهم وتخوف غاراتهم معدا أقوى مكيدتك واجد تشميرك وارهب عنادك معظما لأمر عدوك لا كثرها .... بفرط تبعة له من الاحتراس عظيما من المكيدة قويا من غير أن يفتأك عن احكام أمورك وتدبير رأيك واصدار رويتك والتأهب لحربك مصغ له بعد استشعار الحذر واطمئنان الحزم واعمال الروية واعداد الأهبة فان لقيت عدوك كليل الحد ونم النجوم نضيض الوفر لم يضررك ما أعددت له من قوة وأخذت به من حزم ولم يزدك ذلك الا جرأة عليه وتسرعا الى لقائه وان ألفيته متوقدا الجمر مستكنف التبع قوى الجمع مستعلى سورة الجهل معه من أعوان الفتنة وتبع ابليس من يوقد لهب الفتنة مسعرا ويتقدم الى لقاء ابطالها متسرعا كنت لأخذك بالحزم واستعدادك بالقوة غير مهين الجند ولا مفرط فى الرأى ولا متلهف على اضاعة تدبير ولا محتاج الى الاعداد وعجلة التأهب مبادرة تدهشك وخوف قلقك ومتى تعزم على ترفيق التوفير وتأخذ بالهوينا فى أمر عدوك لتصغر المصغرين ينتشر عليك رأيك ويكون فيه انتقاض أمرك ووهن تدبيرك واهمال الحزم فى جندك وتضييع له وهو ممكن الاصحار رحب المطلب قوى لعصمة فسيح لمضطرب مع ما يدخل رعيتك من الاغترار ولغفلة عن احكام أسرارهم وضبط مراكزهم لما يرون

من استنامتك الى الغرة وركونك الى الامن وتهاونك بالتدبير فيعود ذلك عليك فى انتشار الاطراف وضياع الاحكام ودخول الوهن بالايستقال محذوره ولا يدفع مخوفه

احفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من اخبار عدوك واياك ومعاقبة أحدهم على خبر ان أتاك به اتهمته فيه أوسوءت ظنا عليه وأتاك غيره بخلافه وان تكذبه فيه وترده عليه ولعله أن يكون من محضك النصيحة وصدقك الخبر وكذبك الأول أوخرج جاسوسك الاول متقدما قبل وصول هذا من عند عدوك ولقد أبرموا أمرا وحاولوا لك مكيدة وازدادوا منك غرة وان دفعوا اليك فى الأمر ثم انتقض بهم رأيهم واختلف عنه جماعتهم فأوردوا رأيا وأحدثوا مكيدة وأظهروا قوة وضربوا موعدا وأموا مسلكا لعدد أتاهم أوقوة حدثت لهم أو بصيرة فى ضلالة شغلتهم فالأحوال منتقلة بهم فى الساعات وطوارق الحادثات ولكن ألبسهم جميعا على الانتصاح وأرجح لهم المطامع فانك لم تستبعدهم بمثله وعدهم جزالة المثاوب فى غير ما استنامة منك الى أمر عدوك والاغترار بما لم يأتوك به دون أن تعمل رويتك فى الأخذ بالحزم والاستكثار من العدة واجعلهم أوثق من يقدر عليه ان استطعت ذلك وآمن من تسكن الى ناحيته ليكون ما يبرم عدوك فى كل يوم وليلة عندك ان استطعت فتنقض عليهم بتدبيرك ورأيك ما لم يرموا وتأتيهم من حيث أقدموا وتستعد لهم بمثل ما حذروا

واعلم ان جواسيسك وعيونك ربما صدقوك وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك فنصحوا لك وغشوا عدوك وغشوك ونصحوا عدوك وكثيرا ما يصدقونك ويصدقونه فلا يبدرن منك فرطة فى عقوبة الى أحد منهم ولا تعجل بسوء الظن الى من اتهمته على ذلك وأبسط من آمالهم فيك من غير أن ترى أحدا منهم انك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له أوعملت على رأيه عمل الصادر عنه أو رددته عليه رد المكذب له والمتهم المستخف بما أتاك منه فتفسد بذلك نصيحته وتستدعى غشه وتجترع عداوته

احذر أن يعرف جواسيسك فى عسكرك أو يشار اليهم بالاصابع وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرك ويكون هو الموجه لهم والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم واعلم ان لعدوك فى عسكرك عيونا راصدة وجواسيس كامنة وان رأيه فى مكيدتك مثل ما تكايده به وسيحتال لك كاحتيالك له ويعد لك كاعتدادك له فاحذر أن يشعر رجل من جواسيسك فى عسكرك فيبلغ ذلك عدوك ويعرف موضعه فيعد له المراصد ويحتال له بالمكايد فان ظفر به وأظهر عقوبته كسر ذلك ثقات عيونك وحوله عن تطلب الاخبار من معادنها واستقصائها من عيونها حتى يصيروا الى أخذها عن عرض من غير الثقة ولا

معاينة لعطائها بالاخبار الكاذبة والاحاديث المرجفة

واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضا فانك لا تأمن تواطؤهم عليك وممالأتهم عدوك واجتماعهم على غشك وكذبك وأن يورط بعضهم بعضا عند عدوك وأحكم أمرهم فانهم رأس مكيدتك وقوام تدبيرك وعليهم مدار حربك وهو أول ظفرك فاعمل على حسب ذلك وجنب رجاءك به نيل أملك من عدوك وقوتك على قتالهم وانتهاز فرصته ان شاء الله فاذا أحكمت ذلك وتقدمت فيه واستظهرت بالله وعونه فول شرطتك وأمر عسكرك أوثق قوادك عندك وآمنهم نصيحة وأقدمهم بصيرة في طاعتك وأقوامهم شكيمة في أمرك وأمضاهم صريمة وصدقهم عفافا وأجرأهم (جنانا) وأكفاهم أمانة وأصحهم ضميرا وأرضاهم صبرا وأحمدهم خلقا وأعطفهم على جماعتهم رأفة وأحسنهم لهم نظرا وأشدهم في دين الله وحقه صلابة ثم فوض اليه مقويا له وأبسط من أمله مظهرا عنه الرضا حامدا منه الابتلاء . وليكن عالما بمراكز الجنود بصيرا بتقديم المنازل مجربا ذا رأي وتجربة وحزم في المكيدة له نباهة في الذكر وصيت في الولاية معروف البيت مشهور الحسب وتقدم اليه في ضبط معسكرك واذكاء احراسه في آناء ليله ونهاره ثم حذره أن يكون له اذن لجنوده في الانتشار والاضطراب والتقدم للطائفة فيصاب منهم غرة يجترىء بها عدوك ويسرع اقداما عليك ويكسر من أفئدة جنودك ويوهن من قوتهم فان اصابة عدوك الرجل الواحد من جندك وعبيدك مطمع لهم منك مقولهم على شحذ اتباعهم عليك وتصغيرهم أمرك وتوهينهم تدبيرك فحذره ذلك وتقدم اليه فيه ولا يكون منه افراط في التضييق عليهم والحصر لهم فيعمهم أزله ويشملهم ضنكه ويسوء عليه حالهم وتشتد به المؤونة عليهم وتخبث له طعونهم وليكن (موضع) انزاله اياهم مستديرا ضاما جامعا ولا يكون منتشرا ممتدا فيشق ذلك على أصحاب الاحراس ويكون فيه النهزة للعدو والبعد من المدد [illegible] طرق طارق في جنبات [illegible] وبغتاته وأوعز اليه في أحراسه ومره فليول عليهم رجلا ركينا مجربا جريئا [illegible] الصرامة جلد الجوارح بصيرا بموضع أحراسه غير مصانع ولا مشفع [illegible] الرفاهة والسعة وتقدم العسكر أو التأخر عنه فان ذلك مما يضعف [illegible] ويوهنه [illegible] من ولاه ذلك وأمنه به على جيشه

واعلم [illegible] موضع الاحرس من [illegible] وضعت و[illegible] من [illegible] [illegible] والحفظ لهم والكلاءة لمن [illegible] فاوأر [illegible] [illegible] أرقائهم وأعدهم وحفظ [illegible] [illegible]

على الصرامة لمواصرتك فى كل أمر حادث وطارق الافى الملم النازل والحدث العام فانك اذا فعلت ذلك به دعوته الى نصحك واستوليت على محض ضميره فى طاعتك وأجهد نفسه فى ترتيبك واغاثتك وكان ثقتك وزينك وقوتك ودعامتك وتفرغت لمكايدة عدوك مريحا نفسك من هم ذلك والعناية به ملق عنك مؤونة باهظة وسلفة فادحة ان شاء الله

ثم اعلم ان القضاء من الله بمكان ليس به شيء من الاحكام ولا بمثله أحد من الولاة لما يجرى على يديه من مغالظ الأحكام ومجارى الحدود فليكن من توليه القضاء بين أهل العسكر من ذوى الخير فى القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع والبصر بوجوه القضايا ومواقعها قد حنكته السن وأيدته التجربة وأحكمته الامور ممن لا يتصنع للولاية ويستعد للنهزة ويجترىء على المحاباة فى الحكم والمداهنة فى القضاء عدل الامانة عفيف الطعمة حسن الانصات فهم القلب ورع الضمير متخشع السمت هادى الوقار محتسبا للخير ثم أجر عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه وفرغه لما حلته وأعنه على ماوليته فانك قد عرضته لهلكة الدنيا وثواب الآخرة أو شرف العاجلة وحظوة الآجلة ان حسنت نيته وصدقت رويته وصحت سريرته وسلط حكم الله على رعيته منفذا قضاءه فى خلقه عاملا بسنته فى شرائعه آخذا بحدوده وفرائضه

واعلم أنه من جندك ومعسكرك بحيث ولايتك وفى الموضع الجارية أحكامه عليهم النافذة أقضيته بينهم فأعرف من توليه ذلك وتسنده اليه ان شاء الله

ثم تقدم فى طلائعك فانها أول مكيدتك ورأس حربك ودعامة أمرك فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوى نجدة وبأس وصرامة وخبرة وحماة كفاة قد صلوا بالحرب وتذاوقوا سجالها وشربوا من مرارة كؤوسها وتجرعوا غصص درتها وزبنتهم بتكرارها وحلتهم على أصعب مراكبها ثم تبعهم على عينك وأعرض كراعهم بنفسك وتوخ فى انتقالهم ظهور الجلد وسجاحة الخلق وجمال الآلة واياك أن تقبل من دوابهم الاناث الخيول مهاوبة فانها أسرع طلبا وأنجى مهربا وأبعد فى اللحوق غاية وأصبر فى معترك الابطال اقداما ونجذهم من السلاح بأبدان الدروع مأذية الحديد شاكة السنخ متقاربة الحلق متلاحمة المسامير واسوق الحديد مموهة الركب محكمة الطبع خفيفة الصوغ وسواعد طبعها هندى وصوغها فارسى رقاق المعطف بأكف وافية وعمل محكم ويلق البيض مذهبة ومجردة فارسية الصوغ خالصة الجوهر سابغة الملبس وافية اللبن مستديرة الطبع مبهمة السرد وافية الوزن كتريك النعام فى الصنعة معلمة بأصناف الحرير وألوان الصبغ فانها أهيب لعدوهم وافت لأعضاد من لقيهم

والمغفر تخشى محذوره بديهة وادعة سهم السيوف الهندية وذكور البيض اليمانية رقاق الشفرات مسنونة الشحذ غير كليلة الشحذ مشطبة الضرائب معتدلة الجواهر صافية الصفائح لم يدخلها وهن الطبع ولا عابها أمت الصوغ ولا شانها خفة الوزن ولا فدح حاملها بهور الثقل قد أشرعوا لدن القنا طوال الهوادي زرق الاسنة مستوية الثعالب وميضها متوقد وشحذها متلهب معاقص عقدها منحوتة ووصم أودها مقوم أجناسها مختلفة وكعوبها جعدة وعقدها حنكة شطبة الأسنان محكمة الجلاء مموهة الاطراف مستحدة الجنبات دقاق الأطراف ليس فيها التواء أود ولا أمت وصم ولا لها سقط عيب ولا عنها وقوع أمنية مستحقب كنائن النبل وقسى الشواحط والنبع اعرابية التعقيب رومية النصول فانها أبلغ في الغاية وأنفذ في الدروع وأشك في الحديد سامطين حقائبهم على متون خيولهم مستحفين من الآلة والأمتعة الا مالا غناء بهم عنه

واحذر أن تكل مباشرة عرضهم الى أحد من أعوانك أو كتابك فانك ان وكلته اليهم أضعت موضع الحزم وفرطت حيث الرأي ووقفت دون الحزم ودخل عملك ضياع الوهن وخلص اليك عيب المحاباة وناله فساد المداهنة وغلب عليه من لا يصلح أن يكون طليعة للمسلمين ولا عدة ولا حصنا يدرؤن به ويكتنفون بموضعه

واعلم ان الطلائع عيون وحصون للمسلمين فهم أول مكيدتك وعروة أمرك وزمام حربك فليكن اعتناؤك بهم بحيث هم من مهم عملك ومكيدة حربك ثم انتخب لهم رجالا للولاية عليهم بعيد الصوت مشهور الفضل نبيه الذكر له في العدو وقعات معروفات وأيام طوال وصولات متقدمات قد عرفت نكايته وحذر شوكته وهيب صوته وتكعب لقاؤه أمين السريرة ناصح الغيب قد بلوت منه ما يسكنك الى ناحيته من لين طباعه وخالص المودة ونكاية الصرامة وغلوب الشهامة وتشجع القوة وحصافة لتدبير ثم تقدم اليه في حسن سياستهم واستنزال طاعتهم واجتلاب مودانهم واستعداد ضمائرهم وأجر عليهم أرزاقا تسعهم وتحسن أطماعهم سوى أرزاقهم في العامة وفي ذلك من القوة لك عليهم والاستنامة الى ما قبلهم

واعلم انهم في أهم الاماكن لك وأعظمها غناء عسكرك وعمن معك وأنفعها لكما وأشجى لعدوك ومتى يكون في البأس والنقة والجلد والطاعة والقوة والنصيحة حيث وصفت لك وأمرتك به تضع عنك مؤونة لهم وترخي عن حماقك دروع الخوف وتلحق لي أمر متين وظهر قوي وأمر حازم تأمن به جاآت عدوك ويصير اليك علم أحوالهم ومتقدمات خيولهم

فانتخبهم رأى عين وقوهم بما يصلحهم من المنالات والاطماع والارزاق واجعلهم منك بالمنزل الذى هم به من محارز علامتك وحصانة كهوفك وقوة سيارة عسكرك واياك أن تدخل فيهم أحد بشفاعة أو تحمله على هوادة أو تقدمه منهم لاثرة وأن يكون مع أحد منهم بغل نقل أو نتصل من الظهر أو ثقل فادح فيشتد عليهم مؤونة أنفسهم ويدخلهم كلال السآمة فيما يعالجون من أثقالهم ويشتغلون به عن عدوهم ان دهمهم منه رائع أو فاجأهم لهم طليعة فتفقد ذلك محكم له وتقدم فيه آخذا بالحزم فى إمضائه أرشدك الله لاصابة الحظ ووفقك لبين التدبير

ول تدرجة عسكرك واخراج أهله الى مصافهم ومرا كزهم رجلا من أهل بيوتات لشرف محمود الخبرة معروف النجدة داسن وتجربة لين الطاعة قديم النصيحة مأمون السريرة بصيرة فى الحق نقدمه ونية صادقة من الادهان تحجزه واضمم اليه عدة من ثقات جندك وذوى أسنانهم يكونون شرطة معه تم تقدم اليه فى اخراج المصاف واقامة الاحراس وادكاء العيون وحفظ الطرق وسد الخلل ومره فليضع القواد بأنفسهم مع أصحابهم فى مصافهم كل قائد بازاء موضعه وحيث يرتبه قد سد ما بينه وبين صاحبه بالرماح شارعة والتراس موصولة تزجين لصد كية الاحراس وجلة الروع خائفة طوارق العدو وبياته تم مره ان يخرج كل ليلة قائد من أصحابه أو عدة منهم ان كانوا كثيرا على غلوة أو غلوتين من عسكرك محصنة رائد كية حراسه قلقه التردد مفرطة الحذر معدة للروع متأهبة للقتال آخذة على الطرق العسكر ونواحيه متفرقين فى احلاوهم كردوسا كردوسا يستقبل بعضهم بعضا فى الاختلاف وكسع متقدما فى التردد فاجعل ذلك بين قوادك وأهل عسكرك نوبا معروفة وحصصا معروصة لايعدمه مرد لعائدة ذلك ولا يتحامل على أحد فيه بموجدة ان شاء الله

ووص الى أمراء جندك وقوادهم أمور أصحابهم والأخذ على أيديهم رياضة منك لهم على السمع والطاعة لامرائهم والاتباع لامرهم والوقوف عند نهيهم وتقدم الى أمراء الاجناد فى الدوشب الى أن زمتهم اياها ولاعمال التى استجدتهم لها والاسلحة والكراع التى كتبتها عليهم وحذر عتلال أحد من قودك عليك بما يحول بينك وبين جندك وتقويمهم لطاعتك وقمعهم عن الاخلال بمرا كزهم لسيئما وكلوا بهم من أعمالهم فان ذلك مفسدة للجند معى للقواد عن جد ولما يحمله ولا قدمه فى الاحكام

واعلم ان استخفافهم بقوادهم وتضييعهم أمرهم دخول الضياع على أعمالك واستخفاف أمرك الذى يأمرون به ورأيك الذى ترتئى وأوعز الى القواد أن لا يتقدم أحد منهم على

عقوبة أحد من أصحابه الاعقوبة تأديب وتقويم ميل وتثيف أود فاما عقوبة تبلغ تلف المهجة واقامة الحد فى قطع أوافراط فى ضرب أو أخذ مال أول عقوبة فى سفر فلا يلين ذلك من جندك أحد غيرك أوصاحب شرطتك بأمرك وعن رأيك واذنك ومتى لم تذلل الجند لقوادهم وتضرعهم لامرائهم يوجب عليك لهم الحجة بتضييع وان كان منهم لامرك خلل ان تهاونوا به من عمالك أو عجز ان فرط منهم فى شئ وكلتهم اليه أو اسندته اليهم ولم تجد الى الاقدام عليهم باللوم وعض العقوبة مجاز انصل به الى تعنيفهم بتفريطك فى تذليل أصحابهم لهم وافسادك أياهم عليهم فانظر فى ذلك نظرا محكما وتقدم فيه تقدما بليغا و إياك ان يدخل حزمك وهن أو عزمك امارامن رأيك ضياع والله استودع دينا فى نفسك

اذا كانت من عدوك على مسافة دانية وسنن لقاء مختصر وكان من عسكرك مقتربا قد شامت طلائعك مقدمات ضلالته وجاءة فتنته فتأهب أهبة المناجزة وأعد أعداد الحذر وكتب خيولك وعب جنوك و إياك والمسير الامقدمة وميمنة وميسرة وساقة قد شهروا بالاسلحة ونشروا البنود والاعلام وعرف جندك مراكزهم سائرين تحت ألويتهم قد أخذهم أهبة القتال واستعد واللقاء ملحين الى مواقفهم عارفين بمواضعهم من مسيرهم ومعسكرهم وليكن ترجلهم وتنزلهم على راياتهم واعلامهم ومراكزهم وعرّف كل قائد وأصحابه موقعهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة لازمين لها غير مخلين بما استنجدتهم له ولا متهاونين بما أهبت بهم اليه حتى تكون عساكرهم فى كل منهل تصل اليه ومسافة تختارها كأنه عسكر واحد فى اجتماعها على العدة وأخذها بالحزم ومسيرها على راياتها ونز ولها مراكزها ومعرفتها بمواضعها ان أضلت دابة موضعها عرف أهل العسكر من أى المراكز هى ومن صاحبها وفى أى المحل حاوله منها فردت اليه هداية ومعرفة ونسبة قيادة صاحبها فان تقدمت فى ذلك واحكمته اطراح عن جندك مؤونة الطلب وعناية المعرفة وابتغاء الضالة ثم اجعل على ساقتك أوثق أهل عسكرك فى نفسك صرامة ونفاذا ورضا فى العامة وانصافا عن نفسه للرعية وأخذا بالحق فى المعادلة مستشعرا تقوى الله وطاعته آخذا بهديك وأدبك واقفا عند أمرك ونهيك معتزما على مناصحتك وتزيينك نظيرا لك فى الحال وشبيها بك فى الشرف وعديلا فى الموضع ومقاربا فى الصيت ثم اكشف معه الجمع وأيده بالقوة وقوه بالظهر وأعنه بالاموال و عمره بالسلاح ومره بالعطف على ذوى الضعف من جندك ومن رخفت به دابته وأصابته سكتة من مرض أو رجلة أو آفة من غير أن تأذن لاحد منهم فى التنحى عن عسكره أو التخلف بعد ترجله لا لمجهود أو لمطروق بآفة

ثم تقدم اليه محذرا ومره زاجرا وانهه مغلظا بالشدة على من مرّ به منصرفا عن معسكرك من جندك بغير جوارك شادا لهم اسرا وموقرهم حديدا ومعاقبهم موجعا أو موجههم اليك فتنهكهم عقوبة وتجعلهم لغيرهم من جندك عظة

واعلم انه ان لم يكن بذلك الموضع من تسكن اليه واثقا بنصيحته عارفا ببصيرته قد بلوت منه امانة تسكنك اليه وصرامة تؤمنك مهانته ونفاذا في أمرك يرخي عنك خناق الخوف في اضاعته لم آمن تسلل الجند عنك لواذا ورفضهم مراكزهم واخلالهم بمواضعهم وتخلفهم عن أعمالهم آمنين تغيير ذلك عليهم والشدة على من اخترمه منهم ما دلك في وهالك وأخذ من قوتك وقلل من كثرتك

اجعل خلف ساقتك رجلا من وجوه قوادك جليدا ماضيا عفيفا صارما شهم الرأي شديد الحذر شكيم القوة غير مداهن في عقوبة ولا مهين في قوة في خمسين فارسا من خيلك تحشر اليك جندك ويلحق بك من يتخلف عنك بعد الابلاغ في عقوبتهم والنهك لهم والتنكيل بهم وليكن لعقوتك في المنزل الذي ترتحل عنه والمنهل الذي تتقوض منه مفرطا في النفض والتبع لمن تخلف عنك مشيدا في أهل المنهل وساكنه بالتقدم موعزا اليهم في ازعاج الجند عن منازلهم واخراجهم من مكانهم وابعاد العقوبة الموجعة والنكال المنيل في الاشعار واصفاء الاموال وهدم العقار لمن آوى منهم أحدا أو ستر موضعه وأخفى محله وحذره عقوبتك اياه في الترخيص لاحد والمحاباة لذي قرابة والاختصاص بذلك لذي أثرة أو هوادة

وليكن فرسانه منتخبين في القوة معروفين بالنجدة عليهم سوابغ الدروع دونها شعار الحشو وحب الاستحثاث متقلدين سيوفهم سامطين كنائنهم مستعدين لهيجان بدههم أو كمين أن يظهر لهم واياك أن تقبل في دوابهم إلا فرساقويا أو برزونا وثيجا فان ذلك سن أقوى القوة لهم وأعون الظهير على عدوهم ان شاء الله

ليكن رحيلك ابانا واحدا وقتا معلوما لتخف المؤونة بذلك على جندك ويعلموا أوان رحيلهم فيقدموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم وأعلاف دوابهم وتسكن أفئدتهم الى الوقت الذي وقفوا عليه ويطمئن ذوو (الحاجات) أبان الرحيل ومتى يكون رحيلك مختلفا تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ويخلوا بمراكزهم ولا يزال ذوو السفه والنزق يرحلون بالأرجاف وينزلون بالتوهم حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طمأنينة

اياك ان تنادي برحيل من منزل تكون فيه حتى يأمر صاحب تعبيتك بالوقوف على

معسكرك أخـذابفوهة جنبتيه بأسلحتهم عدة لأمر ان حضر ومفاجأة من طليعة للعدو ان أراد نهزة أو لمحت عندكم غرة ثم مر الناس بالرحيل وخيلك واقفة وأهبتك معـدة وجنتك واقيـة حتى اذا استقللتم من معسكركم وتوجهتم من منزلكم سرتم على تعبيتكم بسكون ريح وهدو وجلة وحسن دعة

فاذا انتهيتم الى منهل أردت نزوله أو هممت بالمعسكر به فاياك ونزوله إلا بعد العلم بان تعرف لك أحواله أو يسبر علم دفينه ويستبطن علم أموره ثم ينهيها اليك وماصارت اليه لتعلم كيف احتيال عسكرك وكيف مأواه وأعلامه وكيف موضع عسكرك منـه وهـل لك اذا أردت مقامابه أو مطاولة عدوك ومكايدتك فيه قوة تحملك ومدد يأتيـه فانك ان لم تفعل ذلك لم تأمن أن يهجم عـلى منزل يزعجك منـه ضيق مكانه وقلة مياهه وانقطاع موواده ان أردت بعدوك مكيدة واحتجت من أمرهم الى مطاولة فان ارتحلت منه كنت غرضا لعدوك ولم تجد الى المحاربة ولا خطار سبيلا وان أقمت به أقمت على مشقة حصر وفى أزل وضيـق فاعرف ذلك وتقدم فيه

فاذا أردت نزولا أمرت صاحب الخيـل التى رحلت النـاس فوقفت متنحية بين معسكرك عدة لأمر ان راعك ومفزع البديهة ان راعتك قـد أمنت باذن الله وحوله فجـأة عدوك وعرفت موقعها من حربك حتى يأخـذ النـاس منازلهم وتوضع الأثقـال مواضعها ويأتيك خـبر طلائعك وتخرج دباباتك من عسكرك دبابا محيطين بعسكرك وعـدة لك ان احتجت اليهم وليكن دباب جندك بعسكرك أهل جلد وقوة قائدا أو اثنين أو ثلاثة باصحابهم فى كل ليلة ويوم نوبا بينهم فاذا غربت الشمس ووجب نورها اخرج اليهم صاحب تعبيتك أبدالهم عسسا بالليل فى أقرب من مواضع دباب النهار يتعاورذلك قوادك جميعا بلا محاباة لأحد منهم فيه ولا ادهان ان شاء الله

اياك أن يكون منزلك الا فى خندق أو حصن تأمن به بيات عدوك وتستيم فيه الى الحزم من مكيدته اذا وضعت الاثقال وخططت أبنية أهل العسكر لم يمد خباء ولم ينتصب بناء حتى يقطع لكل قائد ذرع معلوم من الأرض بقدر أصحابه فيحتفروه عليهم (ويبنون) بعـد ذلك خنادق الحسك طارحين لها دون أشجار الرماح ونصب الترسة لها بابان قد وكلت بعد بحفظ كل باب منهما رجلا من قوادك فى مائة رجل من أصحابه فاذا فرغ من الخندق كان ذلك القائد ان أهلا لذلك المركز (وموضع) تلك الخيـل وكانوا هم البوابين ولاحرس لذينك الموضعين نداى الرفاهة والسعة وتقدم العسكر أو التأخر عنه فان ذلك مما يضعف الوالى ويوهنه

لاستنامته الى من ولاه ذلك وأمنه به على جيشه

واعلم انك اذا أمنت باذن الله طوارق عدوك و بغتاتهم فاذا راموا ذلك منك كنت قد أحكمت ذلك وأخذت بالجد فيه وتقدمت في الأعداد له و رتقت مخوف الفتق منه ان شاء الله

اذا ابتليت ببيات عدوك أوطرقك رائعا في حذر امعدا مشمرا عن ساقك مسربا لحربك قد قسمت دراجتك الى مواضعها على ماوصفت لك التي قدرت لك وطلائعك حيث أمرتك وجندك حيث عبأت قد خطرت عليهم بنفسك وتقدم الى جندك أن (طرق) طارق أوفاجأهم عدو لا يتكلم أحد منهم رافعا صوته بالتكبير مستغفرا في اجلاب معلنا للارهاب الا أهل الناحية (التي) يقع بها العدو طارقا وليشرعوا رماحهم مادين لها في وجوههم و يرشقهم بالنبل ملبدين ترستهم لازمين لمراكزهم .. قدم عن موضعها ولا منحازين الى غير مركزهم وليكبر والاثرات متواليات وسائر الجند هادون .. عدوك من معسكرهم فقد أهل تلك الناحية بالرجال من أعوانك وشرطك ومن انتخبت قبل ذلك عدة للشدائد وتدس لهم النشاب والرماح واياك أن يشهر واسيفا يجالدون به وتقدم اليهم فلا يكون قتالهم بالليل في تلك المواضع من طرقهم إلا بالرماح مستندين لها الى صدورهم النشاب راشقين به وجوههم قد ألبدو بالترسة واستجنوا بالبيض وألقوا عليهم سوابغ الدروع وحباب الحشو فان صد العدو عنهم حاملين على ناحية أخرى كبر أهل تلك الناحية الأولى و بقية العسكر سكوت والناحية التي صدر عنها العدو لازمة لمراكزها فعلت في تقويتهم وامدادهم بمثل صنيعك باخوانهم واياك وأن تخمد نار رواقك واذا وقع العدو في معسكرك فأججها ساعر الها وأوقدها حطبا جزلا يعرف بها أهل العسكر مكانك وموضع رواقك و يسكن نافر قلوبهم و يقوي واهن قوتهم و يشتد منخذل ظهورهم ولا يرجفون فيك بالظنون و يجيلون لك آراء السوء وذلك من فعالك رد عدوك بغيظه ولم يستقل منك بظفر ولم يبلغ من نكايتك سرورا ان شاء الله

فان انصرف عنك عدوك ونكل عن الاصابة من جندك وكان بخيلك قوة على طلبه أو كانت لك خيل معدة وكتيبة منتخبة قد رب أن تركب بهم أكتافهم وتحملهم على سننهم فأتبعهم جريدة خيل حاليها لثقات من فرسانك وأولوا النجدة من حماتك فانك ترهق عدوك وقد أمن بياتك وشغل بكلاله عن التحرز منك والأخذ بأبواب معسكره والضبط لمحارسه موهنة حماتهم لغبة أبطالهم لما ألقو كم عليه من التشمير والجد قد عقر الله فيهم وأصاب منهم

وجرح من مقاتلهم وكسر من أماني ضلالتهم وردمن مستعلى جماحهم وتقدم الى من توجه في طلبهم وتتبعه (أن يكونوا) هم في سكون الريح وقلة الرفث وكثرة التسبيح والتهليل واستنصار الله عز وجل بقلوبهم وألسنتهم سرا وجهرا بلا جلب ضجة ولا ارتفاع ضوضاء دون أن يردوا على مطلبهم ويتهزوا فرصهم ثم يشهروا السلاح وينضوا السيوف فان لها هيبة رائعة وبديهة مخوفة لا يقوم لها في بهمة الليل إلا البطل المحارب ودو البصيرة المحامي المستميت المقاتل وقليل ما هم عند تلك المواضع ان شاء الله

ليكن أول ما تقدم به في التهيؤ لعدوك والاستعداد للقائه انتخابك من فرسان عسكرك وحماة جندك ذوي البأس والحنكة والجلد والصرامة ممن قد (اعتاد) طراد الكماة وكشر عن ناجذه في الحرب وقام على ساق في منازلة الأقران ثقف الفراسة مستجمع القوة مستحصد المريرة صبورا على أهوال الليل عارفا بمناهز الفرص لم تمهنه الحنكة ضعفا ولا أبلغت به السن ملالا ولا أسكرته غرة الحداثة جهلا ولا أبطرته تجدد الاغمار صلفا جريئا على مخاطرة التلف متقدما على ادراع الموت مكابر المرهوب الهول متقحما مخشي الحتوف خائضا غمرات المهالك برأي يؤيده الحزم ونية لا يخلجها الشك وأهواء مجتمعة وقلوب موقنة عارفين بفضل الطاعة وعزها وشرفها وحيث محل أهلها من التأييد والظفر والتمكين ثم اعرضهم رأي عين على كراعهم وأسلحتهم ولتكن دوابهم اناث عتاق الخيول وأسلحتهم سوابغ الدروع وكمال آلة المحارب متقلدين سيوفهم المستخلصة من جيد الجواهر وصافي الحديد والمتخيرة من معادن الأجناس هندية الحديد أو يدنية يمانية الطبع رقاق المضارب مستوية الشحذ مشطبة الضريبة ملبدين بالترسة الفارسية صينية التعقيب معلمة المقابض بحلق الحديد انحاؤها مربعة ومحارزها بالتجليد مضاعفة ومحملها مستخف وكنائن النبل وجعاب القسي قد استحقبوها وقسي الشريان والنبع عرابية الصنعة مختلفة الأجناس محكمة العمل ونصول النبل مسمومة وتركيبها عراقي وتريشها بذوي مختلفة الصوع في الطبع نتي الأعمال في التشطيب والاستزادة ولتكن الفارسية مقاوبة المقابض منبسطة السنة سهلة الانعطاف مقربة الانحناء ممكنة المرمى وسعة لأسهم فرضها سهلة او رودمعاطفها غير معنون الموانة

ثم ول على كل مائة رجل منهم رجلا من أهل حصنك وثقاتك ونصائحك وتقدم اليهم في ضبطهم وكف راستر ل نصائحهم يستعد طاعتهم و ستدلاص ضمائرهم وتعهد كراعهم وأسلحتهم معفيا لهم من النوائب التي تلزم أهل العسكر وعامة جندك ثم اجعلهم عدة لأمر ان فاجأك أو طارق بيتك ومرهم أن يكونوا على أهبة معدة وحذرهم ذلك لا تدري أي

الساعات من ليلك ونهارك تكون اليهم حاجتك فليكونوا كرجل واحد فى التشهير والترادف وسرعة الاجابة فانك عسيت أن لا تجد عندك جماعة جندك مثل تلك الروعة والمباغتة ان احتجت الى ذلك منهم معونة كافية ولا أهبة معدة بل ذلك كذلك فاذكرها ولى الذين تبعث عدتك وقوتك تقويا فقد قطعتها على القواد الذين وليتهم أمورهم فسميت أولا وثانيا وثالثا ورابعا وخامسا الى عشرة فان اكتفيت فيما يبدهك ويطرقك لبعث واحد كان عدا لم تحتج فيه الى امتحانهم فى ساعتهم تلك وقطع البعث عليهم عندما يرهقك وان احتجت الى اثنين وثلاث وجهت منهم ارادتك ان شاء الله

وكل بخزائنك ودواوينك رجلا أمينا صالحا ذا ورع حاجز ودين فاضل واجعل معه خيلا يكون مسيرها ومنزلها وترحلها مع خزائنك وتقدم اليه فى حفظها والتوفر عليها واتهام من يستولى على شئ منها على اضاعته والتهاون به والشدة على من دنا منها فى مسير أو ضامها فى منزل وليكن عامة الجند والجيش الامن استصلحت للمسير معها متنحين عنها مجانبين لها فانه ربما كانت الجولة وحدثت الفزعة فان لم يكن للخزائن ممن يوكل بها أهل حفظ لها وذب عنها أسرع الجند اليها وتداعوا نحوها حتى يكاد يتراعى ذلك بهم الى انتهاب العسكر واضطراب الفتنة فان أهل الفتن وسوء السيرة كثير وانما همتهم الشر فاياك وأن يكون لأحد فى خزائنك ودواوينك وبيوت أموالك مطمع أو يجدوا الى اغتيالها ومرتها ان شاء الله

اعلم ان أحسن مكيدتك أثرا فى العامة وأبعدها صوتا فى حسن القالة ما نلت الظفر فيه بحسن الروية وحزم التدبير ولطف الحيلة فلتكن رويتك فى ذلك وحرصك على اصابته لا بالقتال واخطار التلف وادسس الى عدوك وكاتب رؤوسهم وقادتهم وعدهم المالات ومنهم الولايات وسوغهم التراب وضع عنهم الأحن واقطع عنهم أعناقهم بالمطامع واملأ قلوبهم بالترهيب وان أمكنتك منهم الدوائر وأصار بهم اليك الراجع وادعهم الى الوثوب بصاحبهم أو اعتزاله ان لم يكن لهم بالوثوب عليه طاقة ولا عليك أن تطرح الى بعضهم كتبا كأنها جوابات كتب لهم اليك وتكتب على ألسنتهم كتبا اليك يدفعها اليهم ويحمل بها صاحبهم عليهم وتنزلهم عنده منزلة التهمة فلعل مكيدتك فى ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم وتشتيت جماعتهم واحش قلوبهم سوء الظن من واليهم فيوحشهم منه خوفهم اياه على أنفسهم اذا أيقنوا بأنها منايا هم فان بسط يده بقتلهم وأولغ فى دمائهم سيفه واسرع فى الوثوب بهم أشعرهم جميعا الخوف وشملهم الرعب ودعاهم اليك الهرب وتهافتوا نحوك

بالنصيحة وان كان متأنيا محتملا رجوت أن تستقيل اليك بعضهم وتستدعي بالطمع ذوي الشر منهم وتنال بذلك ما تحب من أخبارهم ان شاء الله

اذا تدانى الصفان وتواقف الجمعان واحتضرت الحرب فعبأت أصحابك لقتال عدوهم فأكثر من لا حول ولا قوة الا بالله والتوكل على الله والتفويض اليه ومسألته توفيقك وارشادك وأن يعزم لك على الرشد والعصمة الكالئة والحيطة الشاملة

ومر جندك بالصمت وقلة التلفت الى المشار له وكثرة التكبير في أنفسهم والتسبيح بضمائرهم والايظهروا تكبيرا الا في الكرات والحملات وعند كل زلفة يزدلفونها فأماوهم وقوف فان ذلك من الفشل والجبن وليكثروا من لا حول ولا قوة الا بالله حسبنا الله ونعم الوكيل اللهم انصرنا على عدوك وعدونا الباغي واكفنا شوكته المستحدة وأبدنا بملائكتك الغالبين واعصمنا بعونك من الفشل والعجز انك أرحم الراحمين

وليكن في عسكرك مكبرون بالليل والنهار قبل المواقعة يطوفون عليهم يحضونهم على القتال ويحرضونهم على عدوهم ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ويذكرونهم الجنة ورخاء أهلها وسكانها ويقولون اذكروا الله يذكركم واستنصروه ينصركم وان استطعت أن تكون أنت المباشر لتعبية جنودك ووضعهم من رأياتك ومعك رجال من ثقات فرسانك ذوو سن وتجربة ونجدة على التبعية وأمير المؤمنين واصفها لك في آخر كتابه هذا ان شاء الله أيدك الله بالنصر وغلب لك على القوة وأعانك على الرشد وعصمك من الزيغ وأوجب لمن استشهد معك ثواب الشهداء ومنازل الاصفياء والسلام عليك ورحمة الله وبركاته

الفصل الثاني

في

(آداب الملوك وأخلاقهم وسياستهم)

آداب الملوك هي أحوال عرفها الامراء والملوك بالتجارب والرأي الصائب مما ينبغي أن يفعله ومما ينبغي أن يجتنبه قال معاوية رضي الله عنه لا ينبغي للملك أن يكون كذابا ولا غاشا لانه ينصح ولا نصح للولاة الا بالمناصحة ولا غضوبا لأنه اذا احتد هلكت رعيته ولا

حسوداً لأنه لا يشرف أحد فيه حسد ولا يصلح الناس إلا بأشرافهم ولا جباناً لأنه يجترئ عليه عدوه وتضيع ثغوره

وقد جاء في كتاب المنهج المسلوك في سياسة الملوك أن الملك المنتصب لتدبير الرعية يجب أن يتصف بالأوصاف الكريمة ويجعلها خلقاً مطبوعاً له ولا يهمل منها وصفاً واحداً إذ بها قوام دولته ودوام مملكته وهي خمسة عشر وصفاً ـ العدل ـ العقل ـ الشجاعة ـ السخاء ـ الرفق ـ الوفاء ـ الصدق ـ الرأفة ـ الصبر ـ العفو ـ الشكر ـ الأناة ـ الحلم ـ العفاف ـ الوقار

﴿ العدل ﴾

عليك بالعدل إن وليت مرتبة ... واحذر من الجور فيها غاية الحذر

فالملك يبقى على الكفر البهيم ولا ... يبقى على الجور في بدو وفي حضر

العدل ـ هو أفضل أوصاف الملك وأقوم لدولته يدعو إلى الطاعة وبه استقام الدين وتآلفت النفوس وعمرت البلاد واتصل التواصل وأمنت السبيل وقد قال في ذلك أفلاطون بالعدل ثبات المملكة وبالجور زوالها وحكى أن الاسكندر قال لحكماء الهند وقد رأى قلة الشرائع في بلادهم لم صارت سنن بلادكم قليلة قالوا لإعطائنا الحق من أنفسنا ولعدل ملوكنا فينا

فالسلطان إذا عدل انتشر العدل في رعيته فأقاموا الوزن بالقسط وتعاطوا الحق فيما بينهم ولزموا قوانين العدل فمات الباطل وذهبت رسوم الجور وانتعشت قوانين الحق فأرسلت السماء غيثها وأخرجت الأرض بركتها ونمت تجارتهم ورخصت أسعارهم وامتلأت أوعيتهم فواسى البخيل وأفضل الكريم وقضيت الحقوق وأعيرت المواعين وتهادوا التحف وهان الحطام لكثرته وانتشر بعد عزته

وقد ذكر أبو الحسن الاشبيلي ـ أن العدل نوعان ظاهر وباطن وكل نوع منها ينقسم ويفصل إلى أحكام ـ أما الظاهر فهو في الحكم بين الناس لقوله سبحانه وتعالى وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط وفي عدالة الشهود لقوله عز من قائل وأشهدوا ذوي عدل منكم وفي صدق القول لقوله تعالى وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وفي صلاح ذات البين لقوله جل ذكره وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا إلى قوله وأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين ـ وفي الوزن لقوله تعالى عز وجل وزنوا بالقسطاس المستقيم وكذلك

في جميع الاشياء فانها مفتقرة الى العدل فيها والاعتداد في جميع معانيها

أما الباطن فهو في جميع مايلزم الانسان من محاسبة نفسه فيما بينه و بين الخالق وفيما بينه و بين المخلوق فاما الذي بينه و بين الخالق فامتثال أحكامه والتزام حدوده عند أوامره ونواهيه وأما الذي بينه و بين المخلوق فالانصاف من نفسه فيما كان له وعليه وأخذ الحق واعطائه وقوله الصدق وأنصاره وحسن المعاشرة وأداء الأمانة والوفاء بالعهد وكتمان السر وغير ذلك مما يتعلق بحكم الشريعة و يقتضيه الحق وتوجيه مكارم الاخلاق ومن تجرد عن اتيان هذه الخصال فقد عدل عن طريق العدل وحاد عن سنن الحق قال صلى الله عليه وسلم تخلقوا باخلاق الله تعالى وسأل كسرى بعض حكماء الفرس أى الرجال خير فقال أرحبهم ذرعا عند الضيق وأعدلهم حكما عند الغضب وأبعدهم ظلما عند المقدره وأرحبهم قلبا اذا سلط وأبسطهم وجها اذا سئل انتهى

خير الملوك من عدل في رعيته وحلهم على طاعته فلا يبلغ فيهم من العسف عليهم منزلة تحملهم على الندم في أمره والبرم بولايته ولا يبلغ بهم من التراخي والاهمال منزلة تقودهم الى الاستخفاف بامره والاخلال بحقه وان يعم عدله الكبير والصغير والقريب والبعيد

وليس العدل شيء اختص به الامراء والرؤساء والولاة ممن له في غيره حكم دون غيرهم بل هو لازم لكل انسان في جميع أحواله فانه يتعين عليه العدل في أهله وماله وولده وعياله وخوله وقرابته وجيرانه ومعامليه وخلطائه في أخذه وعطائه وفي الخاص والعام من جميع اموره واحواله فالناس على دين ملوكهم وقد أخبر الحافظ في تاريخه أن العباس بن محمد الهاشمي قال أني لواقف بين يدي المأمون يوما وقد جلس للمظالم اذ دخلت امرأة متظلمة في اخر ياب الناس وعليها هيئة واطمار بالية وقد اذن المؤذن لاولى وهم بالقيام فقالت

يا خير منتصف يهدى له الرشد ... ويا اماما به قد أشرق البلد
تشكو اليك سليل الملك رملة ... عدى عليها فلن يقوى به أحد
فابتزني ضياعا بعد منعتها ... وقد تفرق عني الاهل والولد

فأجابها المأمون ارتجالا من

من دون ماقلت عيل الصبر والجلد ... مني ودم به في قلبي لكمد
هذا أوان صلاة الظهر فانصرفي ... وحضري خصم في اليوم الذي أعد
والمجلس السبت أن يقضي الجلوس ... لنا ننصفك فيه و لا نجلس لاحد

قال فجلس يوم الاحد ودخلت المرأة فقال لها أين الخصم فقالت هو بين يديك وأشارت

الى ولده العباس فقال لأحمد أبى خالد خذ بيده واجلسه معها موضع الخصوم فأدعت عليه بالضيعة وجعلت ترفع صوتها عليه فقال اخفضى من صوتك فانك بين يدى أمير المؤمنين قال المأمون دعها فان الحق انطقه والباطل أسكته ثم ظهر الحق معها فقضى لها وأمر بردضيعتها لها وغرم ولده ما أخذه من ريعها وأمر عامله ببلدها ان يحسن معاملتها

وحكى العتبى انه بعث هشام ابن عبد الملك يوما الى قاضيه فلما دخل خرج اليه وزيره وأقبل ابراهيم ابن محمد بن طلحة فقعدوا جميعا بين يدى القاضى وقال له الوزير أن أمير المؤمنين قد دنى للكلام عنه مع هذا الرجل يعنى ابراهيم فقال القاضى تأتينى بالبينة على تقدمك قال أترانى قلت عن أمير المؤمنين مالم يقل وليس بينى وبينه الا هذا الستر قال لا ولكن لا يثبت الحق لك ولا عليك الا بذلك فقال ولم يثبت ان قعقعت الابواب وخرج الحرس فقالوا هذا أمير المؤمنين فقام اليه القاضى فأشار اليه فقصده وبسط له فقعد هو وابراهيم على البسط اتباعا للحق فتكلموا وحضرت البينة فوجب الحكم على أمير المؤمنين فقضى عليه

ويحكى أيضا عن الحكم بن هشام أحد خلفاء بنى أمية بالاندلس وكان قد قدم للقضاء بقرطبة محمد بن بشير وكان فتى وكان اذا خرج وجلس فى مجلس الحكم لبس ردأة معصفرة ورجل شعره وكان الى شحمة أذنيه فاذا التمس ما عنده وجد قائما بالحق نافذا الحكم مؤثر العدل قويا فى ذات الله تعالى بعيدا عن هوى جامحا الى التقوى فرفع اليه رجل من كورة جيان ان عاملا للحكم اغتصب جرية وصيرها الى الحكم فاثبت الرجل عند محمد بن بشير ما جرى عليه فى جاريته وأتاه ببينة يشهدون على عين الجارية وعلى معرفة تظامه فاوجب الحق حضور الجارية والوقوف على عينها فقام القاضى واستأذن على الحكم فلما دخل عليه قال له انه لا يتم العدل فى العامة دون افاضته فى الخاصة واعلمه بخبر الجارية وكانت وقعت من نفسه موقع لطف وقال لابد من ابرازها أو تعزلنى عن القضاء قال الحكم أولا أدعوك الى خير من ذلك قال وما هو قال تبتاع الجارية من صاحبها باوفر الاثمان وأجل القيم وأبلغ ما يرضيه فيها فقال له ان الشهود قد شخصوا من هنالك يطلبون الحق فى ظلامتهم فلما وصلوا باى شئ نصرفهم دون انفاذ الحق لاهله فلعل قائلا يقول انما باع مالم يملك بيع مقتصر على نفسه فلما سمع مقاله أمر باخراج الجارية من قصره وشهد الشهود على عينها وقضى لصاحبها

وأفضل الأمراء والملوك من عظم العلم والعلماء وقبل النصيحة وأظهر العدل وانقاد للحكم ورفض التكرم ولزم التواضع ولم يحل بمال الله على من استوجبه ووصل الرأفة ولم يول

الاشرار على العباد شعر

الملك جسم كانسان تدبره　　طبائع اربع محمودة الاثر
العدل فى الحكم ثم الحكم فى غضب　　والبذل للمعروف ثم الصدق فى الخبر
فمن تعدى من الأملاك موضعها　　فقد خلا من جميع الفضل والنظر

ومنتهى ماوصلت اليه ملوك العرب من العدل أن يحيي ابن أكثم مشى مع المأمون فى بستان والشمس عن يساره والمأمون فى الظل فلما رجعا وقعت الشمس أيضا على يحيي فقال المأمون تحول مكانى وأتحول مكانك حتى تكون فى الظل كما كنت واقيك الشمس كما وقيتنى فان أول العدل أن يعدل الرجل على بطانته ثم الذين يلونهم حتى يبلغ العدل الطبقة السفلى فعزم عليه فتحول

وأيضا كتب عامل حمص الى عمر بن عبد العزيز ان مدينة حمص تهدمت واحتاجت الى اصلاح فكتب اليه عمر حصنها بالعدل ونق طرقها من الجور ومن الحكم المنثورة زين الأمارة العدل وزين الثروة البذل وقال عبد الملك بن مروان يوما لبنيه كلكم يترشح لهذا الأمر ولا يصلح له الا من كان له سيف مسلول ومال مبذول وعدل تطمئن معه القلوب وفى كلام الحكماء خير الملوك من عدل وشرهم من جهل وبخل

﴿ واجبات الملك ﴾

ومن الواجبات على الملك نحو الرعية أن يولى عليها خيارها ولا يولى عليها اشرارها لان خيار العمال تسير بالامة الى الصلاح وشرارها تؤول بها الى الخراب شعر

وماسقطت يوما من الدهر أمة　　الى الذل الا أن يسود دميمها
اذا ساد فينا بعد ذل لئيمنا　　تصد لنا ذل وقد أديمها
وما قادها للخير الا مجرب　　عليم باقبال الامور كريمها
وكل ذى لب يعاش بفضله　　ولكن لتدبير الامور حكيمها

وعلى الملك أن يراقب حركات عماله ورؤساء مملكته ويبعث عليهم العيون والارصاد ليأتونه باخبار عماله كبارا كانوا أوصغارا ليقف على حقائق الامور ودقائقها ولا يركن على قول وزير أوتصديق أمير أوسماع حديث بل يحقق الامر بنفسه وأن يطلع على كل ما يعرض عليه من أصغر نفر فى رعيته وأحقرها الى أكبر وحسنها وأن لايشدد فى الحجاب لان العرب كانت تقول ماشئ أضيع للملكة وأهلك للرعية من شدة الحجاب للولى ولاشئ

أهيب للرعية والعمال من سهولة الحجاب لان الرعية اذا وثقت من الولاة بسهولة الحجاب احجمت عن الظلم واذا وثقت بشدة الحجاب تهجمت على الظلم وركب القوى الضعيف نخير خلال الولاة سهولة الحجاب

وعليه أن يتلطف فى التجسس على كل عامل من عماله بالتفتيش على أعماله بواسطة أعوان يتخذهم لهذا الغرض يكونون أمناء على أسراره حتى لا يقع فى مملكته من الجور ما يكون سببا لاضمحلالها ونفور رعيته وابتعادها عنه لان جور العمال منسوب اليه فقد قال المأمون ما وجدت فتقا فى الرعية الا وكان سببه العمال

يحكى ان ملكا بلغه ان أحد عماله قد تمادى فى غيه فأرسل رجلا من بطانته اليه ليعرف خبر عامله ويخبره بأخبار الرعية معه فلما وصل الرجل أخبر به العامل فأرسل اليه بمال وتحف ثم قال له عرفت ما جئت له وانى أرغب اليك فى كتاب تكتبه الى الملك تذكر له فيه أنى حسن السيرة سالك طريق العدل فان أنت فعلت ذلك فلك عندى فوق ما تحب وتريد وان أبيت أمرت بقتلك أما حدا وأما سياسة فاقتلك بحضر من قضى البلد وجوه الناس فلم يجد بدا من موافقته ولم يمكنه أن يخون الملك فيما قلده ووجهه بصدده فكتب بحضرة ذلك العامل

أما بعد أعز الله الملك فانى قدمت بلد كذا وكذا فوجدت ان العامل فلانا أخذا بالجرائم عاملا بالعزم قد ساوى بين رعيته وعدل بينهم فى أقضيته وأرضى بعضهم بعضا وجعل طاعته عليهم فرضا وأنزلهم منه منزلة الاولاد واذهب من بينهم التعاسة والاحقاد وأراحهم من السعى للدنيا وعرفهم العمل للاخرى أغنى القاصد وأرضى الوارد وألزمهم العبادة فى المساجد فجميع أهل عمله داعون للملك يودون النظر الى كريم وجهه والسلام

فلما قرأه الوزير على الملك فكر فيه وقال لوزيره ان فلانا لم يكن بمتهم وان كتابه ليدل على ظلم العامل فالتمس لى رجلا يصلح لعمله فقد عزلته فان معنى قوله آخذا بالجرائم انه خائف منى لما أعتمده من الولاية وأما قوله فانه ساوى بين رعيته لم يخص واحدا منهم بالظلم بل ظلم الجميع وقوله ارضى بعضهم عن بعض يعنى أصابهم بشدة عمتهم فرضى بعضهم عن بعض وقوله اذهب أحقادهم لانه عند الشدائد تذهب الأحقاد وقوله انى لهم بمنزلة الأولاد أخذ أموالهم من قوله صلى الله عليه وسلم أنت ومالك لأبيك وقوله أراحهم السعى للدنيا أى أخذ أموالهم ولم يترك عندهم ما يسعون فيه ويتجرون فيه والزمهم المساجد والعبادة وقوله اغنى القاصد وارضى الوارد فانه عنى عن نفسه بانه اعطاه مالا ليكتب الينا بذلك وقوله داعون

للملك أي يدعون بأن ينصرنا الله بأمره ويطلعنا على ماهم فيه وقوله واشتياقهم الى النظر الينا أي يودون الحضور ويستغيثون بنا ثم أمر باحضار ذلك العامل والقاصد فوجد الأمر كما فهمه وأحضر الناس اليه وأنصفهم منه والله أعلم

ومما يجب على الملك أن يكاشف المناصحة لعماله عند توليتهم الاعمال ويفهمهم انه رقيب على أعمالهم وان له عينا يبصر بها من وراء ستار عالما بكل ما يجرى فى ولايته حتى لا يتمادوا فى غيهم أو يهملوا فى أداء واجبهم وانه مجازيهم بالخير خيرا وبالشر شرا

﴿ الرأفة ﴾

الرأفة — ومما يلحق العدل ويماثله فى الوصف استعمال الرأفة مع الرعايا فيما يخصه بدل الشدة وأن لا يعاقب لأقل سبب لان ذلك مما ينفر طباعهم ويبعد قلوبهم والحلم عند الغضب والعفو عند المقدرة فمن ذلك ما روى أن مروان بن الحكم وهو وال على المدينة فى خلافة معاوية حبس غلاما من بنى ليث فى جناية جناها بالمدينة فأتته جدة الغلام وهى أم سنان بنت جشمية بن حرشة المذحجية فكلمته فى الغلام فأغلظ لها مروان فخرجت الى معاوية فدخلت عليه فانتسبت له فعرفها فقال مرحبا بابنة جشمية ما أقدمك أرضا وقد عهدتك تشتمينا وتحضين علينا عدونا قالت ياأمير المؤمنين ان لبنى عبد مناف أخلاقا طاهرة وأعلاما ظاهرة لا يجهلون بعد علم ولا يسفهون بعد حلم ولا يشتمون بعد عفو وان أولى الناس باتباع ما سن آباؤه لأنت قال صدقت نحن كذلك فكيف قولك

عزب الرقاد فقلتى ما ترقد ... والليل يصدر بالهموم ويورد
يا آل مذحج لامقام فشمروا ... أن العدو لآل مذحج يقصد
هذا على كالهلال تحفه ... وسط السماء من الكواكب أسعد
خير الخلائق وابن عم محمد ... أن يهدكم بالنور منه تهتدوا
مازال قد شهد الحروب مظفرا ... والنصر فوق لوائه مايفقد

قالت قد كان ذلك ياأمير المؤمنين وأرجو أن تكون لنا خلفا بعده فقال رجل من جلسائه كيف ياأمير المؤمنين وهى القائلة

أما هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحق تعرف هاديا مهديا
فاذهب عليك صلاة ربك مادعت ... فوق الغصون حمامة قمريا
قد كنت بعد محمد خلفا لنا ... أوصى اليك بنا وكنت وفيا

واليوم لا خلف يؤمل بعده   هيهات نأمل بعده أنسيا

قالت يا أمير المؤمنين لسان نطق وقول صدق ولئن تحقق فيك ما ظنناه فحظك الأوفر والله ما أورثك الشنآن في قلوب المسلمين إلا هؤلاء فادحض مقالتهم وابعد منزلتهم فانك ان فعلت ذلك تزدد من الله قربا ومن المسلمين حبا قال وانك لتقولين ذلك قالت سبحان الله والله ما مثلك من مدح بباطل ولا اعتذر اليه بكذب وانك لتعلم ذلك من رأينا وضمير قلبنا كان علي والله أحب الينا منك وأنت أحب الينا من غيرك قال ممن قالت من مروان وسعيد بن العاص قال وبم استحققت ذلك عندك قالت بسعة حلمك وكريم عفوك قال وانهما يطمعان في ذلك قالت هما والله من الرأي على ما كنت عليه لعثمان بن عفان قال لقد قاربت من حاجتك قالت يا أمير المؤمنين ان مروان تبنك في المدينة تبنك من لا يريد منها البراح لا يحكم بعدل ولا يقضي بسنة يتتبع عورات المؤمنين حبس ابن ابني فأتيته فقال كيت وكيت فأسمعته أخشن من الحجر وألقمته أمر من الصبر ثم رجعت الى نفسي باللائمة وقلت لم لا أصرف ذلك الى من هو أولى بالعفو بمنه فأتيتك يا أمير المؤمنين لتكون في أمري ناظرا وعليه معديا قال صدقت لا أسئلك عن ذنبه والقيام بحجته اكتبوا لها باطلاقه قالت يا أمير المؤمنين واني بالرجعة وقد نفد زادي وكلت راحلتي فأمر لها براحلة موطأة وخمسة آلاف درهم

﴿ الحلم ﴾

الحلم أكرم الخلال وأتم الخصال وافضل شمائل الرجال وأعلى مراتب الكمال فقال الماوردي ان الحلم امساك النفس عند الاستشاطة في الغضب وربط الجأش عند الهيجان وملك الجوارح عند انقاد جمرة الشر والتأيد والتثبت في تعجيل انفاذ الحكم لما في عواقب ذلك من وقوع الندم واظهار خفة السفاهة عند حلول البرم لا سيما مع تمكن القدرة وتحكم القوة

فمن تمام أحكام الحلم وكمال أسبابه واجتماع معانيه قبول العذر من المعتذر صادقا كان أو كاذبا فان الاعتذار دليل الندم والندم توبة وقد يكون الندم حياء من المعتذر والحياء من الايمان وقد اعتذر رجل الى جعفر بن يحيي بن برمك فقال جعفر أغناك الله بقبول العذر منا عن الاعتذار وأغنانا بالمودة منك عن سوء الظن بك

وحكى أبو العباس أحمد بن أبي دؤاد قال ما رأيت رجلا عاين الموت ملء عينه فما أدهله ولا شغله عما كان يجب أن يفعله إلا تميم بن جميل الأوس رأيته وقد وافى به الرسول باب أمير

المؤمنين المعتصم بالله فى يوم الموكب وقد جلس للعامة فدعا به ودعا بالسيف والنطع فلما مثل بين يديه وقد بسط له النطع وشهر السيف جعل المعتصم ينظر اليه ويجيل فكره فيه وهو ساكت وكان رجلا وسيما نبلاء العين فأحب المعتصم أن يعلم أين لسانه وجنانه من منظره فقال له يا تميم تكلم وان كان لك عذر فأت به وان كانت لك حجة فأدل بها فقال أما وقد أذن لى أمير المؤمنين فى الكلام فانى أقول الحمد لله يا أمير المؤمنين الذى جبر بك صدع الدين وألم بك شعث الأمة وأوضح لك سبل الحق وأخمد بك شهاب الباطل ان الذنب يا أمير المؤمنين يخرس الألسنة ويصدع الأفئدة وأيم الله لقد عظمت الجريرة وانقطعت الحجة وساء الظن ولم يبق إلا العفو به والانتقام وأرجو أن يكون العفو أقربهما منك وأسرعهما اليك وأولاهما بك وأشبههما بخلائقك ثم أنشأ يقول

أرى الموت بين السيف والنطع كامنا	يلاحظنى من حيث لا أتلفت
وأكبر ظنى انك اليوم قاتلى	وأى امرئ مما قضى الله يفلت
وأى امرئ يدلى بعذر وحجة	وسيف المنايا بين عينيه مصلت
يعز على الاوس بن ثعلب موقف	يسل عليه السيف فيه ويسكت
وما جزعى من أن أموت وأننى	لأعلم ان الموت منى مؤقت
ولكن خلفى صبية قد تركتهم	وأكبادهم من حسرة تتفتت
كانى أراهم حين أنعى اليهم	وقد خمشوا تلك الوجوه وصوتوا
فان عشت عاشوا حافظين بغطمة	ارود الردى عنهم وان مت موتوا
وكم قائل لا يبعد الله داره	وأخر جزلان بسرور يشمت

فضحك المعتصم وقال يا تميم كاد والله ان يسبق السيف العذل فقد وهبتك للصبية وعفوت عن الهفوة وخلع عليه وعقد له على شطئ الفرات فأحسن وأجمل السيرة

﴿ الجور ﴾

أما الجور فهو أذم الخصال لأنه جالب الفتن ومسبب الاحن ومحيل الاحوال وممحق الاموال ومخلى الديار ومجى البوار وقد كانت الامم الماضية فى القرون الخالية على اختلاف عقائدهم مجمعون على أنكاره واصراره فالعقل ينكره والشريعة تبعده وتتحاماه والسياسة تنافره وتتجافاه

فاذا جار السلطان أو الوالى نشر الجور فى البلاد وعلم العباد فرقت أديانهم واضمحلت

مروآتهم ففشت فيهم المعاصى وذهبت أماناتهم فضعفت النفوس وقنطت القلوب فنعوا الحقائق وتعاطوا الباطل وبخسوا المكيال والميزان وجوزوا البهرجة فرفعت منهم البركة وأمسكت السماء غيثها ولم تخرج الارض ريعها ونباتها فقل فى أيديهم الحطام فقطوا فامسكوا الفضل الموجود وتأخروا عن المفقود فنعوا الزكاة المفروضة وبخلوا بالمواساة المسنونة وقبضوا أيديهم عن المكارم وتنازعوا القدار الطفيف وتجاحدوا القدر الخسيس ففشت فيهم الايمان الكاذبة والختل فى البيع والخداع فى المعاملة والمكر والحيلة فى القضاء والاقتضاء ولا يمنعه من السرقة الا العار ومن الزنا الا الحياء فيظل أحدهم عاريا عن محاسن دينه متجردا عن جلباب مروآته وأكثر همه قوت دنياه وأعظم مسراته من هذا الحطام ومن عاش كذلك فبطن الارض له خير من ظاهرها قال ابن منبه اذاهم الوالى بالجور أو عمل به أدخل الله النقص فى أهل مملكته فى الاسواق والزرع والضرع وكل شئ واذاهم بالعدل أو الخير أو عمل به أدخل الله البركة فى أهل مملكته وقال عمر بن عبد العزيز تهلك العامة بعمل الخاصة ولا تهلك الخاصة بعمل العامة وفى هذا المعنى قال الله تعالى واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة

حكى ابن العباس ان ملكا من الملوك خرج يسير فى مملكته متخفيا فنزل على رجل له بقرة فراحت البقرة فحلبت له قدر حلاب ثلاثين بقرة فعجب الملك لذلك وحدث نفسه بأخذها فلما راحت عليه من الغد حلبت على النصف مما حلبت بالامس فقال له الملك مابال حلابها نقص أرعت فى غير مرعاها الامس قال لا ولكن أظن ملكنا هم بأخذها فنقص لبنها فان الملك اذا ظلم أو هم بالظلم ذهبت البركة فعاهد الله سبحانه وتعالى فى نفسه أن لا يأخذها فراحت من الغد فحلبت كعادتها فتاب الملك وعاهد ربه ليعدلن مابقى حيا

وحدث بعض الشيوخ كان يروى الاخبار بمصر قال كان بصعيد مصر نخلة تحمل عشرة أرادب تمرا ولم يكن فى الزمان نخلة تحمل نصف ذلك فغصبها الملك فلم تحمل فى ذلك العام شيأ ولا تمرة واحدة

فهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ان خيرا فخيرا وان شرا فشرا — وعلى السلطان أن لا يتخذ لرعيته مالا وقيمة فيكونون عليه بلاء وفتنة ولكن يتخذهم أهلا واخوانا فيكونون له جندا وأعوانا فاصلاح الرعية خير من كثرة الجنود

فكلكمو راع ونحن رعية وكل يلاقى ربه فيحاسبه

الفصل الثالث

في

(الوزاره)

رأى العرب ان أهم ركن مسؤول بعد الملك في المملكة هم الوزراء ثم يليهم في المسؤولية بقية أركان المملكة فوضعوا لها قوانين وشروطا هي من الاهمية بمكان نأتي على ملخصها هنا

﴿ الاشتقاق ﴾

الوزارة اسمها مشتق من معناها واختلف فيه فهو على ثلاثة أوجه أحدها انه مشتق من الوزر وهو الثقل لانه يحمل عن الملك أثقاله والثاني انه مشتق من الازر وهو الظهر لان الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بظهره والثالث انه مشتق من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى كلا لا وزر أي لا ملجأ لأن الملك يلجأ الى رأيه ومعونته اذ هو عليه مدار السياسة واليه تفضي الأمور

فلو كان الملك أسير الشهوات أو ضعيف الرأي وكان له وزراء علماء منزهون عن حب الأغراض والشهوات فانه يستقيم بهم حال المملكة وتنمو أصولها

فبمقتضى الطبيعة البشرية ن حال الملوك في وزراء لا تخرج عن ثلاث صور لان الواحد منهم ما أن يكون كامل المعرفة محبا لخير الوطن قادرا على اجراء المصالح بمراعاة الاصلح أو يكون كامل المعرفة ولكن له أعراض وشهوات خصوصية تصده عن مراعاة المصالح العمومية أو يكون ناقص المعرفة ضعيف المباشرة لا يقوى على القيام بأعباء المملكة وتحمل مسؤوليتها

﴿ أول وزير في الاسلام ﴾

أول من سمي وزيرا في الاسلام أحمد بن سليمن الخلال وزير السفاح أول خلفاء بني العباس ثم تبعه وزراء الخلفاء والملوك على ذلك وكانوا قبل ذلك يدعونهم كتابا وأول من لقب بالصاحب من الوزراء كافي الكفاة سماعيل بن عباد وكان السبب في ذلك انه كان يصحب

الاستاذ بن العميد فكانوا يقولون صاحب ابن العميد ثم غلب عليه اللقب حتى قيل له الصاحب مجردا وتبعه الوزراء على ذلك وقد ذكر أبو الفضل الصوري فى تذكرته — ان الوزير يجب أن يكون صبيح الوجه فصيح البيان طلق اللسان أصيلا فى قومه رفيعا فى حسبه ونسبه وقورا حليما مؤثرا للجد على الهزل كثير الاناة والرفق قليل العجلة والخرق نزر الضحك مهيب المجلس ساكن الظل وقور النادى شديد الذكاء بطئ الغضب ويستغنى عن التصريح بالاشارة والايماء لينبه الملك على الأمور من أوائلها ويجب عليه أن يهدى النصيحة للملك على هواه ورضاه على رضاه مالم ير فى ذلك خللا على المملكة فانه يجب أن تهدى النصيحة فيها للملك من غير أن يظهر له فيما تقدم من رأيه فسادا أو نقصا لكن يتحيل لنقض ذلك وتهجينه فى نفسه وايضاح الواجب فيه بأحسن تأن فقد قال المأمون تحتمل الملوك كل شئ الا ثلاثة أشياء القدح فى الملك وافشاء السر والتعرض للحرم وقد قال أفلاطون أول رياضة الوزير أن يتأمل أخلاق الملك ومعاملته فان كانت شديدة فظة عامل الناس بدونها وان كانت لينة مطلقة عاملهم بأقوى منها ليقرب من العدل فى سعيه وكان ممن اشتهر من وزرائهم بالبلاغة والفصاحة وحسن الخلق حتى صار يضرب به المثل يحيي بن خالد وزير الرشيد والحسن بن سهل وعمرو بن مسعدة كاتب المأمون وابن المقفع وسهل بن هارون والاستاذ أبو الفضل بن العميد المار ذكره واسماعيل بن عباد وأبو اسحق الصابى وغيرهم من الوزراء واليك بيان تقسيم الوزارة وعدد الوزراء الواجب اتخاذهم على حسب ماوضعوه فى كتبهم

﴿ تقسيم الوزاره ﴾

تنقسم الوزارة عند العرب الى قسمين وزارة تفويض ووزارة تنفيذ — فوزارة التفويض هى أن يستوزر الملك من يفوض اليه الامور برأيه وامضائها على اجتهاده لان ماوكل الى الملك من تدبير الأمة لا يقدر على مباشرة جميعه الا بالاستنابة عنه ونيابة الوزير المشارك له فى التدبير أصح فى تنفيذ الأمور من تفرده بها ليستظهر بها على نفسه وبها يكون أبعد عن الزلل وأمنع من الخلل وتعتبر فى تقليد هذه الوزارة شروط الامامة الا النسب وحده لانه ممضى الآراء ومنفذ الاجتهاد

ويشترط فى وزارة التفويض شرطان أحدهما يختص بالوزير وهو مكاشفة الملك بما أمضاه من تدبير وأنفذه من ولاية لئلا يصير بالاستبداد كالملك الثانى مختص بالملك وهو أن

يتصفح أفعال الوزير وتدبيره الامور ليقر منها ما يوافق الصواب ويستدرك ما خالفه لان تدبير الامة اليه موكول وعلى اجتهاده موقوف ويجوز لهذا الوزير أن يحكم بنفسه ويقلد الحكام كما يجوز ذلك للملك وينظر فى المظالم ويتولى الجهاد بنفسه ويقلد من يتولاه ويباشر تنفيذ الامور التى دبرها وأن يستنيب فى تنفيذها وكل ما صح للملك صح للوزير الا ثلاثة أشياء أحدها ولاية العهد فان للملك أن يعهد الى من يرى وليس ذلك للوزير الثانى للملك أن يستعفى الامة من الملك وليس ذلك للوزير الثالث أن يعزل من قلده الوزير وليس للوزير أن يعزل من قلده الملك وما سوى ذلك فحكم التفويض اليه يقتضى جواز فعله

أما وزارة التنفيذ فحكمها أضعف وشروطها أقل لان النظر فيها مقصور على رأى الامام وتدبيره هذه الوزارة وسط بينه وبين الرعية والولاة يؤدى عنه ما أمر وينفذ عنه ما ذكر ويمضى ما حكم ويخبر بتقليد الولاة وتجهيز الجيوش ويعرض عليه ما ورد من مهم وتجدد من حدث ملم ليعمل فيه ما يؤمر به فهو معين فى تنفيذ الامور وليس بوال عليها ولا متقلد لها فان شورك فى الرأى كان باسم الوزارة أخص وان لم يشارك فيه كان باسم الواسطة والسفارة أشبه وهذه الوزارة مقصورة على أمرين أحدهما أن يؤدى الى الملك والثانى أن يؤدى عنه فيراعى فيه سبعة أوصاف أحدها ان يؤدى الامانة حتى لا يخون فيما قد أؤتمن عليه ولا يغش فيما قد استنصح فيه الثانى صدق اللهجة حتى يوثق بخبره فيما يؤديه ويعمل على قوله فيما ينهيه الثالث قلة الطمع حتى لا يرتشى فيما يل ولا ينخدع فيتساهل والرابع أن يسلم فيما بينه وبين الناس من عداوة وشحناء فان العداوة تصد عن التناصف وتمنع من التعاطف فقد قال أحد حكماء الهند الاحقاد مؤثرة حيث كانت وأخوفها ما كان فى نفس الملوك والوزراء الخامس أن يكون ذكورا لما يؤديه الى الملك وعنه لانه شاهد له وعليه السادس الذكاء والفطنة حتى لا تدلس عليه الامور فتشتبه ولا تموه عليه فتلتبس فلا يصح مع اشتباهها عزم ولا يصح مع التباسها حزم وقد أفصح بهذا الوصف وزير المأمون محمد بن يزداد حيث يقول

اصابة معنى المرء روح كلامه ... فان أخطأ المعنى فذاك موات

اذا غاب قلب المرء عن حفظ لفظه ... فيقظته للعالمين سبات

السابع أن لا يكون من أهل الاهواء فيخرجه الهوى من الحق الى الباطل ويتدلس عليه المحق من المبطل فان الهوى خادع الالباب وصارف عن الصواب فان كان هذا الوزير مشاركا فى الرأى احتاج الى الحنكة والتجربة التى تؤدى الى صحة الرأى وصواب التدبير

﴿ عدد الوزراء ﴾

واختلف أهل السياسة في عدد الوزراء فذهبت الهند الى اتخاذ سبعة وبعضهم ذهب الى خمسة وهو رأي الروم والفرس اختاروا ثلاثة وقد اشترطت العرب أن يكون الوزير جامعا لخصال الخير متصفا بعشر صفات لابد منها حسن الخلق والخلق يجمع بين البشاشة والوقار والحلم والهيبة والعفة والنزاهة وعزة النفس سديد الآراء حسن العبارة سريع الفهم عالما بالأمور السياسية والضوابط السلطانية والأحوال الديوانية والامور الحربية يجمع ويفرق ويقرب ويشتت ويؤلف ويضاف الى ذلك أن يكون قد بلغ أشده وكثرت تجاربه وأمنت خيانته وتحققت أمانته كتوما للأسرار يسكته الحلم وينطقه العلم له حفظ وبلاغة وايجاز في العبارة حسن التأني في مخاطبة الملك لطيف التوصل الى نقل طباعه من الميل الى اعتدال وليكن مشتملا برداء الصدق والوفاء وفي الذمام شفوق بالانام ذكي الفكرة ذكي الفطرة سريعا جوابه كثيرا صوابه حسنا خطابه متيقظا في تدبير الدولة مثمرا للأموال هادما للأوزار مقتصدا في وجوه صرف الاموال

حكى أن المأمون كتب في اختيار وزير اني التمست لنفسي وتدبير أموري رجلا جامعا لخصال الخير ذا عفة في خلائقه واستقامة في طريقه قد هذبته الآداب وحنكته التجارب ان اؤتمن على الاسرار قام بها وان قلد مهمات الامور نهض بها يسكته الحلم وينطقه العلم وتكفيه اللحظة وتغنيه اللمحة له صولة الامراء واناة الحكماء وتواضع العلماء وفهم الفقهاء ان أحسن اليه شكر وان ابتلي بالاساءة صبر لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه وحسن بيانه

كانت ملوك العرب لا تراعي السن في تولية الولاة والقواد لمجرد كبرهم في السن مالم يكن مع كبره عاقلا عالما بالمصالح مجربا للأمور والا فتقديم الكبار لمجرد كبر في السن غير مقبول

وقد ولى رسول الله صلى الله عليه وسلم عتاب بن أسيد بمكة وكان سنه نيفا وعشرين سنة وأمر سعيد بن وقاص وسنه دون العشرين

وولى المأمون يحيى بن أكثم قضاء البصرة واستصغره الناس فسألوه تعبير ذلك فقالوا كم سن القاضي قال سن عتاب بن أسيد حين ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة فجعل جوابه احتجاجه

وولى الحجاج محمد بن القاسم قتال الأكراد بفارس فأبادهم ثم ولاه السند والهند وسنه

سبع وعشرين سنة وقال الشاعر

لاتعجبوا من علو همته وسنه فى أوان منشاها

ان النجوم التى تضىء لنا أصغرها فى العيون أعلاها

ولهذا قيل ليس من المروءة سؤال الرجل عن سنه لانه ان كان شابا استصغروه وان كان كبيرا استهرموه - قال زياد لما قدم العراق واليا عليها - أيها الناس انه قد كانت بينى وبينكم احن فجعلت ذلك دبر أذنى وتحت قدمى فمن كان محسنا فليزد من احسانه ومن كان مسيئا فلينزع عن اساءته انى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعا ولم أهتك له سترا حتى يبدى صفحته لى

هذه هى آداب الوزراء الذين هم أحد أركان المملكة لخصتها للقراء - وهنالك أيضا وظيفة لاتقل عن وظائف الوزير أهمية وهى الحسبة والولاية

الفصل الرابع

فى

﴿ الحسبة والولاية ﴾

ان الحسبة هى النظر فى أمور أهل المدينة باجراء ما رسم فى الرئاسة الاصطلاحية وتهى مايصالحها وتنفيذ ماتقرر فى الشرع من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ولها قوانين مخصوصة عندهم وقد كتب عنها الحسن بن عبد الله فى الباب الخامس من كتاب آثار الاول فى ترتيب الدول ما ملخصه أن ولاية المدينة هى الرتبة من السياسة العظمى فيجب على والى المدينة أو صاحبها أن يكون فيه من السياسة والحفظ والضبط وحسن لتدبير ما هو مذكور فى الآداب الملوكية ولا ينبغى له أن يترك فى المدينة أهل التعصب والأهواء فانه منشأ الفتن وكانت ملوك الفرس تمنع من الانتساب الى القبائل لهذا السبب وكان أكثر غرضهم تأليف أهل المدينة على نظام مستقيم وهو الأسوس والأصلح مما يحتاج فى التجمع وأما انتساب أهل البرارى والفلوات فلحمية بعضهم من بعض وتعطف بعضهم على بعض ولعصبية فى المدينة تؤدى الى خرابها والاستيلاء على ملوكها وكثير ما خربت بلاد بالمشرق مثل

أصفهان والري وغيرهما بالتعصب في المذاهب والآراء وقال بزرجمهر كل جمع غير جمع السلطان وكل سيف غير سيفه فهو عليه لا له وعليه قهره وازالته وكذلك يمنع أهل البلد من البطالة فانها تدعو الى الشرور والافساد بل يجب أن كل طائفة تنعكف على شغل من الأشغال أو فن من المصالح العائد نفعها عليهم وعلى المدينة

ويجب على والي البلد من المصالح أن ينظر في تحسينها وتزيينها وتنقيه مراخراب فيها فان الخراب موت والعمارة حياة وينبغي لواضعها ومرتبها أن يفرد كل سوق على حدته حتى لا تتجاوز الصنائع الخسيسة مع الصنائع النفيسة وان كانت المدينة كبيرة فلا بد من تفرقة بائع الطعام على مواضع كثيرة لان الحاجة اليه متكررة

ويتعين بان تكون أرباب الصناعات القذرة في أطراف البلد بمعزل عن المواقع المتوسطة فيها وذلك مثل المسالخ والمدابغ وما أشبه ذلك وينتظر في توسعة رحابها ولا يمكن أحدا من تضييق الطريق واحداث مايضر بالمارة ويولي الحسبة لمن يثق بدينه وأمانته وهيبته فينظر في أمر الموازين والمكاييل ويضبط أمور الرعية من الباعة وأصناف السوقة ولا يمكنهم من ظلم أحد وينظر في تنظيف الطريق والرحاب من الأوساخ والأقذار ويتفقد حال المياه وصيانتها ولا يمكن من افسادها بالارواث ولا بالمصبات والقنوات لان الماء مادة الحياة فاذا فسد فسدت الأجسام لما يكسبها من الأمراض وتغيير الأنفس والاخلاق على مايذكره أرباب الطب والطبائع ويتبع فساد المياه فساد الأبخرة والأهوية المحيطة بالاجسام ويتقدم باصلاح مايلزم اصلاحه وعليه مدار نظام المدينة ورقيها المادي والادبي

وقد يتوقف اصلاح أمور الرعية على تنفيذ أمورهم على حسب ما ألفوه من عادات ومعاملات واختلفوا فيها حتى ائتلفوا بها لان الناس مجبولون على الحاجة الى أنواع لا يقدر الواحد أن يقوم بجميعها فخولف بين هممهم لتنفرد كل قوم بنوع منها فيأتلفوا بها فيقوم الزراع بمزارعهم ويتشاغل الصناع بصنائعهم ويتوفر التجار على متاجرهم وقال جبير الملك لوزيره الناس أربع طبقات طبقة للفروسية وطبقة لاقامة الديانة أحقهم بالمكافأة وطبقة للزراعة والعمارة أجرهم على الانصاف وطبقة للمهن لا تخليهم من الاحسان عليهم وعليه لهم في تنفيذها وجهان أحدهما أن لا يعارض صنفا منهم في مطلبه والثاني أن لا يشاركه في مكسبه وربما كان للملك رأي في الاستكثار من أحد الاصناف فينقل اليه من لا يألف فيختل النظام بهم فيما نقلوا وفيما نقلوا اليه لان تمييزهم بالهام الطباع أعدل في ائتلافهم من الصنع لها

فصلاح الامة وارتقاؤها متوقف على تمسكها بدينها وعدل أمرائها ووزرائها فيها لان

العدل يوجب الاجتماع والجور يوجب الافتراق فمنزلة السلطان من الرعية بمنزلة الروح من الجسد فاذا صفت الروح من الكدر سرت الى الجوارح سليمة وسرت فى جميع أجزاء الجسم فأمن الجسم من التغير فاستقامت الجوارح والحواس وانتظم أمر الجسد وان تكدرت الروح أو فسد مزاجها فيا ويح الجسد فتسرى الى الحواس والجوارح كدره وهى منحرفة عن الاعتدال فيأخذ كل عضو وحاسة بقسطه من الفساد فتمرض الجوارح وينحل نظام الجسد ويجرى اليه الفساد والهلاك

وراعى الشاة يحمى الذئب عنها ... فكيف اذا الرعاة لها ذئاب

الفصل الخامس

في

﴿ ان الحكومة الاسلامية أشرف الحكومات وأسماها مبدأ وبيان الشورى ودار الندوة عند العرب قديما ﴾

ان الحكومة الاسلامية أشرف الحكومات وأسماها مبدأ لا لانها مدينة بدين الاسلام فقط بل هى حكومة الأمة لا حكومة الفرد فهى مقيدة بكتاب سماوى كريم وأعنى به القرآن الذى هو مغذ للعقول مربى للنفوس مهذب للاخلاق مرق لبنى الانسان الى أقصى مدراج العمران والحياة المادية والادبية وفيه مجال واسع للبحث فى القانون المدنى والقانون الدولى والقانون الشخصى

جاء الاسلام بالقوانين الشرعية المتعلقة بالامور الدينية والدنيوية التى من أصولها المحفوظة اخراج العبد عن داعية هواه وحماية حقوق العباد سواء كانوا من أهل الاسلام أو غيره واعتبار المصالح المناسبة للوقت والحال وتقديم درء المفاسد على جلب المصالح وارتكاب أخف الضررين

بنى الاسلام نظام الحكم على أساس هذه الشريعة وتقييدها لامراء والوزراء وجعلوا أمرهم شورى فيما بينهم امتثالا لقوله تعالى وشاورهم فى الامر حتى لا يخرجوا عن جادة الحق فى الاعمال والافعال لان الاطلاق المطلق فى الملك يؤدى بها الى الظلم المؤدن بخراب

العمران كيفما كان كما ذكره ابن خلدون فى الفصل الثالث من مقدمته

منحت الشريعة الاسلامية الانسان حرية الاتحاد والمساواة بين الناس جميعا والحرية السياسة العامة والحرية السياسة الخاصة فقد كان صلى الله عليه وسلم ليس له أرادة مطلقة فى الأمة بل كان تحت الأمر السماوى مقيدا بأوامر من له الأمر العالى سبحانه وتعالى مشاركا للأمة فى الرأى والتدبير لا ينفرد بالامر فقد استشار قومه مرارا عديدة فمن ذلك انه استشار أصحابه لما خرج القوم من مكة على كل صعب وذلول فقال صلى الله عليه وسلم فما تقولون ألعير أحب اليكم من النفير قالوا بلى

سرت الخلفاء من بعده صلى الله عليه وسلم على سنته واتبعوا شريعته وأشركوا الرعية معهم فى الامر فقد قام أبو بكر رضى الله عنه خطيبا يوم ولى الخلافة على المسلمين فقال أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان رأيتمونى على حق فأعينونى وان رأيتمونى على باطل فردونى أطيعونى ما أطعت الله فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لى عليكم الأان أقواكم عندى الضعيف حتى أخذ الحق له وأضعفكم عندى القوى حتى آخذ الحق منه أقول قولى هذا واستغفر الله لى ولكم

ولذلك كان الفرد من عامة الناس رجالا ونساء يعارض أشد الخلفاء بأسا فى قوله وعمله كما حصل لعمر رضى الله تعالى عنه عندما قام خطيبا ينهى الناس على أن لا يزيدوا فى مهور النساء عن أربعمائة درهم فقامت له امرأة كانت حاضرة فى المجلس وتوجهت نحوه وقالت له كيف تقول هذا يا أمير المؤمنين والله تعالى يقول فى كتابه العزيز وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيأ أتأخذونه بهتانا واثما مبينا ـ فقال عمر عند ذلك اللهم غفرا كل الناس أفقه من عمر ثم علا المنبر وخطب للحاضرين مصوبا كلام المرأة

كانت دولة الاسلام فى عهده (ص) وفى عصر الخلفاء الراشدين عصر العدل الصحيح والحرية الكاملة والشورى الشرعية المنصوص عنها فى ثلاث سور ـ الشورى وآل عمران والنور ثم آل الأمر فى الحكومة المطلقة وأصبح الملك ملكا عضوضا لان الحكومة لم تتقيد بما قيدها به الاسلام من القانون السماوى والشورى فأصبح الذنب على الحكومة لا على الاسلام

فالشورة هى عين الهداية وسبيل الرشاد الى الامر المهم من الرأى قال الضحاك أمر الله تعالى نبيه بالمشاورة لما علم ما فيها من الفضل وما يعود منها من النفع ولان ارسال الخواطر

الثاقبة واصالة الافكار الصافية لا يكاد يعزب عنها ممكن ولا يخفى عليها جائز والمستبد برأيه بعيد من الصواب قريب من الزلل وقال عبد الملك بن مروان لأن أخطئ وقد استشرت أحب الى من أن أصيب وقد اكتفيت برأي وأمضيته بغير مشورة لان المقتصر برأيه يزرى به أمران تصديقه رأياً الواجب عليه تكذيبه وتركه المشورة التى يزداد بها بصيرة

قد أجمع أهل السياسة من العرب على انه ينبغي أن يجتمع في أهل الشورى سبع شروط عليها مدار المشورة وبها يشتمل صواب الرأي احداها الفطنة والذكاء لئلا تشتبه عليهم الأمور فتلتبس فلا يصح مع اشتباهها عزم ولا يتم مع التباسها حزم الثانى الأمانة لئلا يخونوا فيما ائتمنوا عليه أو يغشوا فيما استنصحوا فيه الثالث الصدق صدق اللهجة يخبرهم ليثق الملك فيما ينهون اليه ويعمل برأيهم فيما أشاروا به عليه الرابع أن يسلموا فيما بينهم من التحاسد والتنافس فان ذلك يمنعهم من الكشف عن صواب الرأي الخامس أن يسلموا فيما بينهم وبين الناس من العداوة والشحناء فان العداوة تستدعي التناصف وتحجب عن صواب الرأي السادس أن لا يكونوا من أهل الاهواء تخرجهم الهوى من الحق الى الباطل فان الهوى خدع الألباب وصارف عن الصواب السابع أن يكونوا من كبراء الدولة ومشايخ الاعوان لان المشايخ قد حنكتهم التجارب وعركتهم النوائب وشاهدوا من اختلاف الدول ما أوضح لعقولهم صواب الرأي

وينبغي للملك أن لا يدخل في مشورة بخيلا ولا جبانا ولا حريصا ولا معجبا ولا كذابا لان البخيل يقصر بعقله والجبان يخوفه مما لا يخاف منه والحريص يعد ما لا يرجى فالجبن والبخل والحرص طبيعة واحدة يجمعها سوء الظن قال عبد الملك بن مروان لبعض عماله لا تستعن في أمرك كذابا ولا معجبا فان الكذاب يقرب لك البعيد ويبعد عنك القريب وأما المعجب فليس له رأي صحيح ولا روية تسلم وقال عبيد الله بن وهب الرأي بن ثلاث فان عيوبه تكشف لكم عند محصه

هذا ما ظهر به الاسلام أما ما كان عليه العرب في الجاهلية فان عرب اليمن كانوا يعقدون مؤتمراتهم للمشاورة في أمرهم وواقعة ملكة سبا مع سليمن عليه السلام المذكورة بالقرآن خير شاهد على ذلك ذكر رجال التاريخ ان مجلس الشورى الذي كان في عهدها كان مركبا من ثلاثمائة وثلاثة عشر عضو كل عضو يمثل في عاصمة الملك من الرعايا ألفا أما قريش فانها كانت تعقد مجلسها بدار الندوة في مكة المكرمة وقد ذكرها المورد في تاريخه فقال ما ملخصه

﴿ دار الندوة ﴾

قال الماوردي لم تكن مكة ذات منازل وكانت قريش بعد جرهم والعمالقة ينتجعون جبالها وأوديتها ولا يخرجون من حرمها انتسابا الى الكعبة لاستيلائهم عليها وتخصيصها بالحرم لحلولهم فيه ويرون ان ذلك لهم بشبه شأن وكان كلما كثر فيهم العدد ونشأت فيهم الرياسة قوي أملهم وعلموا أنهم سيقدمون على العرب وكان فضلاؤهم يتخيلون ان ذلك لرياسة في الدين وتأسيس النبوة ستكون فأول من ألهم ذلك منهم كعب بن لؤي بن غالب وكانت قريش تجتمع اليه في كل جمعة وكان يخطب فيهم ويذكر لهم أمر نبينا صلى الله عليه وسلم ثم انتقلت الرياسة الى قصي بن كلاب فبنى بمكة دار الندوة ليحكم فيها بين قريش ثم صارت لتشاورهم وعقد الألوية في حروبهم وكانت هذه الدار لا ينكح رجل من قريش الا فيها ولا يعقد لواء الحرب لهم ولا لغيرهم الا فيها ولا يعذر غلام الا فيها ولا تدرع جارية من قريش الا فيها يشق عليها درعها ثم تدرع وتنطلق بها الى أهلها ولا تخرج عير من قريش الا منها ولا يقدمون الا نزلوا فيها

قال الكلبي وكانت أول دار بنيت بمكة ثم تتابع الناس فبنوا الدور كلما قربوا من الاسلام ازدادوا قوة وكثرة عدد حتى دانت لهم العرب قال الماوردي صارت بعد قصي لابنه عبد الدار فابتاعها معاوية في الاسلام من عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف ابن عبد الدار ابن قصي وجعلها دار الأمارة وفي رواية أخرى ان معاوية اشتراها لما حج وهو خليفة بمائة ألف درهم وهي في الجانب الشمالي للمسجد الحرام مجعولة مصلى الحنفي اليوم

وللعرب حكم كثيرة وأقوال في الشورى نقتصر عن ذكرها بما قاله بشار بن برد المتوفي سنة ١٦٧ هجرية

اذا بلغ الرأي المشورة فاستعن ... برأي نصيح أو مشورة حازم
ولا تحسب الشورى عليك غضاضة ... فان الخوافي قوة للقوادم
وما خير كف أمسك الغل أختها ... وما خير سيف لم يؤيد بقائم
وخل الهوينا للضعيف ولا تكن ... نؤوما فان الحزم ليس بنائم
وادن الى القربى المقرب نفسه ... ولا تشهد الشورى أمرأ غير كاتم
فانك لا تستطرد الهم بالمنى ... ولا تبلغ العليا بغير المكارم

فالشورى في الاسلام هي أرقى بكثير من الدستور القائم عليه أمر الممالك الاوربية

وغيرها من الدول لان الدستور مقيد بقيود والصوت فيه للنواب المنتخبين عن الأمة أما الشورى فى الاسلام فطلقة غير مقيدة لأنها أباحت لكل فرد من أفراد الأمة مهما كان ذكراً أو أنثى شريفاً أو وضيعاً أن يبدأ رأيه على ملاً من الناس فى وسط اجتماع عاما يحضره الامير والحقير ويخطب فيه الخلفاء والامراء طالبين من كل فرد ابداء رأيه فيقوم الفرد الذى لا يعرف له اسم ولا صفة قبل الاجتماع وربما كان أشعث أغبر فيرد على الأمير بما يراه سواء كان صائباً أو مخطئا كما حصل فى أيام عمر رضى الله عنه وغيره من الأمراء السالفين فكان لا يحقرن فى أمره ولا يسفهن فى رأيه كما هو واقع الآن فى الامم الاسلامية التى أصبحت أفرادها مدينين بدين البغضاء والشحناء والحسد والاستئثار بحب النفس والرياسة للشهرة .

الفصل السادس

فى

﴿ الكتابة ﴾

الكتابة عند العرب قديمة جداً لا يعلم تاريخها بالضبط وقد دلت الروايات على ان أول من كتب بالعربية هم أهل اليمن من قوم هود عليه السلام وهم العرب البائدة وكانت تسمى كتابتهم بالخط المسند وهى معروف بالخط الحميرى وكانوا يكتبون كل حروفه منفصلة ويمنعون العامة من تعلمه فلا يتعلمه أحد إلا باذنهم حتى تعلمه مرامر بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة وهم من عرب طى فتصرفوا فيه وسموه بخط الجزم لانه جزء من الخط الحميرى ثم علموه أهل الانبار ومنهم اشتهرت الكتابة فى البلاد العربية ثم اجتهد فى تحسينه أهل الكوفة فى عصر الاسلام حتى عرف بالخط الكوفى وكان الخط خالياً من النقط والحركات والسكنات الى أن وضع أبو الأسود الدؤلى الشكل فى أيام معاوية ووضع ابن عاصم النقط فى أيام عبد الملك بن مروان ومن وقتها أخذ الخط فى التحسين شيأ فشيأ الى أن وصل الى الدرجة التى عليها الآن

وذكر علماء التاريخ أن الذين وضعوا الكتابة وابتدعوا رسومها هم الأنبياء عليهم

السلام فكان يوسف يكتب للعزيز وهارون ويوشع بن نون كان يكتبان لموسى عليه السلام وسليمان بن داود كان يكتب لأبيه ويحيي بن زكريا كان يكتب لعيسى عليه السلام وقد كتب بها الخلفاء فى زمنه صلى الله عليه وسلم وكان من المواظبين على كتاب الرسائل عن النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله بن الأرقم الزهرى وكان الكاتب لعهده اذا عهد وصلحه اذا صالح على بن أبى طالب رضى الله عنه وممن كتب له صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وغيره من الصحابة كثيرون (راجع كتاب الكتاب) لابن شبة

سبق العرب علماء أوروبا فى حل رموز الخطوط القديمة وترجمة كتبها الى اللغة العربية ولا أخال ان أوروبا ماتوصلت الى حل رموز الآثار والوقوف على علوم من سبق من الأمم إلا بواسطة كتب العرب وترجمتها الى لغتهم فمن ذلك مارأيته بعيني وطالعت فيه بنفسي وهو كتاب شوق المستهام الى معرفة رموز الأقلام لأحمد بن وحشية النبطى المتوفى سنة ٣٢٢ هجرية فان مؤلفه جمع فيه صور الخطوط القديمة التى تداولتها الأمم الماضية وترجمها جميعها الى اللغة العربية ووضعها بطريقة يسهل للمطلع عليها أن يترجم ما على الآثارات من الكتابة على اختلاف أنواعها الى اللغة العربية فرحم الله هذا العربى الذى سهل لمن يأتى بعده من الأمم طريق الوقوف على أسرار من مضى وهنيئا لعلماء أوروبا الذين ترجموا هذا الكتاب الى لغتهم فقد ترجمه الانكليز منذ مائة وعشرين سنة ووقفوا بواسطته على آثار الأمم الماضية وعلى تاريخ حياتهم وكذلك باقى طوائف أوروبا

فأعمال المستشرقين ووقوفهم على حل رموز الآثار ماهى إلا نتيجة بحثهم فى هذا الكتاب ووقوفهم عليه واخفائه عنا حتى لانسبقهم فيه

فصنعة الكتابة أشرف صنعة وأعظم دليل على رفعة شأنها وجليل قدرها أن الله تعالى نسب تعليمها الى نفسه فقال عز اسمه (اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم) والآيات فى ذلك كثيرة وقد قال صلى الله عليه وسلم (قيدوا العلم بالكتابة) مشيرا الى الغرض المطلوب منها وغايتها المجتناة من ثمرها قال القلقشندى فى كتاب صبح الاعشى ان كل ذى صنعة لابدله فى معاناتها من مادة جسمية تظهر فيها الصورة وآلة تؤدى الى تصويرها وغرض ينقطع الفعل عنه وغاية تستثمر من صنعته والكتابة أحد الصنائع فلابد من الامور الاربعة فمادتها الالفاظ التى يخيلها الكاتب فى أوهامه وتصور من ضم بعضها الى بعض صورة باطنة تامة فى نفسه بالقوة والخط الذى يخطه القلم ويقيد به تلك الصورة وتصير بعد أن كانت صورة معقولة صورة محسوسة ظاهرة وآلتها القلم وغرضها الذى ينقطع الفعل

عنده الالفاظ بالرسوم الخطية فتكمل قوة النطق وتحصل فائدته للابعد كما تحصل للاقرب وتحفظ صورته ويؤمن عليه من التغيير والتبديل وغايتها الشيء المستقر منها وهي انتظام جمهور المعاون والمرافق العظيمة العائدة في أحوال الخاصة والعامة بالفائدة الجسيمة في أمور الدين والدنيا اهـ

وقد بالغ كتاب العرب في فائدة الكتابة وشرفها وسمو مكانتها لدى الأمراء والملوك ومن أشد مبالغتهم فيها ومدحهم لها ما قاله مكحول — لا دية لمن لا تكتب وقد قال المؤيد الكتابة مناصب الدنيا بعد الخلافة اليها ينتهي الفضل وعندها تقف الرغبة ومن كلام أبي جعفر الفضل بن أحمد في جملة رسائل له الكتابة أس الملك وعماد المملكة وأغصان متفرقة من شجرة واحدة والكتابة قطب الادب وملاك الحكمة ولسان بالفضل وميزان يدل على رجاحة العقل فهي حلية وزينة ولبوس وجمال وهيبة وروح جارية في أقسام متفرقة والكاتب أرفع درجة وأفضل منزلة ومن جهل حق الكتابة فقد وسم بوسم الغواة الجهلة وبالكتابة والكتاب قامت السياسة والرياسة

فبالكتابة قد تنبه قوم بعد الخمول وصاروا الى الرتب العالية والمنازل السامية وارتفعوا شأناً وقدراً فنهم سرجون بن منصور الرومي فانه كان رومياً خاملاً فرفعته الكتابة وكتب لمعاوية ويزيد ومروان وعبد الحميد الأكبر وعبد الصمد وغيرهم وقحذمة جد الحجاج بن هشام القحذمي وهو الذي قلب الدواوين من الفارسية الى العربية وكذلك الوزير المهلبي الذي ترقى بالكتابة حتى وزر لمعز الدولة ابن بويه الديلمي فانه كان أول أمره في شدة عظيمة من الفقر والفاقة فاتفق انه سافر مرة فلقي في سفره ضيقاً شديداً حتى انه اشتهى اللحم ولم يقدر عليه فقال ارتجالا

ألا موت يباع فاشتريه   فهذا العيش مالا خير فيه
ألا موت لذيذ الطعم يأتي   يخلصني من الموت الكريه
ألا رحم المهيمن نفس حر   تصدق بالوفاء على أخيه

وكان معه رفيق فاشترى له لحما وأطعمه

وقد كتب أهل البلاغة كثير في شرف الكتابة وفضل الكتاب حتى أن بعضهم رجح القلم عن السيف كما قال ابن الرومي

أن يخدم القلم السيف الذي خضعت   له الرقاب وقد دانت لاحم
فالموت والموت شيء لا يعالبه   ما زال يتبع مايجري به القلم

كذا قضى الله للاقلام مذ برئت   ان السيوف لها مذ أرهفت خدم

وكتب صاحب البيان ما ملخصه انه لا عبرة بمن قعد به الجد وتخلف عنه الحظ من أهل هذه الصناعة ان قعدت به الأيام فلا بد أن يرفع قدره فى أخرى لان دولة الفاضل من الواجبات ودولة الجاهل من الممكنات خصوصا اذا صادف الكاتب الفاضل ملكا فاضلا أو رئيسا كاملا فانه يوفيه حقه ويرقيه الى حيث استحقاقه فالملوك أحوج الى الكتاب من الكتاب الى الملوك

﴿ الديوان ﴾

الديوان هو اسم للموضع الذى يجتمع فيه أرباب الاقلام من الكتاب وقد اختلفوا فى أصله فقال قوم ان أصله عربى وقال آخرون ان أصله فارسى كما اختلفوا فى أصل اشتقاقه قال النحاس ان أصله دووان فأبدلت احدى الواوين ياء فقيل ديوان والمدون عنه فى لغة العرب ان الديوان الاصل الذى يرجع اليه ويعمل بما فيه ومنه قول العباس اذا سألتمونى عن شئ من غريب القرآن فالتمسوه من الشعر فان الشعر ديوان العرب ويقال دوّنه أى أثبته

فهذا رأى من قال بأن الديوان أصله عربى أما الفريق القائل بأن الاصل فيه أعجمى فهم على رأى الاصمعى وعلى ما قاله الجوهرى فى صحاحه فانه قال ان الديوان فارسى معرب وقد كتب أبو الحسن الماوردى فى كتاب الاحكام السلطانية ان الديوان محفوظ بحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الاعمال والاموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال

وفى تسميته ديوانا وجهان — أحدهما ان كسرى دخل ذات يوم على كتاب ديوانه فرآهم يحسبون مع أنفسهم فقال ديوانه (أى مجانين وهى كلمة فارسية) فسمى موضعهم بهذا الاسم ثم حذفت الهاء مع تداول الزمن عند كثرة الاستعمال تخفيفا للاسم فقيل ديوان الثانى ان الديوان اسم بالفارسية للشياطين فسمى الكتاب باسمهم لحذقهم بالأمور ووقوفهم على الجلى والخفى وجمعهم لما شذ وتفرق واطلاعهم على ما قرب وبعد ثم سمى مكان جلوسهم باسمهم فقيل ديوان اهـ

وكان أول ديوان وضع فى الاسلام هو ديوان الرسائل الذى سمى أخيرا بديوان الانشاء وذلك ان النبى صلى الله عليه وسلم كان يكاتب أمراءه وأصحاب سراياه من الصحابة ويكاتبونه

وتسميته بديوان الانشاء أخيرا يحتمل أمرين — أحدهما ان الأمور السلطانية من

المكاتبات والولايات تنشأ عنه وتبتدأ منه ـ والثانى ان الكاتب ينشئ لكل واقعة مقالا

كانت كتابة الدواوين فى الصدر الأول من الاسلام أن يجعل ما يكتب صحفا متدرجة ولما انقضت دولة بنى أمية وقام عبد الله بن محمد أبو العباس السفاح استوزر خالد بن برمك بعد أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال فجعل الدفاتر فى الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج الى أن تصرف جعفر بن يحيى خالد بن برمك فى الأمور أيام الرشيد فاتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعده الى اليوم وفى عهده ترقت الدواوين وتبعتها فى الترقية الكتابة وانتشار العلم

وقد ذكر بعض المؤرخين فى تاريخ بغداد ان التعليم فى زمن الرشيد كان إجباريا وعلى كل فرد من الافراد التعلم وبسبب ذلك انتشرت دور التعليم فى بغداد وما جاورها بكثرة لترغيب المتعلمين وتنشيطهم بالمكافآت والعطايا التى كانت توزع على الناجحين منهم فى ختام كل سنة

﴿ الكاتب ﴾

الكاتب هو الذى يتولى تحرير المراسلات والخطابات والاوامر التى تصدر من الملوك والوزراء وهو من الملك بمنزلة الاعضاء من الجسم ومن الامة بمرتبة المهذب للاخلاق والمربى للنفوس لان تأثير الاقلام أشد وقعا من ضرب الحسام فقد قال الاسكندر لولا القلم ما قامت الدنيا ولا استقامت المملكة وقد قال بعض الحكماء أيضا ان عقول الرجال تحت أسنة أقلامها فبنو الاقلام يصوب غيث الحكمة ولابى هلال العسكرى قصيدة فيه منها

قسم العطايا والمنايا فى الورى ... فاذا نظرت اليه فاحذر وأمل
طعمان شوب حلاوة بمرارة ... كالدهر يخلط شهده بالحنظل
فاذا تصرف فى يديك عنانه ... ألحقت فيه مؤملا بمؤمل
ومذللا بمعزز ولربما ... ألحقت فيه معززا بمذلل

فالقلم مجهز لجيوش الكلام تخدمه الارادة ولذلك قد اشترطت العرب أن يكون الكاتب متصفا بصفات الكمال متنزها عن الرذائل متحليا بالفضائل عالما بالعلوم الشرعية والادبية والامور السياسية متمكنا من اللغة العربية مضطلعا على تواريخ السلف وقد قال ابن الاثير فى المثل السائر ان صاحب هذه الصناعة (أى الكتابة) يحتاج للتشبث بكل فن من الفنون لا يستغنى عن علم ولا يسعه الوقوف عند حد وقد قسم وصفه الكاتب الى صفتين

احداهما واجبة والاخرى عرفية

﴿ الصفات الواجبة ﴾

ان الصفات الواجبة التي يجب على الكاتب أن يتصف بها واشترطت العرب وجودها فيه هي عشر صفات

الاولى أن يكون مؤمنا ليؤمن فيما يكتبه وعليه قال أبو الفضل الصوري في تذكرته ان من الفطرة التي جبل كل واحد عليها حنين كل شخص من الناس الى من يرى رأيه ويدين بدينه وهذا أمر يجده كل واحد من نفسه ولذلك اشترط بعضهم في الكاتب أن يكون على مذهب الملك الذي يتمذهب به ليكون موافقا له من كل وجه - الثانية أن يكون ذكورا - الثالثة الحرية - فقد اشترط أمراء العرب أن يكون الكاتب حرا لما في العبد من النقص فلا يعتمد في كل القضايا ولا يوثق به في كل الاحوال - الرابعة التكليف لان الصبي لا يعول عليه ولا يوثق به ولا اعتماد عليه - الخامسة - العدالة فلا يجوز أن يكون الكاتب فاسقا لانه بمنزلة كبيرة ورتبة خطيرة يحكم في أرواح الناس وأموالهم لانه لو زاد أدنى كلمة أو حذف حرفا أو كتم شيأ قد علمه أو تأول لفظا بغير معناه أو موه على الملك حتى يمدح المذموم ويذم الممدوح فمتى لم يكن له دين يحجزه عن ارتكاب المآثم ويزعه عن اجتناب المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع وأثر فعله من الاضرار ما لم تؤثره السيوف وقد قال أبو الطيب والماوردي باشتراط العدالة في الكاتب لانه ربما حمله الفسق وعدم الاكتراث بأمور الدين على وهن يدخله عليه بقلمه أو ضرر يجلبه بلسانه لان الكتابة ولاية شرعية والفاسق لا تصح توليته شيأ من أمور المملكة - السادسة - البلاغة لان الكاتب البليغ يصيب الغرض في كتابته فأغنى عن الكتائب وأعمال القلم تكفيه أعمال بيض القواضب - السابعة - وفور العقل وجزالة الرأي فان العقل أس الفضائل ومن لا عقل له لا انتفاع به وكلام المرء ورأيه على قدر عقله - الثامنة - أن يكون عالما بمواد الاحكام الشرعية والفنون الادبية لان الجاهل لا تمييز له بين الحق والباطل ولا معرفة ترشده - التاسعة - قوة العزة وعلو الهمة وشرف النفس لانه يكاتب الملوك وكل كاتب يجذبه طبعه في الكتابة الى ما يميل اليه فكلما كان الكاتب أقوى نفسا وأشد عزما وأعلى همة كان ذلك أمضى وهو عليه أقدر - العاشرة - الكفاءة لما يتولاه لأن العاجز يدخل الضرر على المملكة ويوجب الوهن وربما أدى عجزه الى الوبال وأدى ضعفه الى الاضطراب والاخلال

هذه الصفات الواجبة للكتاب أما الصفة الثانية فهى

﴿ الصفات العرفية ﴾

أما الصفات العرفية فهى ما ذكره المهذب بن مماتى فى كتابه قوانين الدواوين انه ينبغى أن يكون الكاتب أديبا حاد الذهن قوى النفس حاضر الحس جيد الحدس حاو اللسان له جرأة يثبت بها الامور و على حكم البديهة وفيه تؤدة يقف بها فيما لا يظهر على حسد الروية شريف الانفة عظيم النزاهة كريم الاخلاق مأمون الغائلة مؤدب الخدام فيه اعتدال القامة وصغر الهامة وخفة اللهازم وصدق القول ولطف المذهب مليح الزى بهى الملبس نظيف المجلس عطر الرائحة حاو الاشارة مليح العبارة

هذه هى الصفات التى ينبغى أن يكون الكاتب متصفا بها خصها القراء من كتب العرب المطولة ككتاب الصناعتين وأدب الكاتب وصناعة الكتاب وكتاب قوانين الدواوين وصبح الاعشى وكتاب الكتاب لعمر ابن شبة

وممن اشتهر من كتابهم بالبلاغة وقوة الملكة فى الكتابة حتى انتشر ذكره فى الآفاق وصار يضرب به المثل عن ممر الزمان عبد الحميد بن يحيى كاتب مروان الذى وضع لهم رسالته المشهورة وأودع فيها من المواعظ والحكم و لاخلاق والسياسة التى يجب على أهل هذه الصناعة معرفتها فآثرنا نشرها ليطلع عليه كتابنا لكى يعلموا أن العرب سبقت أوروبا فى وضع علم أدب الكاتب

﴿ رسالة عبد الحميد الى الكتاب ﴾

أما بعد حفظكم الله يا أهل صناعة الكتابة وحاطكم ووفقكم وأرشدكم فان الله عز وجل جعل الناس بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ومن بعد الملائكة المكرمين أصنافا وان كانوا فى الحقيقة سواء وصرفهم فى صنوف الصناعات وضروب المحاولات الى أسباب معاشهم وأبواب أرزاقهم فجعلكم معشر الكتاب فى أشرف الجهات أهل الأدب والمروآت و العلم والرزانة بكم تنتظم للخلافة محاسنها وتستقيم أمورها و بنصائحكم يصلح الله للخلق سلطانهم ويعمر بلدانهم لا يستغنى الملك عنكم ولا يوجد كاف إلا منكم فموقعكم من الملوك موقع أسماعهم التى بها يسمعون وأبصارهم التى بها يبصرون وألسنتهم التى بها ينطقون وأيديهم التى بها يبطشون فأمتعكم الله بما خصكم من فضل

صناعتكم ولا نزع عنكم ما أضفاه من النعمة عليكم وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج الى اجتماع خلال الخير المحمودة وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب اذا كنتم على ما يأتي في هذا الكتاب من صفتكم فان الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره أن يكون حليما في موضع الحلم فهيما في موضع الحكم مقداما في موضع الاقدام محجاما في موضع الاحجام مؤثرا للعفاف والعدل والانصاف كتوما للأسرار وفيا عند الشدائد عالما بما يأتي من النوازل يضع الأمور مواضعها والطوارق في أماكنها قد نظر في كل فن من فنون العلم فاحكمه وان لم يحكمه أخذ منه بمقدار من الحسن واحتال على صرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة وقد علمتم ان سائس البهيمة اذا كان بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها فان كانت جموحا لم يهجها اذا ركبها وان كانت شبوبا اتقاها من بين أيديها وان خاف منها شرودا توقاها من ناحية رأسها وان كانت حرونا قمع برفق هواها في طرقها فان استمرت عطفها يسيرا فيسلس له قيادها وفي هذا الوصف من السياسة دلائل لمن ساس الناس وعاملهم وجربهم وداخلهم والكاتب بفضل أدبه وشريف صنعته ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره من الناس ويناظره ويفهم عنه أو يخاف سطوته أولى بالرفق لصاحبه ومداراته وتقويم أوده من سائس البهيمة التي لا تحير جوابا ولا تعرف صوابا ولا تفهم خطابا الا بقدر ما يصيرها اليه صاحبها الراكب عليها

ألا فارفقوا رحمكم الله في النظر واعملوا فيه ما أمكنكم من الروية والفكر تأمنوا باذن الله ممن صحبتموه النبوة والاستثقال والجفوة ويصير منكم الى الموافقة وتصيرون منه الى المؤاخاة والشفقة ان شاء الله تعالى

ولا يجاوزن الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ومطعمه ومشربه وبنائه وخدمه وغير ذلك من فنون أمره قدر حقه فانكم مع ما فضلكم الله به من شرف صنعتكم خدمة لا تحملون في خدمتكم على التقصير وحفظة لا تحتمل منكم أفعال التضييع والتبذير واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما ذكرته لكم وقصصته عليكم واحذروا متالف السرف وسوء عاقبة الترف فانهما يعقبان الفقر ويذلان الرقاب ويفضحان أهلهما ولا سيما الكتاب وأرباب الآداب وللأمور أشباه وبعضها دليل على بعض فاستدلوا على مؤتنف أعمالكم بما سبقت اليه تجربتكم ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة وأصدقها حجة وأحمدها عاقبة

واعلموا أن التدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل لصاحبه عن انفاذ علمه ورويته فليقصد الرجل منكم فى مجلسه قصد الكافى من منطقه وليوجز فى ابتدائه وجوابه وليأخذ بمجامع حججه فان ذلك مصلحة لفعله ومدفعة للتشاغل عن اكثاره وليضرع الى الله فى صلة توفيقه وأمداده بتسديده مخافة وقوعه فى الغلط المضر ببدنه وعقله وأدبه فانه ان ظن منكم ظان أو قال قائل ان الذى برز من جميل صنعته وقوة حركته انما هو بفضل حيلته وحسن تدبيره فقد تعرض بظنه أو مقالته الى أن يكله الله عز وجل الى نفسه فيصير منها الى غير كاف وذلك على من تأمله غير خاف ولا يقول أحد منكم انه أبصر بالأمور وأحمل لعبء ما يكتفى به يعرف بغريزة عقله وحسن أدبه وفضل تجربته مما يرد عليه قبل وروده وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره فيعد لكل أمر عدته وعتاده ويهيئ لكل وجه هيئته وعادته

فتنافسوا يا معشر الكتاب فى صنوف الآداب وتفقهوا فى الدين وابدؤا بعلم كتاب الله عز وجل والفرائض ثم العربية فانها ثقاف ألسنتكم ثم أجيدوا الخط فانه حلية كتبكم وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرها فان ذلك معين لكم على ما تسموا اليه هممكم ولا تضيعوا النظر فى الحساب فانه قوام كتاب الخراج وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيها ودنيها وسفساف الأمور ومحقرها فانها مذلة للرقاب مفسدة للكتاب ونزهوا صناعتكم عن الدناءة واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة وما فيه أصل الجهالات واياكم والكبر والسخف والعظمة فانها عداوة مجتلبة من غير إحنة وتحابوا فى الله عز وجل فى صناعتكم وتواصوا عليها بالذى هو أليق لأهل الفضل والعدل والنبل من سلفكم وان نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه وواسوه حتى يرجع اليه حاله ويثوب اليه أمره وان أقعد أحدا منكم الكبر عن مكسبه ولقاء اخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظهروا بفضل تجربته وقديم معرفته وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته اليه أحوط منه على ولده وأخيه فان عرضت فى الشغل محمدة فلا يصرفها الا الى صاحبه وان عرضت مذمة فليحملها هو من دونه وليحذر السقطة والزلة والملل عند تغير الحال فان العيب اليكم معشر الكتاب أسرع منه الى القراء وهو لكم أفسد منه لها فقد علمتم ان الرجل منكم اذا صحبه من يبذل له من نفسه ما يجب له عليه من حقه فواجب عليه أن يعتقد له من وفائه وشكره واحتماله وخيره ونصيحته وكتمان سره وتدبير أمره ما هو جزاء لحقه ويصدق ذلك تبعا له عند الحاجة اليه والاضطرار الى ما لديه فاستشعروا ذلك وفقكم الله من أنفسكم فى حالة الرخاء والشدة والحرمان والمواساة والاحسان والسراء

والضرء فنعمت التسمية هذه من وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة - واذا ولى الرجل منكم أو صير اليه من أمر خلق الله وعياله أمر فليراقب الله عز وجل وليؤثر طاعته وليكن على الضعيف رفيقا وللمظلوم منصفا فان الخلق عيال الله وأحبهم اليه أرفقهم بعياله

ثم ليكن بالعدل حاكما وللأشراف مكرما وللفيء موفرا وللبلاد عامرا وللرعية متألفا وعن أذاهم متخلفا وليكن فى مجلسه متواضعا حليما وفى سجلات خراجه واستقصاء حقوقه رفيقا واذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه فاذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما وافقه التدبير من مرافقه فى صناعته ومصاحبه فى خدمته فان أعقل الرجلين عند ذوى الالباب من رمى بالعجب وراء ظهره ورأى ان صاحبه أعقل منه فى طريقته وعلى كل واحد من الفريقين أن يعرف فضل نعم الله جل ثناؤه من غير اغترار برأيه ولا تزكية لنفسه ولا يكاثر على أخيه أو نظيره وصاحبه وعشيره

وحمد الله واجب على الجميع وذلك بالتواضع لعظمته والتذلل لعزته والتحدث بنعمته وانا أقول فى كتابى هذا ما سبق به المثل من تلزمه النصيحة يلزمه العمل وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه بعد الذى فيه من ذكر الله عز وجل فلذلك جعلته آخره وتممته به تولانا الله واياكم يا معشر الطلبة والكتبة بما يتولى به من سبق علمه باسعاده وارشاده فان ذلك اليه وبيده والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

كلمة ختامية

فى

﴿ أسباب انحطاط الأمم ﴾

﴿ من هدم دينه كان لمجده أهدم ﴾

(ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم)

انحطاط أى أمة من الأمم وارتفاعها متوقف على ارادتها وعملها فاما ان تفعل لترتفع و يعلو شأنها وتقوى شوكتها واما أن تعمل لتندثر و يذهب ريحها كما ذهب غيرها من قبل فانخفاض الأمة وارتقاؤها متوقفان على قدر تمسكها بدينها الذى تدين به واتباع أوامره

والأنتهاء بنواهيه والعمل بشريعتها التي سنت لها التسير عليها لان الشرائع ما وضعت الا لحفظ النظام والتوازن بين الأمم القائم عليها هذا الكون فأساس العمران لكل مملكة هو الدين المهذب للنفوس قال الماوردي الدين المتبع يصرف النفوس عن شهواتها ويعطف القلوب على اراداتها حتى يصير قاهر السرائر زاجر الضمائر رقيبا في خلواتها نصوحا لها في ملماتها وهذه الأمور لا يوصل بغير الدين اليها ولا يصلح الناس الا بها فكان الدين أقوى قاعدة في صلاح الدنيا واستقامتها وأجدى الامور نفعا في انتظامها وسلامتها ولذلك لم يخل الله تعالى خلقه منذ فطرهم عقلاء من تكليف شرعي واعتقاد ديني ينقادون لحكمه فلا تختلف بهم الاراء ويستسلمون لامره فلا تتصرف بهم الأهواء وانما اختلف العلماء رضي الله تعالى عنهم في العقل والشرع هل جاء مجيئا واحدا أم سبق العقل ثم تبعه الشرع فقالت طائفة جاء العقل والشرع معا مجيئا واحدا لم يسبق أحدهما صاحبه وقالت طائفة أخرى سبق العقل ثم تبعه الشرع لان بكمال العقل يستدل على صحة الشرع وقد قال تعالى أيحسب الانسان أن يترك سدى وذلك لا يوجد منه الا عند كمال العقل

فثبت أن الدين من أقوى قواعد صلاح الدنيا وهو الفرد الاوحد في صلاح الآخرة وما كان به صلاح الدنيا والآخرة لحقيق بالعقل أن يكون به متمسكا وعليه محافظا وقال بعض الحكماء الادب أدبان أدب شريعة وأدب سياسة فأدب الشريعة ما أدى الى الفرض وأدب السياسة ما أدى الى عمارة الارض

فالامة الاسلامية ما بلغت في ابتداء نشأتها الدرجة العليا من الثروة والشوكة وعلا شأنها وارتفع قدرها ومكنت معززة الجانب نافذة الكلمة لدى من جاورها من الممالك مدة من الزمان الا لانها كانت محترمة للاصول الشرعية والنواميس الالهية محافظة على دينها متمسكة بآدابه عاملة بوصاياه ومنتهية بنواهيه مجدة في نشر العلم آخذة بأسباب العدل الذي هو أساس العمران متحدة في القول والعمل

فتحت الأمة الاسلامية في ظرف ثمانين سنة من الأقاليم أكثر مما فتحه الرومان في ثمانية قرون ففي ذلك دليل على ما كان لها من سعة العمران والقوة الناشئة عن العدل واجتماع الكلمة واتحاد الممالك في الرأي وحسن السياسة واعتنائها بالعلوم والصنائع ونحوها من المآثر العرفانية التي ظهرت فيها ودعج لاورو باويين على موالها حتى شهد المنصفون منهم بالتقدم فيها للأمة الاسلامية كما ذكرنا في هذا الكتاب

فالاسلام دين الفطرة وهو جتماعي دو قوانين نظامية ونواميس حيوية وأخروية

يحض على مكارم الأخلاق ومحامد الصفات وينهى عن الفحشاء والمنكر وهجر الاثم ماظهر منه ومابطن ويحث على الاتحاد والتآلف بدليل قوله تعالى انما المؤمنون اخوة ويأمر بالعدل والاحسان فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم والأقربين وباحترام الغير فى قوله تعالى ياأيها الذين آمنوا لاتجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن

تمسكت الأمة الاسلامية بدينها سنين معدودة فأمد الله سلطان شوكتها على المشرق والمغرب وأيدها بروح من عنده فدانت لهم الأرض مدة من الزمان وعم العدل ملكهم أما الآن فأصبحنا فى ذل بعد عز وضعف بعد قوة وفقر بعد غناء وصرنا مسودين بعد ان كنا سادة فى الأمم محكومين بعد ان كنا حاكمين بسبب تركنا لديننا وشريعتنا واتباع طريق الضلالة والغواية والانغماس فى الملذات والشهوات الحيوانية وترك المحاسن من الأمور وصفات الكمال

فما من أمة سرت فيها الشهوات إلا وكان نصيبها من الانحطاط بقدر انغماسها فيها فمن هدم دينه كان لمجده أهدم ومن ظلم نفسه كان لغيره أظلم

فعوامل انحطاط الأمم وأسباب ابادة أى أمة كثيرة منها استعمال غير أبناء البلاد فى تدبير شؤونها والوثوق بهم فى كل الأمور والاستسلام لهم فقد كان سبب الخراب مبدأه فى الدول الاسلامية السابقة هو ان المعتصم أحد الخلفاء العباسيين جلب له من غير جنس بلاده حرسا يحرسونه وتغالى فى ذلك وولى بعضهم الأحكام فأخذوا يقتلون ويولون ويعزلون كما يشاؤن ومنها أخذت الدولة فى الانحطاط والتقهقر وضعفت شوكة الخليفة وقويت سلطتهم حتى لم يبق له إلا الاسم فقط ثم لما تولى المستعصم الخلافة بعده ركن الى وزيره ابن العلقمى الرافضى فأهلك الحرث والنسل ولعب بالخليفة وأراد قطع الدولة العباسية ليقيم خليفة من آل على وأخذ يراسل التتار سرا والمستعصم غريق فى بحر لذاته وجمع الأموال لا يطلع على الامور وقد أشار عليه الوزير بصرف أكثر الجند وان مصانعة التتار واكرامهم يحصل بها المقصود ففعل ذلك ثم ان الوزير كاتب التتار وأطمعهم فى البلاد وسهل عليهم ذلك وطلب أن يكون نائبهم فوعدوه بذلك وتأهبوا لاحتلال بغداد فوصلوها سنة ٦٥٦ وكان عددهم مائتا ألف مقاتل ورئيسهم هلاكو فخرج اليهم عسكر الخليفة فانهزموا امام عسكر التتار فأشار الوزير على المستعصم بمصانعتهم وقال أخرج اليهم أنا فى تقرير الصلح فخرج ووثق لنفسه منهم وعاد الى الخليفة وقال ان الملك قد رغب أن يزوج ابنته بابنك ويبقيك فى منصب الخلافة

كما أبقى صاحب الروم فى سلطنته وأن تكون تحت طاعته كما كان أجدادك مع الملوك السلجوقية وينصرف عنك بجيشه فتجيب إليه ولاى الى هذا فان فيه حقن الدماء والرأى أن تخرج اليه فى جميع أعيان المملكة فخرج اليه فأنزل فى خيمة ثم دخل الوزير فاستدعى الفقهاء والاماثل ليحضروا العقد فخرجوا من بغداد فضربت أعناقهم وعمل القتل فى جميع العلماء والامراء والحجاب وأكابر القوم وقتل الخليفة فسائم استمر القتل والنهب فى بغداد أربعين يوما

ولقى هذا الوزير من التتار بعد ذلك مالقى من سوء العذاب ولم يتم له ما أراد فذاق الذل والهوان ولم تطل أيامه ومات كمدا لا رحمه الله ولا عفى عنه

ومن أسباب الابادة الجهل الذى هو أساس كل خطيئة وعليه خراب العمران لانه يتولد منه كل قبيح ومن عواملها أيضا عدم التعاون والاتحاد وانقسام أهل المملكة الواحدة الى فرق متعددة أو قيامهم ضد ملكهم أو حاكمهم والتجائهم الى غير ملوكهم المتحدين معهم فى الجنس والدين كما فعل أهل الاندلس فان انقسامهم وانشقاقهم ووقوع الفتن بينهم ساعد على دخول الافرنج فى بلادهم والاستيلاء عليها ومقاتلهم حتى أهلكوهم وتسلطوا عليهم فى الدين وأجلوهم عن البلاد

فالانقسام وتعدد الاحزاب التى أساسها الحسد وحب الرياسة يوجب ضعف الامة وانحلال العصبية وتفريق الكلمة

فاتحاد الامة يجعلها كشخص واحد لا يقوى على تفريقها أحد قال ابن مسكويه ان الضرورة داعية الى استعانة الناس الى بعض لان الناس مطبوعون على النقائص ومضطرون الى اتمامها ولا سبيل لافرادهم والواحد فالواحد منهم الى تحصيل تمامه بنفسه

فالحاجة صادقة والضرورة داعية الى حال تجمع وتؤلف بين اشتات الاشخاص ليصيروا بالاتفاق والائتلاف كالشخص الواحد الذى تجتمع اعضاؤه كلها على الفعل الواحد النافع له

فالامم الاسلامية الآن منشقة على أنفسها لجهلها بحقائق دينها وأصوله وتفشى الشهوات فيهم وانغماسهم فى بحر الجهل فالدين ما فسد وهو باق مابقى الزمان ولكن الذين فسدوا هم أهله لتركهم اياه واتباع أهوائهم فتغيرت بذلك عوائدهم فسلط الله عليهم من يأخذ له بحقه منهم فان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم

بحمد الله العلى مكانه المنير برهانه العزيز سلطانه الثابتة كلماته قد تم طبع هذا
الكتاب ووضعه على هذا النسق والترتيب فى يوم السبت المبارك ٣٠ ربيع الثانى
سنة ١٣٢٩ هجرية على صاحبها أفضل الصلاة وأزكى التحية الموافق ٢٩ ابريل سنة ١٩١١
ميلادية وهو يوم افتتاح المؤتمر الاسلامى المصرى وكان طبعه بمطبعة السعادة العامرة
التى أظهر صاحبها براعة فائقة وهمة شائقة فى انجازه فى مسافة لاتتجاوز الثمانية
عشر يوما من تقديمه اليه فهو فضل يشهد له بالسبق على من يماثله من أرباب هذا
الفن وبهمة من خدم الادب وأهله والعلم بفضله حتى تزينت صحائف التاريخ
بذكره الساعد على نشره فى كافة الاقطار الحاج محمد أفندى الساسى
المغربى التاجر الشهير بمصر من أحياسة العرب ومدموائد
الادب واستخرج من كنوزهم المدفونة كتاب المبسوط
والمدونة وغير ذلك مما هو موجود لديه من
نفائسهم وآثاراتهم الثمينة وأسأله
تعالى فى البادية والنهاية أن
يوفقنا لما فيه صلاح
ديننا ودنيانا
ويرحمنا
برحمته

فهرس

﴿ كتاب مدنية العرب ﴾

صفحة

﴿ المقالة الثالثة ﴾

(فى اهتمام العرب بنشر العلوم والمعارف والتجارة والسياحة برًّا وبحرًا وفضائله)

﴿ وفيها سبعة فصول ﴾

صفحة

﴿ المقالة الرابعة ﴾

(فى ان العرب أفضل الأمم وحكمتها أشرف الحكم)

﴿ وفيها ثمانية فصول ﴾

﴿ المقالة الخامسة ﴾

(فى الحكمة والعملية ـ وفيها ثلاثة فصول)

صفحة

﴿ رسالة ابن سينا ﴾

﴿ رسالة الغزالى ﴾

﴿ المقالة السادسة ﴾

(فى السياسة والرياسة — وفيها ستة فصول)

صفحة

﴿ تمت ﴾